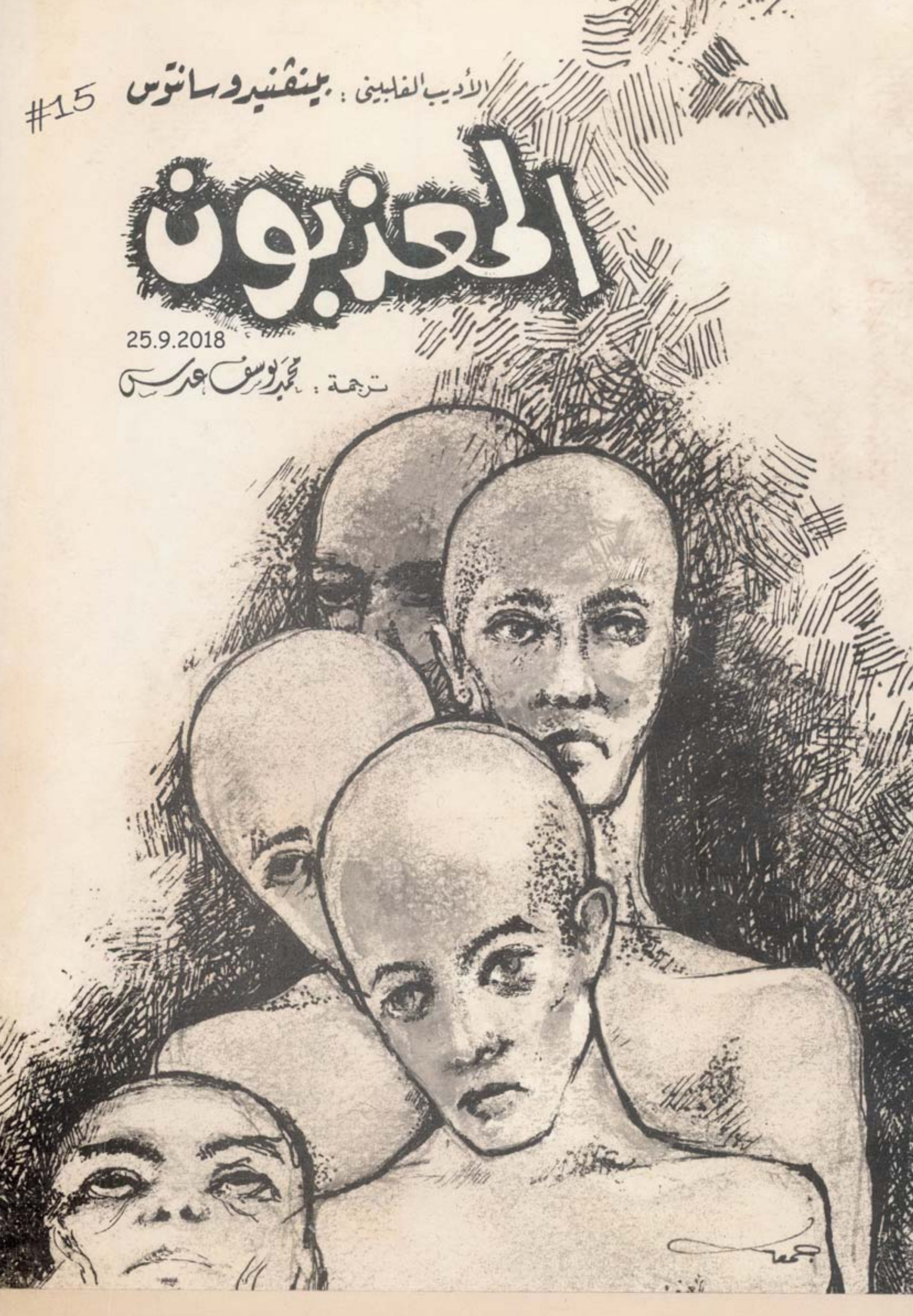


المؤسسة الدولية للنشر والمعلومات



مجموعة قصصية

للأديب الفلبيني المعاصر

بينفنيدو سانتوس

ترجمة

محمد يوسف عدس

١٩٨٥

المحتويات

الموضوع	الصفحة

تقـــــديم

ان خير ما نبدأ به تقديما لهـذه المجموعة المترجمة من القصص الفلبينى ، هو أن نقول : انها محـاولة لتقـديم أمة والتعرف عليهـا ، واستكشاف ملامح شعبها ، ولست أجد مبررا للجهد الرائع المبذول فى الترجمة خيرا من هذا الهدف . فالأدب العالمى ملىء بآثار مشهورة لم تترجم الى العربية بعد ، ومع ذلك فنحن نقـدم هذه القصص لأديب غير معروف بين قراء العربية ، بل ان وطنه الفلبين نفسها غير معروفة بدرجة كافية بين هؤلاء القراء .

ولكن هذا كله لا يمنع من أن يكون هذا العمل الذى نعرض له ، عملا انسانيا رائعا ... وخبرة انسانية جادة وأصيلة ، قد لا تجـد فرصتها الى فكر القارىء العربى بدون ترجمتها الى العربية .

والأدب — فيما نعتقد — لا يستمد محليته أو عالميته من درجـة انتشاره أو شهرته ، بقدر ما يستمد ذلك من مضمونه وأهدافه ، وعمق الخبرة التى يعبر عنها ، وأسلوبه المتميز فى التعبير . هذا طبعا مع اعترافنا بأن الشهرة العالمية لا تنفك عادة عن هذه السمات ، اذ لا يمكن أن تفتقر اليها وتستمر فى النجاح ، أعنى فى القدرة على عبـور حواجز الثقافات وحدودها .

فالأدب العـالمى اذن ليس بالضرورة احتكارا للمجتمعات الكبيرة وحدها ، ولمـا كان العمل الفنى الذى ينتمى الى المجتمعات الصـغيرة لا يجد فى العادة فرصته المواتية للانتشار العالمى الواسع ، حتى تدرك قيمته ، فان مهمة الباحثين يجب أن تنصب على مزيد من الجهد للتنقيب عليه وابرازه ونشره والتعريف به . وليس هذا مجرد خدمة فنية أو فكرية فحسب ، بل هو جهد ضرورى يتصل باحتياجات عصرنا الذى تتعايش فيه

أمم صغيرة وكبيرة ، أصبح لزاما عليها أن تتقارب وتتعارف وتتواصل بعضها مع البعض ، فى سبيل تفاهم انسانى عالمى يقوم على أساس صحيح ٠

وليست غاية التفاهم العالمى المنشود أن يسود الاتفاق فى وجهات النظر بين مختلف الشعوب ، كما لا ينبغى أن نفترض أن الجماعات الانسانية عندما تتفاهم فسوف تجد أنها متفقة فى وجهات نظرها ٠ ان انعدام التفاهم ليس عنصرا أساسيا فى صراعات اليوم ، وانما تنشأ هذه الصراعات أساسا عن أسباب موضوعية ، ومهمة التفاهم العالمى هى أن نتبين هذه الأسباب الموضوعية ، ليكون التصرف على مستوى الأفراد أو الأمم قائما على الحكمة ، التى قد توجه الصراعات والخلافات بين الناس اتجاهات أحكم ، وربما أكثر خيرا ٠

والعمل الفنى أو الأدبى هو بعض أدوات البشر فى التعبير عما يعتمل فى نفوسهم ، وهو بذلك يتضمن ذاتيتهم ، وقيمهم ومشاغلهم وقضاياهم ٠٠ ومن ثم يدخل فى نطاق تلك الأسباب الموضوعية التى تهم التفاهم العالمى ٠

لو نظرنا فى خريطة العالم لوجدنا فى المنطقة التى تقع شمال اندونيسيا وجنوب الصين ، مجموعة من الجزر يزيد تعدادها على سبعة آلاف جزيرة ٠٠ كانت منذ قرون جزءا من امبراطورية آسيوية ، ضمت ما نسميه اليوم بأندونيسيا والملايو والفلبين ٠

هذه الجزر التى يقال ان العرب قد عرفوها فى أزمنة غابرة ، وربما أنها هى التى أشار اليها الادريسى بجزر « الواق الواق » — اكتشفها ماجلان فى سنة ١٥٢١ ثم لقى مصرعه فيها ، ولكنها تعرضت من بعده لهجمات الأسبان عندما كانوا فى أوج قدرتهم الاستعمارية ، حتى نفذوا اليها ، واستولوا على معظمها ، وأطلقوا عليها اسم مليكهم « فيليب » ٠٠ فكانت جزر « الفلبين » ٠

مرت الفلبين بظروف فريدة منذ جاءها الأسبان ، ذلك أن أسبانيا قصدتها غازية محتلة ، لا عسكريا أو اقتصاديا فحسب ، بل دينيا وثقافيا أيضا •• وهكذا مضت ثلاثة قرون من كفاح دام ، متصل ، بين شعب أعزل برىء ، رفض فريق منه الاستسلام للغزو ، فدفع ثمن ذلك مزيدا من العزلة والتخلف ، وغلب فريق منه على أمره واستسلم للغزاة فكان جزاؤه تقطيعا لجذوره ، وابتعادا به عن قيمه وعاداته وتقاليده • وهكذا تكونت الأمة الفلبينية من أغلبية أصبحت كاثوليكية تأثرت أشد التأثر بالثقافة الأسبانية ، مما يلمس أثره الى اليوم فى اللغة والدين وكثير من العادات والتقاليد والقيم ، ولكنها فى نفس الوقت ليست أسبانية ، وهذا ما كان يحرص الأسبان أشد الحرص على تنبيه الفلبينى اليه ، عندما يختلط عليه الأمر ، فيقال له : « انك رغم كل شىء لست أسبانيا •• ! » •

والى جانب تلك الأغلبية الكاثوليكية توجد أقلية مسلمة ، تعرضت طوال تاريخ الاحتلال الأسبانى لعزلة ثقافية وحصار اقتصادى ، وحرب شاملة متصلة •

فلما كانت نهايات القرن التاسع عشر ، هبت دعوات التحرر والقومية والاستقلال الوطنى ، حتى وصلت موجاتها الى جزر الفلبين ، قادمة من أوربا ومن أسبانيا نفسها ، وكانت أسبانيا حينذاك تشهد نهاية المطاف بالنسبة لأمجادها الاستعمارية ، بينما كانت الحركات القومية تتبلور فى الفلبين ، حيث ظهرت تيارات فكرية قومية ، ترفض أسبانيا الاستعمارية ، ولكنها تستعمل منطقها ، وتثور على الثقافة الأسبانية ، وفى نفس الوقت تستخدم لغتها ، وتحتكم الى قيمها ، وتعترض على بعض ما فى الكاثوليكية ، ولكنها لا تخرج عما يقول به الأسبان المتحررون •

وسرعان ما تحول الرفض الهامس الى ثورة مسلحة ظهرت بوادرها فى عام ١٨٩٦ ، واستمرت فى تصاعدها ، حتى تحقق لها انتصار ساحق

على القوات الأسبانية ، وتكونت لأول مرة فى تاريخ الفلبين حكومة وطنية مستقلة ، كادت أن تجنى ثمار الكفاح وتوشك على النجاح الكامل ، عندما تدخلت أمريكا فى ثوب الصديق الذى جاء ليساعد فى القضاء على الاحتلال الأسبانى ، فاذا بها فى النهاية تحل محله •• وتفتك بالثورة الفلبينيـة لتنفرد وحدها بالسلطة فى مطلع القرن الحالى • فلما استقرت لها الأمور شرعت توجه عنايتها الى الثقافة والفكر ، فى محـاولة لانتزاع الثقافة الأسبانية من عرشها ، فأقامت خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من الاحتلال سبع مدارس ثانوية فى مانيلا وحدها • وانطلق جنودها فى الجزر وقد شرعوا أقلامهم يعلمون السكان اللغة الانجليزية •• وبدأ طوفان من الكتب والنشرات والصحف ، ثم جاءت الاذاعة والسينما ، وكل ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة ، فى محاولة لأمركة الشعب الفلبينى ، ونشر أسلوب الحياة الأمريكية فيه ، حتى أصبح هذا الأسلوب مثار اعجاب بالغ بين الفلبينيين ، وأصبحت أمنية الأمانى بالنسبة للفلبينى المثقف أن يحج الى أمريكا ، موطن الحضارة والحرية والرخاء •

ولكنه ما ان يذهب الى هنـــاك ، حتى يرى غير ما كان يتوقع •• فمازال الرجل الأبيض هو السيد ، بينما هو رغم كل ما تعلمه أجنبى غريب غير مقبـــول •

لقد تعرضت الفلبين على مدى أجيـــال وحقب لتيارات مركزة من الثقافة الأسبانية فرضت على شعبها فتقبلها وهو ثائر عليها ، ثم اجتاحته أعاصير فكرية جديدة من الثقافة الأمريكية فمزقته ، ومازالت تمزق فيه حتى جعلت منه نمطا انسانيا غريبا ، يحمل سمات الآسيوى فى وجهه ، بينما وجدانه ينطوى على مزيج من آثار ثقافتين متصارعتين هما الأسبانية والأمريكية ، حتى جاء الاستقلال ، بعد حروب ضارؤية جرت على أرض الفلبين بين القوات اليابانية والقوات الأمريكية ، فاذا بالفـــكر الفلبينى ينظر الى نفسه باحثا عن روحه ، وظهرت قوى لها قيمتها نبهت الى وجود تيارات لم تستطع قرون الاستعمار أن تخفيها ، وهى أن الفلبين أرض

آسيوية وشعبها أسيوى ، وأن ثقافتها لابد أن تتميز وأن تتسم مواقفها بالثـورة على التبعية الأوربيـة والأمريكية ، حتى لو تخلفت السياسة الرسمية عن ذلك أحيانا •

وان ما تطالعنا به الصحف من أخبار ومواقف شعبية أصيلة تنحو الى مناصرة الحق ، وتتخذ مواقفها الى جانب العـدل فى الصراع بين القوى الكبرى اليوم ، وفى أزمات الشرق الأوسط بصفة خاصة ، كل هذا ليس الا مظهرا من مظاهر التحول الذى سوف نرى المزيد من دلائله ، كلما وقفت الفلبين على حقيقة آسيويتها أكثر فأكثر •

واننا لنستطيع أن نتعرف على ملامح هذا الشعب من خلال هذه الصفحات العربية ــ الفلبينية الأصل ــ التى نضعها الآن بين يدى القارىء العــربى •

لقد تميز الفلبينى دائما بحس مرهف ، وقدرة على التعبير الخلاق ، مما سمح بوجود نهضة فنية أصيلة ، فى هذه البــلاد : فالفرق الموسيقية الفلبينية معروفة فى آسيا وأوربا وأمريكا ، وأعمــال النحت والرســم موجودة فى كثير من المتاحف الكبرى ، ولا تقل الكتــابة أو الفن القصصى بالذات ــ أهمية أو شهرة عن غيرها من الأعمال •

وقد تحرينا أن نقدم للقارىء العربى هذا العمل ، من انتاج الكاتب الفلبينى الكبــير « بينفنيدو سانتوس » والذى اختــــار له عنــــوان «You Lovely People» ، وهو أول مجموعة قصصية صدرت له فى ســنة ١٩٥٥ ، ومن ذلك الحين بدأت تتوالى أعماله الكبيرة ، وأخذ نجمه يرتفع • ومع ذلك ــ ففى تقديرى ــ أن هذه المجموعة القصصية سوف تظل من أصدق أعماله تعبيرا عن روح الانسان الغريب ، الذى تصادف أن يكون فى هذه المجموعة فلبينيا •

والغربة هنا ليست غربة المكان بقدر ما هى غربة الوجدان ، غربة

الوجدان ، غربة تتمثل فى تلك المعاناة اليومية للانسان غير الأبيض ، الذى ألقت به المقادير فى مجتمع عنصرى النزعة ، يحتقر الملون وكل ما يتصل به ، ويرفض أن يفسح له مكانا فى مجتمعه ، بل يفرض عليه القلق والعذاب ، ويجعله يحس بالضياع •• مما يعبر عنه سانتوس فى احدى قصصه حيث يقول :

« لقد كان كل منا يحاول جاهدا أن يخفى جرحه العميق تحت بشرته السمراء •• ولكننا رغم الألم كنا نمشى فى شوارع المدن الكبرى فى أمريكا ، وعلى وجهنا سرور ظاهر •• وكأننا لا نبالى بشىء •• نشتاق للصداقة •• ونحن للكلمة الطيبة •• والنظرة الحانية •• وتهزنا لمسة الحب •• » •

مؤلف هذه المجموعة أستاذ جامعى ، ارتقى الى منصب المدير لاحدى جامعات الفلبين الثلاثين ، ولكن شهرته جاءت من طريق آخر ، فهو شاعر مجيد ، وكاتب فنان ، وقصاص مرموق •

ولد فى سنة ١٩١١ بأحد الأحياء الشعبية فى مانيلا ، وتخرج من جامعة الفلبين الوطنية سنة ١٩٣٢ ، ثم ذهب الى أمريكا فى بعثة حكومية حيث درس هناك فى جامعات : الينوى ، وكولومبيا ، وهارفارد • وقد اختار هذه الأماكن مسرحا لقصصه كما سنرى •• ونال سانتوس عدة جوائز عالمية فى القصة القصيرة ، ونشرت بعض مجموعاته فى الولايات المتحدة •

وفى هذه المجموعة يعبر سانتوس عن خبراته فى أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية ، فكشف عن الوحدة والجوع والحرمان ، التى يلاقيها الغريب ، كما كشف عن جوانب السلبية والايجابية لثورة الضعيف •

ولئن كان سانتوس قد تعلم خلال سنوات اقامته فى أمريكا اللغة الانجليزية حتى أصبح أستاذا لها فيما بعد ، كما تعلم على أساطين الثقافة

والفكر الأمريكى ، منقطعا مع جيله عن جذور الثقافة الأسبانية — لئن كان سانتوس قد تعلم هذا كله وتأثر به ، لقد تعلم أيضا كيف يغوص الى أعماق القلب الانسانى والروح الانسانية ، ما يبدو لنا من خلال نماذجه الانسانية ، التى اختارها لقصصه ، من أبناء الفلبين • وهو هنا انما يكشف لنا عن مكنونات نفوسهم المعذبة ، بعيدا عن وطنهم ، الذى سقط تحت أقدام الغزاة ، وانقطعت أخباره ، ومزقته الحروب والمعارك •

ومن أبرز نماذج سانتوس ، شخصية « أمبو » التى نراها تتحرك فى أكثر من قصة ، وهى شخصية ذات ملامح فلبينية ، ووجه أسمر ، يتميز صاحبها بلكنته الصعبة ، وعواطفه الجياشة ، انسان فى كل مواقفه ، انسان ليس غريبا عنا ، وان تغيرت ملامحه واختلف منطقه •

وسانتوس يعتبر واحدا من أكبر كتاب الفلبين وان لم يكن أكبرهم على الاطلاق ، فقد أجمع النقاد على أن « نك جواكين » هو صاحب هذه المكانة • ولكن الاعتبار الذى راعيناه ، ووجدناه فى سانتوس — بالاضافة الى قيمته الفنية التى لا تنكر — هو أيضا قابليته للترجمة ، بصورة يستطيع القارىء العربى أن يتابعها ، وأن يتقبلها ذوقه •

ولقد قرأت هذه المجموعة فى لغتها الانجليزية أكثر من مرة ، وكنت أنفعل بها فى كل مرة •• ثم قرأت الترجمة العربية فانفعلت بكل كلمة فيها انفعالا لا يبعد كثيرا عن انفعالى الأول ، ولكنه حتما لا يقل عنه عمقا أو جدوى •

وقد ساعد مترجم هذه المجموعة وهو الأستاذ محمد يوسف عدس ، على ذلك مقدرة فنية ولغوية ، نلمسها فى كل سطر من هذه الترجمة ، الى جانب سنوات عدة أمضاها فى مانيلا عندما كان يعمل بالمركز الثقافى العربى هناك ، حيث اتجه بجهده للنفاذ الى قلب الفلبينى : الشعب والفرد الانسان ، وكان من نتائج هذا الجهد أنه قدم أول كتاب عن الفلبين باللغة العربية ، ثم ها هو ذا يتابع جهوده فى التعريف بشعب الفلبين

وتقريبه الى القارىء العربى ، بترجمته لمجموعة سانتوس القصصية ، التى اختار لها عنــوان « المعذبون » اتساقا مع الروح السائدة فى هــذه المجمــوعة •

ان الفن الصحيح تعبير صادق عن ذاتية الفنــان الذى يستشعر الناس ، ويتوحد معهم ، ويحس بهم ، وانه ليسرنى أن أقدم للقراء هذا العمل الفنى الجيد ، الذى أبدعه فنــان كبير له مكانة مرموقة فى بلاده ، ونقله الى العربية فنان آخر يتمتع بحس فنى مرهف وذوق أدبى متمــيز •

دكتور محمد ابراهيم كاظم

الحكيم المفتقد

لم يكن جون يقود سيارته مسرعا •• عندما كنا فى طريقنا الى شيكاغو •• وكان اليوم كئيبا على غير عادة •• فقد كانت الساعة لاتزال الثالثة بعد الظهر •• ولكن السماء الملبدة بدت كأنها فى الغسق •• بينما كان الطريق الممتد تحت أشجار الدردار الضخمة •• فى المدينة الجامعية •• معتما تماما •• قال جون وهو ينظر الى السماء من خلال زجاج السيارة :

— أرجو ألا يسقط الثلج •••

وتذكرت أول مرة رأيت فيها الثلوج •• كان ذلك فى يوم عيد الشكر (١) •• يومها التقطت لى بعض الصور •• وأنا بمعطفى السميك •• وقد انغرس حذائى فى الثلج •• وبعثت بتلك الصور الى الوطن •• ولم يكن وطنى فى ذلك الوقت •• سوى بيت صغير •• تلتف حوله الورود المتسلقة •• وتطل نوافذه على جبل مايون (٢) •• وتهب على دهاليزه نسمات باردة منعشة •• تحمل معها أريج زهرات البابايا (٣) •••

ولكن لم تصل هذه الصور الى وجهتها •• كما لم تصل أشياء أخرى كنت قد بعثت بها الى الفلبين •• وطنى •• وهكذا ردت الى جميع الرسائل •• وحزم الهدايا التى كنت قد أرسلتها فى نوفمبر •• بعد أن انقض اليابانيون على بيرل هاربر ••

---

(١) احد الأعياد الأمريكية الهامة .. وهو آخر يوم خميس فى شهر اكتوبر .. ويتميز بتقاليد معينة .. مثل صلوات الشكر لله على نعمه .. والاجتماع على غذاء ، يتكون عادة من ديك رومى .

(٢) احد المعالم الشهيرة بالفلبين .

(٣) البابايا نوع من الفواكه يشبه الشمام ويوجد بكثرة فى جزر الفلبين .

قال جـون وهو يدير مفتـاح الراديو : « دعنـا نسـتمع الى الموسيقى •• » ، وعلى الفـور امتلأت العربة بأغانى عيد الميـلاد •• وتصاعدت دقات الأجراس تطفى على هدير السيارة •• وعلى صوت الاطارات وهى تحتك بأرض الطريق ••

كان جيبى منتفخا بلفة صغيرة تحتوى هدية عيد الميلاد •• التى كنت قد بعثت بها الى ابنى الصغير •• ثم أعادها الى ساعى البريد •• عندما كنت خارجا من صيدلية شارع دانيالز •• ولمـا كنت متعجلا السفر مع جونى نسيت اخراجها من جيبى •• وقلت لجون : « أتعرف يا جون •• لقد كنت أظن أننى سوف أقضى عيد الميلاد بمفردى •• ؟ » فابتسم جون وقال وهو ينظر أمامه الى الطريق : « لقد كنت أفكر فى هذا •• » •

عندما ابتدأت اجازة عيد الميلاد ، رحل طلبة الجامعة الى بلادهم ، وفى اليوم التالى ، كنت أقف وحيدا تحت أشجار الدردار •• وأخذت أتمشى فى الطريق العريض •• وأنا أشعر كأنى غريق •• كأنى أنحدر فى بطء نحو هاوية عميقة • كان صدرى يتقلص وكانت على شفتى كلمة تريد أن تنطلق ولكنها جمدت فى مكانها ••

كنت قد اعتدت فى أيام الأسـبوع الأولى أن أذهب الى محطـة الينوى الرئيسية •• فكنت أجلس على مقعد مستطيل •• وأقضى الوقت محملقا فى جدول الرحلات المعلق على الحائط ••• فى أول الأمر كان هذا يخفف عنى بعض ما أعانيه من اضطراب •• ولكن لم تستمر الحال على ذلك طويلا •••

عجبت لدقة المواعيد المحددة للوصول وللرحيل ••• وشردت خواطرى وأنا أتطلع الى جدول الرحلات : ٧ر٣٧ و ١٢ر٠٢ •• ما هو الفرق ؟ لو أن الانسان فى النهاية عاد الى البيت •• ثم فتح الباب ، حيث تمتد الأذرع المتلهفة بالترحاب ؟ ماذا يضير العالم فى ذلك ؟ هل تتحطم الدنيا •• أو تتلاشى جميع أغانى عيد الميلاد لو أن ٧ر٣٧ أصبحت ٧ر٣٠ أو تحولت

٢٫١٢ الى مجرد ١٢ فقط •• ساعة الظهر أو نصف الليل •• هل يعنى هذا شيئا ؟ •• واذا توقف الزمن فجأة كما خيل الى فى يوم ما •• فهل يتحول هذا الجدار الذى يغص بالأرقام والكلمات الى جدار غفل ــ كغيره من آلاف الجدران الأخرى فى العالم ؟ ••• وهل يقف الناس ثابتين فى مواقعهم على شاطىء غريب •• أسلحتهم مشرعة على اشارة القتل •• هل يقفون هكذا فى شلل وجمود ؟ وأين تصبح جميع القطارات ••• ؟ هل تلتصق فى وسط صحراء أريزونا أم فى المناطق المرتفعة بكولورادو حيث تقوى الرياح •• أم بين الضفاف الخضر فى خليج راجاى ••• ؟ •

ولكن الزمن لا يتوقف •• فالقطارات تأتى وتذهب •• الى أماكن بعيدة وأماكن قريبة •• ويمر الناس بعيدا عن اشارات القتل •• وتنطلق الأغنيات العذبة فى عيد الميلاد • لم يكن هنالك مكان أذهب اليه •• ولم يسألنى أحد عن وجهتى •• لعل جميع من رآنى فى مكانى بالمحطة كانوا يعتقدون أننى ذاهب مثلهم الى بلادى •• لم لا والوقت هو وقت الذهاب الى الوطن •• ؟ ! فهل كان هناك أحد غيرى يعلم أن وطنى الذى بقى لى فى هذا العالم قد أصبح الآن مجرد غرفة صغيرة فى شارع « وســت الينوى » بين شارعى « بوسى وكولر » •

كانت غرفتى تواجه الطريق •• وكان لها مدخل خاص بها منفصل عن الشقة ، لذلك لم أكن محتاجا لازعاج جون وبتى لاندمان ، عندما كنت أعود من المكتبة فى وقت متأخر ، وأتسلل الى غرفتى بهدوء •••

كان جون يدرس اللغة الانجليزية فى الجامعــة •• أما بتى فكانت مقيمة فى البيت لترعى « لويز آن » الصغيرة ••

كانا زوجين يتمتعان بحياة زوجية هادئة •• وكانا يقضيان اجازة نهاية الأسبوع فى الترفيه عن نفسيهما أو يزوران الأصــدقاء •• وكان معظم أصدقائهما من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة •• وهى أسر نابهة ولكن بدون أطفال •• فلعلهم كانوا يرون أن هذا العالم غير صالح لانجاب

الأطفال •• كانت هناك خطوط عميقة تحت عيونهم ولا تبـدو عليهم السـعادة •

وكانت السيدات المحرومات من الأطفال يحملن « لويزآن » الى صدورهن ويناغينها بالأناشيد لحملها على النوم •• بينما كان الرجال يتسلون بأوراق اللعب ، ويحتسون البيرة •

تعودت أن أغلق باب غرفتى •• الا عندما يعزف أحدهم على البيانو وأريد الاستماع •• حينئذ فقط كنت أفتح الباب •• وكانت الموسيقى تملؤنى بالأحزان •• لم لا والحرب دائرة فى بلادى • ولم يعد هناك شىء يدعو للاطمئنان •• ؟ !

حتى محطة الأوتوبيس لم تعد تحتشـد بالطلاب كلمـا اقترب عيد الميلاد •• لذلك لم أعد أذهب اليها •• وكان هناك حد لضعفى حيال الاعتقاد بتوقف الزمن وسكون الأشياء فى اشارات متباينة عن الحيـاة والموت •• وكنت أسير تحت الأشجار عندما لا يكون الجو شديد البرودة حتى أستطيع الخروج عارى الرأس لأدع النسـمات الباردة تتخلل شـعرى •• والشـتاء يصـافح وجهى •• أو أبقى فى غرفتى لأقـرأ للفلاسفة •• وما قالوه عن الحرب والاغتراب ؟

وأصبح البيت لى وحدى بعد رحيل جون وبتى مع طفلتهما الى مونسى ، بولاية انديانا ، حيث تقيم أسرة بتى •• فاضطجعت على الأريكة بكامل ملابسى لأن البيت باردا •• ثم حاولت تشغيل المدفأة فى البدروم •• ولكن كل ما استطعت الحصول عليه ، بضع جمرات خابية ، كانت تتوهج ، الا أنها لا تعطى حرارة كافية •

وعندما عاد جـون كنت بجانب النـار أدفىء يدى فصـاح قائلا :
« يا لله ••• ! انك سوف تموت هنا يا بن ••• اننى واثق من ذلك ••• تعال معى نذهب الى شيكاغو •• »

وذهبت لأضع بعض الأدوات فى حقيبتى ، بينما كان جـون يغـير ملابسه ••• قال جون انه قرر أن يزور أصدقاءه فى شيكاغو بصحبتى •• أما « بتى » ولويزآن فانهما سوف يقضيان كل اجازة العيد فى منسى •

وصلنا الى شيكاغو فى آخر النهار وكان الجو مظلما شديد البرودة •• وعندما كنا نسير فى عطفة ضيقة معتمة ، متجهين نحو الفناء الخلفى لمحكمة « ودلاند » مررنا بعربة يجرها حصان ويعتليها سائق أسود يرتدى معطفا مهلهلا ، وينادى على الصحف القديمة •

ارتقينا سلم الباب الخلفى •• وضغط جون جرس الباب ثم انتظر برهة •• وأوشك أن يدق الجرس للمرة الثانية عندما فتحت الباب امرأة ضئيلة فى ثياب زرق • فبادرها جون سائلا : « هيه •• مارى •• هل ديوك بالداخل • ؟ » •• فقالت مارى : « تفضل بالدخول » • قالتها وهى حريصة على أن تغلق الباب من خلفنا •• ثم قادتنا من المطبخ الى حجرة المعيشة ، التى كانت تنبعث منها موسيقى ناعمة غامضة •••

لقد عجبت لانقلاب الأشياء : الباب الخلفى •• ثم المطبخ •• ثم حجرة المعيشة ! •• ولكن فيم العجب وقد اعتاد جون أن يقول انه يعرف جميع الأزقة الخلفية فى شيكاغو ! •••

لم تكن حجرة المعيشة دافئة بدرجة كافية •• وقد ظهر لى — من خلال الضوء الخافت المتوهج — أريكة وبعض مقاعد وراديو فونوجراف ، كان هو مصدر الموسيقى الناعمة الغامضة •••

قال جون : « انه باخ طبعا » فقالت مارى : « كنت أستمع اليه •• ولكن انظر ماذا أحضرت ! » ••• ثم ناولت جون أسطوانة •• فتأملها قليلا ثم أصدر صفيرا خافتا وهتف صائحا « انها السمفونية السابعة » •

واستأنفت مارى الحـديث بادية الابتهـاج : « لقـد اشتريتها

رخيصة ••• فلم تتكلف نصف ما تكلفته المقطوعات الكورالية التى جاء بها ديوك ، وسأل جون وهو يجلس على أقرب مقعد : « أين ديوك ؟ » ثم لمحنى واقفا عند المدخل فنادانى قائلا : « تفضل بالجلوس يا بن » ••• وأردفت مارى تقول •• وكأن كل واحد منا يعرف الآخر من زمن طويل : « اجلس يا بن » •••

لم نكن قد تعارفنا بعد •• فقلت وأنا أتخذ مقعدى : « شكرا » ••• ثم سألت مارى : « هل أستطيع أن آخذ عنكما معطفيكما ؟ » فسألها جون بدوره : « هل سيحضر ديوك الآن ؟ » •••

ولم تلح مارى فى أخذ معاطفنا بل اتجهت لتضع أسطوانة جديدة دون أن تجيب عن سؤال جون الذى نهض واقفا ثم أعلن أنه سوف يذهب لاحضار ديوك •• وسألنى : « أترغب فى البقاء هنا يا بن ؟ » •• فأسرعت بالوقوف وأنا أجيب : « بل سأذهب معك » •

وتبادل جون ومارى النظرات ثم توجه نحـوى بالحديث قائلا : « من الأفضل أن تبقى هنا فان الجو ردىء بالخارج » •• ولمست مارى كتفى وهى تؤكد ما قاله جون : « أراهن أ ندرجة الحرارة بالخارج تحت الصفر •• دعنى أتناول معطفك • » فناولته اليها وأنا أغمغم بالشكر • وتحسست مارى جيب المعطف المنتفخ ثم سألت : « ماذا جئت به •• أهو مسدس أم •• زجاجة ويسكى ؟ » •• فأوضحت لها أنهـا أشياء تسلمتها اليوم من ساعى البريد ••• وقال جون لمـارى التى كانت تتبعه وهو خارج عن طريق المطبخ : « قدمى اليه شيئا ما • »

لم يكن الليل قد حل بعد •• ومع ذلك فقد ظهر من خلال زجاج النافذة مئات المصابيح الكهربائية مضاءة فى عديد من الشقق •• كما ظهرت أشباح الناس ••• ولمـا كنت قد خلعت معطفى بدأت أشـعر بالبرد فاقتربت من المدفأة •• وما ان لمستها حتى التهب اصبعى •• فقد كانت المدفأة تتلمظ باللهب •••

كانت هناك جوارب جافة ومطوية •• معلقة فوق المدفأة •• وشردت خواطرى مع هذه الجوارب : ترى هل مر القديس سانتا كلوز بهـذا المكان ! •• وأى شىء وضع بهذه الجوارب القديمة المطوية •• أهو زئبق ؟ ••• كان مضحكا أن يخطر ببالى فكرة وجود زئبق بتلك الجوارب الجافة المطوية •••

لم تلبث مارى الا قليـــلا حتى عادت تحمل زجاجة كوكاكولا وهى تقول : « أوه •• انك هاهنا يا بن » •

ــ « شكرا لك يا مارى » •••

ثم عدت الى خواطرى : ما الذى جعلنى أفكر فى الزئبق ! ولكن مارى لم تدعنى لخواطرى فقد سألتنى : « هل هناك مقطوعة موسيقية معينة تحب أن أديرها لك • » ••• وارتبكت وأنا أجيب : « اننى •• أجهل هذه الأشياء •• ولا أستطيع أن أتذكر أى قطعة موسيقية استمعت اليها من قبل •• ولكننى أحب الموسيقى • » فقالت مارى : « اليك هذه •• اذن •• فلنستمع اليها •• »

••• وانطلقت الموسيقى عالية فأسرعت مارى تخفض الصوت وهى تنظر بقلق صوب المطبخ •• ثم جلست بادية الاعياء وهى تقول : « اننى أستمع الى هذه المسجلات طوال اليوم •• وقد اعتدت أن أجعل الصوت منخفضا •• خاصة عندما يكون مايك نائما •• كما هو الآن • »

فتساءلت دهشا : « مايك •• ؟ »

فأجابت : « انه طفلى » ••• وكأنما كان ينتظر هذه الاشارة •• فقد انطلقت من ناحية المطبخ صيحة طفل حادة • فأدارت مارى مفتاح الفونغراف لتنفجر الموسيقى عالية مختلطة •• حتى أصبحت الآلات الموسيقية بالنسبة لأذنى غير المدربة •• متداخلة غير متميزة •• ثم أسرعت الى المطبخ فتبعتها الى هناك •

لم أكن قد لاحظت المهد من قبل فقد كان موضوعا بجوار الموقد فى أقصى اليسار •• مستترا خلف بعض الملابس المعلقة •• هنالك كان يرقد طفل تشيع الابتسامات فى وجهه •• أما عيناه فكانتا واسعتين يقظتين ، وهو ينظر نظرات كلها رقة وحرارة وسعادة ••• وأوقفته مارى على وسادته المحشوة بالمطاط وأخذت فى الحديث : « أليس هو ولدا كبيرا •• كبيرا •• يا حبيبى مايك •• أنظر •• أليس يملك أبدع أنف ؟ •• استمع اليه يضحك يا بن •• انه مايك ! » ثم توجهت الى الطفل بالحديث : « مايك •• أريد أن تستقبل بن •• صديق جون الحميم • » •• وتناولت يد الطفل الصغير على السياج المعدنى للسرير وتركته جالسا لتحضر له زجاجة اللبن الدافىء وأخذت ترضعه بينما كنت أنظر اليه ••

ولكى أطيل فى الحديث قلت : « ان جون أيضا له طفلة • »

فقالت : « لويزآن •• لطيفة •• انها تكبر مايك بشهرين • » واستطردت أقول فى كلمات متقطعة : « ان •• أصدقاء جون الآخرين •• ليس لديهم أطفال • » •• وضحكت لى مارى لأول مرة ••• ولأول مرة أيضا بدا لى كأنها تغرينى على الاسترسال فى حديثى الساذج •• فقد أخذت تتحدث : « لقد كتب لنا جون وبتى عنك كل شىء ••• انهم يحبونك كما تعرف ••• وقالوا انك ••• » فقاطعتها قائلا : « انها أول مرة أحضر فيها عيد الميلاد بهذه البلاد » •

— « ليست شيكاغو بالمكان الذى يتمنى المرء قضاء عيد الميلاد به •• على الأقل ليس مكانا كهذا المستودع الكئيب • »

فقلت : وأنا أمد يدى لتلمس ذراع الطفل الأبيض الممتلىء :
« ان المكان هنا لطيف » •

— « حسنا ••• أظن أنه كان ينبغى ألا ••• »

فقاطعتها قائلا : « لطالمـــا تحدث عنكما جون • »

فقالت : « ان جون الطبيب العجوز لم يتغير •• »

كان جون وديوك •• وماري زملاء فى الدراسة •• وكان هو وديوك شابين نابهين •• الا أن ديوك كان متراخيا : فقد كان يريد أن يصـــبح كاتبا •• ولكن كل ما استطاع أن يحققه أنه انتهى الى وظيفة متواضـــعة وحتى هذه الوظيفة أفلتتت منه •• فقد كانت الحكومة تصفى كثيرا من المشروعات ••• لقد استطاع ديوك فى مرة أو مرتين أن ينشر بعض كتاباته فى مجلة « اسكوير » •• حيث كان يعرف بعض الناشرين معرفة شخصية •• لكنـــه منذ بدأ يدمن الخمر لم تعـــد له قدرة على الكتابة •

وعندما نشبت الحرب كان يضحك ويصيح : « لأى غرض فعـــلوا هـــذا ؟ » ••• وهكذا كانت خطاباته الى جون تقطر مرارة ••• فقـــد كان واثقا أنه هو وجون سوف يموتان فى هذه الحرب ••• وكان يقول انه يفضل الموت فى البحر •• فان البحر نظيف •• ومادام قد أصبح بدون عمل فانه اعتزم أن يلحق بالأسطول قبل أن يستدعيه الجيش ••• وقد تعود ديوك أن يقضى معظم وقته مع أصدقائه فى حانة لا تبعد كثيرا عن محكمة « ودلاند » •• مستغرقين فى التهريج والصخب ••• ولقـــد كان جـــون متأكدا أنه سوف يجـــده فى ذلك المكان •••

قالت ماري : « ان ديوك يعانى من حالة فقدان للتوازن •• وهـــذه الحرب لا تساعده على أن يتمالك نفسه •• فهو لا يريد القتال ••• ويردد القـــول بأنه لا يســـتطيع أن يقتل انســـانا •• وأن كل ما يريده هو أن يعيش •• أن يبقى معى ومع مايك •• انه يحب مايك بجنـــون •• وقـــد اعتاد أن يبقى معه فى البيت عندما أذهب للعمل فى المساء » •

وتذكرت فجأة فقرة من احدى رسائل لجون حيث يقول : « ان شاطىء الأمان هو كل ما نتحدث عنه •• انه كل ما أطمح اليه » •

دق جرس الباب فأغلقت ماري عينيها لحظات كأنها تسبح فى صلاة قصيرة •• ثم نهضت لتفتح الباب •

دخل جون وديوك وكانت فى أيديهما زجاجات بيرة وعلب لبن •• وبعض أكياس البقالة •• وأغلقت مارى الباب خلفهما •

كان ديوك أصغر من جون •• نحيفا •• حليق الذقن •• أقبل على مارى فقبلها بحرارة ، ثم تركها تأخذ منه بعض ما كان يحمل من أمتعة •• ثم تحول نحوى وشد على يدى قائلا : « مرحبا بك يا بن فى شيكاغو •• مرحبا بك فى مدينة المناكب المتزاحمة ••• » •

يقول جون : انك تكتب بالانجليزية •• ولكن ما هى الضرورة فى أن تكتب بالانجليزية ؟ انها أسوأ لغـــة يمكن التعبير بها عن الحقيقة ••• ومن جهة أخرى أليس لكم لغـــة خاصة بكم ؟ •• مرحبا •• مرحبا •• » •

وبنفس السرعة التى التفت بها نحوى تحول ثانية الى ابنه وربت على صدره ثم انحنى عليه يقول : « ما حال ميكل •• ذلك الطفل الذى فى المطبخ » فغرغر مايك مبتهجا ••

كانت مارى قد بدأت تخرج محتويات الأكياس : بيضا •• وجبنا •• وشرائح من اللحم البارد •• وبرتقالا •• وخضراوات مجمدة •• وكميات من أشياء أخرى مع زجاجات البيرة •• ضاقت بها المنضدة » •

قال جون : « لقـــد كان بن متجمدا لحد الموت عندما ذهبت اليه فى البيت » فنظر الى ديوك وقال : « لا ينبغى أن تتجمد حتى الموت يا بن فانك لم تقتل يابانيا الى الآن • » فقالت مارى : « أى حديث هـــذا عن القتل فى عيد الميلاد ! » •• فاعترض ديوك قائلا : « وأى خطأ فى هذا ؟ ان جميع الناس يفعلون ذلك الآن •• وحتى فى هذه اللحظة التى أتحدث فيها • » وتنهدت مارى بضجر : « حتى فى هـــذه اللحظة التى تتحدث فيهـــا •• ! •• ان لدينا ضيوفا لم يتناولوا أى طعام الى الآن » •

فقال ديوك : « انهم ليسوا ضيوفنا •• انهم الحكماء الثلاثة ••• فيما عدا واحد •• قرر أن يبقى فى البيت وينام خالى البال •••

لقد بكر فى الحضور قليلا •• ليزور نفس الطفل الذى فى المطبخ • » فقال جون مازحا : « أجل •• اننا نأتى لنزور الأب أيضا •• ولكن أين الأب •• وماذا يفعل ؟ » •

فرد ديوك بصوت منخفض وهو يقلب نظرات حائرة صوب المنضدة ••• حيث كانت هناك زجاجة البيرة الكبيرة : « ان الأب بخير » ثم ضـحك متسائلا : « حقا •• ما الذى حدث للحكيم المفتقد ؟ » ••• ورد جون : « انه فى امتحان أمام الدكتور لانديس » ••• فتجهم ديوك وهز رأسه ثم قال : « لا •• لا •• انه فقد طريقه •• لم يسلك سلوكا صحيحا •• كانت هناك نجوم كثيرة فى السماء •• وكانت كلها تتلألأ بالبريق •• وليس هذا عدلا بالنسبة للرجل العجوز •• فان النجـوم لا ينبغى أن تتألق •• لا ينبغى أن تتألق جميعها •• يكفى واحـدة منها فقط » •

واستدركت مارى قائلة وهى تبتسم أمام المدفأة : « أو ربما استقر فى هوليود •• وهو الآن يغط فى نوم عميق بقصره الريفى فى مرتفعات ببفرلى »•

احتسينا البيرة على مهل ثم تناولنا عشاء طيبا •• ولـما بدأ مايك ينام من جديد فتح ديوك الراديو •• الذى انفجر يعلن الينا أنباء الحرب التى خسرتها أمريكا ••• وامتد الحديث بنا فى موضـوعات شتى فكنا نطرح بعضها •• ونتمهل فى مناقشة بعضها الآخر •• موضوعات عن الحرب •• والموت ، والطريقة التى يموت بها الانسان •• وعن الموسيقى •• والموسيقى الخالدة •• وأغانى عيد الميلاد •• والأطفال الصغار •• والرجال الكبار ••

كانت الثلوج تتساقط •• وبدأت صفائح الثلج تلتمع تحت أضـواء المصابيح فى الطريق •• فلبس جون معطفه وخرج ليطمئن على سيارته • وقال ديوك : « ماذا لو أحضرت لنا معك زجاجتين من البيرة ؟ » •• وما أن خرج جون حتى انتحيت فى أحد أركان حجرة المعيشة •• واتخذت مقعدا فى مكان مظلم ثم أغلقت عينى ••• ولا أدرى اذا كانت قد أخذتنى سنة من النوم ! •• ولكن لم يمض وقت طويل حتى عاد جون •• وعندما رجعت الى

المطبخ رأيته يعطى الزوجين الجالسين الى جوار المهد لفة صغيرة وهو يقول : « إنها من بتى ومنى » •• وصاحت مارى وهى تنظر الى اللفة بين يديها : « أوه •• جون ! » ولم ينبس ديوك ببنت شفة وإنما راح يسوى بيدين مرتجفتين الثنايا البارزة فى غطاء الطفل •

وتذكرت عندئذ صندوق الهدية الصغير الذى كنت أعددته لطفلى •• فأخرجته من جيب معطفى ووضعته برفق الى جانب الطفل النائم بعد أن نزعت غلافه الخارجى ••• كانت لعبة مزينة بشرابات ملونة •• وأشرطة حمراء وصفراء •• وقلت مغمغما : « هــذه للطفل » •

وصاحت مارى : « أوه •• بن •• ما هــذه ! » •

وجاء صوت جون من ركنه مشوبا بالنعاس : « ربما كان ذهبا •• أو بخورًا •• أو مرًّا •• » وقال ديوك بصوت فيه إعياء شديد : « ربما كان تراب عصر مات منذ وقت غير بعيد » ••

تحركت من مكانى المظلم فى حجرة المعيشة ونظرت صــوب النافذة فبهرتنى أضواء العالم الخارجى •• كان الناس يسيرون فوق الثلج وهم يحنون أجسامهم قليلا تجاه الرياح التى كانت تهب من البحيرات العظمى •• وكانت آثار الأقدام ظاهرة تحت أضواء المصــابيح •• سائرة فى جميع الاتجاهات •• مطموسة بين الظلال أمام مداخل المنازل ••

وكانت هناك آثار أقدام أخرى تتلاشى ببطء على طول الطرقات التى لا نهاية لهــا فى العالم •••

* * *

خـلف مزيد من الأســـوار

جئت الى نيويورك لأرى تمثال الحرية •• وأزور ابن عمتى مانويل •• الذى هجر الفلبين منذ ست عشرة سنة مضت •• وهناك لم أجد لى مكانا فى بيت الطلبة •• فقد ابتدأت الدراسات الصيفية وأصبح البيت مزدحما بالطــلاب •

وذكرت للمسئولين أننى فلبينى •• ولكن هــذه الحجة لم تفدنى بشىء •• فاضطررت لقضاء الليلة بالفندق •

كانت مجلة « لايف » قــد نشرت فى ذلك اليوم صــورة للجنرال « واين رايت » وهو يستسلم لليابانيين فى « باتيان » بعــد ســقوط « كوريجيدور » •• كما نشرت معها صورة أخرى لأبناء وطنى يتقدمون الى الأعداء رافعين أعلامهم البيضـــاء •

استبدت بى الهواجس فأقضت مضجعى •• وزاد الأمر سوءا أن الجو كان شديد الحرارة كشأن الصيف بالفلبين •• فرقدت ساهرا طوال الليل أحدق فى الظلام •• أفكر فى بيتى وطفولتى •• فى السكك الحديدية خلف الأسوار البيضاء •• والقطارات التى كانت تجرى بعيدا فى جوف الليل •• نحو الأماكن القريبة والبعيدة •

ولمحت بالغرفة المواجهة لغرفتى بالفندق امرأة بيضـــاء •• كانت مضطجعة فى فراشها تتسلى بالقراءة على ضوء مصـــباح •• وســـاءلت نفسى : ترى هل رأت هــذه المرأة تمثال الحرية ؟ •• اننى لم أشاهده بعــد •• ولكننى رأيت ابن عمتى « مانويل » •••

حدث هذا فى منتصف الصيف •• وكان الجو حارا كالليلة الأولى التى جئت فيها الى نيويورك ولم يغمض لى فيها جفن •• وعندما اهتديت الى

مسكنه كان الليل قد حل •• غير أن الشمس كانت لا تزال مشرقة على نهر هادسون •• وكنت متأثرا لأننى سوف أراه بعد تلك السنين الطويلة •

كان يعرف أننى قادم اليـــه •• وقـــد حثنى ــ عندما تحـــدثت اليه بالتليفون ــ أن أسرع بالحضور فى أقرب وقت ممكن •• وتمنيت أن ألمس الأشواق فى صوته وهو يدعونى •

طرقت باب مسكنه وانتظرت ••• ترى كيف يبدو الآن ؟ ومـــاذا سأقول له ؟ •• هل أخبره أن أمه قد ماتت •• وأن أخاه الوحيد كان يرقد فى المستشفى عندما غادرت الفلبين ؟ •• وطرقت مرة أخرى •••

وجاء من داخل الشقة صوت يهتف قائلا : « من هناك ؟ » •• وانتابنى شعور غريب عندما بدا لى أننى أعرف هذا الصوت •• فقد كان مألوفا لدى أكثر من الصـــوت الذى حمله الى التليفون •

قلت : « أنا بن » •• ثم وضعت أذنى تجاه الباب لعلى أستمع الى رنين صـــرته مرة أخرى ••

لقد كنت ومانويل بمثابة الأخوين رغم أنه كان أكبر منى سنا •• وفتح الباب على مهل ثم جذبنى الى الداخل وهو يصيح : « بن ••• ! » ثم أغلق الباب من خلفى •• وتعانقنا •• وحاولت أن أهتف باســمه •• ولكن احتبس صـــوتى من فرط الانفعال •

قـــدم لى مانويل مقعدا فجلست •• ثم نظرت حولى فوجدت فتاة تجلس على السرير وهى تقلب بين يديها أوراق اللعب •

كانت الغرفة صغيرة ومكتظة •• أصغر من الغرفة التى أشـــغلها بالفندق •• وكانت هناك ستائر مسدلة على النوافذ •• ومنضدة صغيرة من الخشب •• ومقعدان •• وثلاجة صـــغيرة قائمة بالقـــرب من باب صـــغير مغلق •

ومن خلال النوافذ رأيت فناء مستدير الشكل به حشائش ذابلة ••• وفيما وراء ذلك كانت هناك أسوار أخرى •

كان مانويل على نفس الصورة التى تخيلته بها : طويل القـامة ، نحيفا •• وكان يرتدى قميصا من الحرير الأزرق ، يتناسب مع بنطلونه الأزرق الفاتح الذى لا ثنية له •• وكان يحمل فى معصمه ساعة ذهبية •

ابتسم لى وهو يقول — محاولا أن يرفع صوته فوق صوت الراديو ، الذى كان موضوعا على منضدة بجوار السرير : « انك لم تتغير » •• ثم أشار الى الفتاة قائلا : « اغلقى هـذا •• » فخفضت الفتاة صـوت الراديو ••• كانت فتاة بيضـاء رفيعة متألقة •

وقال مانويل وكأنه قد تذكر فجأة أن هناك شخصا آخر فى الشقة : « أوه •• انها هيلين •• انه بن يا هيلين •• ابن عمى • » •• فالتفتت هيلين نحوى وابتسمت ••• لم تكن أسنانها بالجمـال الذى أوحت به شـفتاها •

قال مانويل وهو يسير نحو الثلاجة : « بن •• ان الجو بالغ الحرارة هذه الليلة » •• ثم فتح الثلاجة ونظر بداخلها مستطردا فى الحـديث : « حسن •• حسن •• من كان يظن هذا •• بعد ستة عشر عاما نلتقى فى نيويورك ! » •

فأسررت فى نفسى ضحكة خافتة : « ان مانويل لم يتغـير » •• وكررت ذلك لنفسى : « شفتاه المكتنزتان دائمتا الابتسام •• وعينـاه السوداوان تذكراننى بعينى والدتى » •

وسألنى مانويل وهو يضـع زجاجات البيرة على المنضدة : « هل أعجبتك أمريكا » •

قلت : « تقصـــد نيويورك ؟ » •

ــ وأمريكا •• نفس الشىء •

ــ انهـــا جميـــلة •

ونظرت اليه مرة أخرى فأيقنت أنه أحسن شكلا من أخيه الذى تركته بالمستشفى •• فمانويل كان يتمتع بذلك الوجه الفتى •• وكان يبدو أقل من عمره الحقيقى الذى بلغ خمسة وثلاثين عاما •

ثم سألنى : « كيف واجهت الشتاء •• هل هناك برد فى وســـط الغرب ؟ » •• كان يتحدث كأى أمريكى بطلاقة تامة •• وكنت خجلا من نطقى •

وضع مانويل كؤوسا فارغة على المائدة وهو يقول : « لقد كان البرد يشتد أحيانا فى نيويورك ! » •• وانطلق من الراديو صوت مغن زنجى يئن •• كأنه يردد أغنية وداع قبل الموت •

عندما جلست كان ظهرى تجاه الفتاة •• غير أننى كنت أراها كلمـــا نظرت الى المرآة المثبتة أمامى فوق منضدة الزينة تقلب أوراق اللعب ثم تضـــعها على السرير •

وسأل مانويل : « هل تشرب ؟ » •• فأومأت برأسى علامة الموافقة •• فضحك ضحكة رقيقة •• ثم نظر مرة أخرى داخل الثلاجة وهو يقول : « يجب أن تتعلم الشرب يا بن •• فنحن فى أمريـــكا • » •• ثم وضـــع المشروبات الروحية فوق المنضدة •• وفتح زجاجة منها وصب فى كأسى •• ثم فتح زجاجة أخرى وهو يقول : « اننى أحب البيرة » •

كان الشراب البارد مفيدا لحلقى الجاف •• وقد أوشكت على انهاء الزجاجة كلها عندما أشار الى زجاجتى وهو يقول : « انه شراب جيد •• لا بأس به » •• فقالت هيلين : « ناولنى زجاجة » •• فاجابها وهو ينظر

الى فى بلاهة : « خذى ما تشائين » •• وانقضت لحظات ونحن صامتون لم نسمع فيها سوى صوت الراديو •• وصوت غطاء زجاجة يسقط على الأرض ، عندما فتحت هيلين لنفسها زجاجة بيرة ثم عادت الى أوراقها •

قلت : « حسـنا ••• » ولم أكن أدرى عن أى شىء ينبغـى أن أتحدث •• فبادرنى مانويل بالسؤال قائلا : « بماذا شعرت بعد بيرل هاربر ؟ » فأجبت : « أردت أن أتوقف عن الدراسة ••• » فهز رأسه قائلا : « فترة عصيبة •• أراهن أنك بكيت كثيرا منذ ذلك الحين • »

ولم أنكر ذلك •• ثم سألته بدورى : « ألم تفعل ذلك أنت أيضا ؟ » فقال : « بعد ستة عشر عاما يا بن لا يستطيع الانسان أن يبكى •• »

كانت جدران الغرفة عارية الا من لوحة صغيرة موضوعة فى اطار ومرسومة بألوان المـاء •• كانت صورة منقولة عن منظر من فينيسيا •• وأشار مانويل الى الصورة بكأسه وهو يشرح : « ليست هذه الصورة ملكى •• لقد وجدتها هنا عندما تسلمت هذه الشقة •• والعجيب أننى كنت فى بادىء الأمر أحمل فى حافظة نقودى صورة أبى وأمى •• وأخى برتو •• وقد جعلت هذه الصور مكبرة •• ووضعتها فى اطار فوق منضدة الزينة •• وكنت أنظر اليها عندما أشعر بذلك الحنين الى الوطن •• ولكن لا يستطيع المرؤ أن يستمر على هذه الحال ستة عشر عاما دون أن يصيبه التلف • »

كانت هناك صورة لمانويل على مائدة الزينة يظهر فيها مع فتـاة أمريكية وهو يحيطها بذراعيه •• وكانت الفتاة تبدو ملتفة القوام وهى بثياب الحمام •

وسألته : « متى كانت آخر مرة كتبت فيها الى الوطن ؟ » •

— « دعنى أتذكر ••• منذ خمسة أعوام ••• قد تزيد أو تنقص •• »

فقلت : « اننى أعرف أن أسرتنا افتقدتك فجأة •• فلم تعد تدرى ف أى مكان كنت •• ولمــاذا توقفت عن الكتابة اليهم ! »

ـ « حسن •• لقد ظننت أنه لم يعد عندى ما أقوله •• أليس هذا مثيرا للدهشة ؟ » وأوشكت أن أفضى اليــه بخواطرى ولكننى تراجعت وأخذت أحدث نفسى بما كنت أود أن أقوله له : « لا يا مانويل •• لقد كنت موجودا عندما توفيت أمك •• وكانت لحظات احتضارها أليمة •• السرطان •• وقال الناس ان السبب هو أنت •• وأنها كانت تنتظر أن تراك قبل أن تودع هذا العالم •• واننى عندما غادرت مانيلا رأيت برتو فى المصحة •• وكان يشبه الهيكل العظمى •• وقال لى برتو يومهــا : أرجو أن تحمل تحياتى الى مانويل •• وأن تبلغه محبتى •• »

وسمعت مانويل يسألنى : « ماذا دهاك ؟ » •

فقلت وأنا أجفف العرق عن وجهى : « لا شىء •• الجو هنا حار » •• فاستطرد وكأنه لم يستمع الى ما قلت : •• « أعتقد أنه كان ينبغى على أن أسألك عن حال أبى وأمى وعن حال برتو •• قد تكون لديك أخبار سيئة عنهم •• فلا تتردد يا بن وقل ما عندك •• فاننى قادر على احتمال ذلك •• ألا تعتقد أننى أستطيع الاحتمال ؟ ••• ولنفرض أنهم لايزالون أحياء •• فليكن الأمر كذلك ، لأننا نعلم أنه ربما كان من الأفضل لهم أن يكونوا موتى ، بدلا من أن يبقوا على قيد الحياة حتى الآن » ••• وتوقف عن الكلام كأنما هبط عليهالتعب الشديد فجأة •• ثم أضاف بعــد برهة : « تعال هنا •• جرب هذه البيرة •• انها لن تؤذيك يا أخى • »

كان صوت الراديو يدندن :

« سوف ينعطف الراعى على الغنم

وسوف يزدهر الوادى من جديد » •

واستأنف مانويل حديثه وكأنه يحاول التذكر : « أوه •• نعم •• فى احدى رسائلهم الأخيرة الى •• تحدثوا عن اعصار مروع •• كان ذلك من مدة طويلة ترجع الى خمسة أعوام أو ستة مضت •• لقد كان اعصارا مروعا حقا •• اكتسح المدينة بأكملها •• وكان هناك فيضـــان كذلك •• خلف الرمال فى حقول الأرز •• وانهارت كثير من المنازل •• ولكن منزلكم صمد للاعصار • »

وبدت عليه أمارات النوم ولكنه شحذ ذهنه •• وقال وهو يشـــير بيديه علامة الاستحسان : « كم هو منزل عتيد •• هذه القوائم الضخمة المستديرة •• وتلك الجدران الخشبية المتينة •• ان هذا المنزل ســـوف يبقى الى الأبد •• تلك هى الحقيقة •• هل تعرف كم عمر ذلك المنزل ؟ ان عمره يبلغ مائة عام •• ومع ذلك فانه لم يتزعزع •• لقد عاش فيـــه كثير من الناس وماتوا ••• وفى لمح البصر سوف يتلاشى كل شيء من هذا المنزل العتيق •• ولن تبقى فيه سوى الأشباح ••• أما أنا فلن أكون واحدا منهم •• لا يا سيدى » •• ثم هز رأسه •• وهنا لمحت بذلة نادل الفندق معلقة بجوار الحمام •• ولحظ مانويل أننى أنظر اليها فضحك قائلا : « شبح فى بذلة نادل فندق •• لابد أن يكون شبحا فقيرا • »

كان يريد مزيدا من الشراب ولكن لم تعد هناك بيرة •• فانطلق لسانه ببعض السباب •••

لم يعد الشراب فى كأسى باردا كما كان •• وشعرت كأنه لا يوجد هواء فى الحجرة •• وتحشرج صوت مانويل وهو يهمهم بكلام خافت ناظرا الى كأسه الفارغة من الشراب : « ما أغرب هذا البيت العتيق •• انه أقوى من الكنيسة •• انك تعرف أن جدنا كان أغنى من الكنيسة •• ولكن ••• »

وبادرته قائلا : « لقد سقط سقف الكنيسة • »

فقاطعنى بقوله : « أراك لا تول حسنا •• من أجل السماء •• ماذا

قال بدر •• و •• وقد كنا نخدم الكنيسة فى أيام العطلة الأسبوعية •• ألا تتذكر هذا •• ؟ » وابتسمت وأنا أتذكر تلك الأيام بينما انفجر ابن عمى ضاحكا بصوت مجلجل فى هذه المرة مما لفت نظر الفتـــاة التى فى المرآة •• ثم استطرد فى ذكرياته : « ترى هل كان بدر هذا يعرف أننى أتذوق الخمر بعده مباشرة ؟ » •• اننى مدين لبدر هذا بتذوقى الجــيد للمشروبات • » •• ورفعت الفتاة صوت الراديو فغطت الموسيقى على ضحكة فاجرة صدرت عن مانويل •• وارتفعت الأكف بالتصفيق الحار فى قلب تكساس ••• وأخذ ابن عمى يدق المنضدة — دون أن يشعر — متتبعا نغمات الايقاع •• واسترعى انتباهى صحيفة ملقاة على الأرض • فجرى نظرى على عناوينها الرئيسية •

ووقف مانويل الى جانبى وسألنى : « ما هو وضعك بالنسبة للخــدمة العسكرية •• ؟ » فأجبته •• لا شىء •• ثم أردفت قائلا :

« انها مؤجلة حتى ترد ملاحظات أخرى فى موضوع دراستى •• ولكن ماذا عنك أنت ؟ » •

فأجاب مانويل وهو يحنى رأسه فى حياء كأنما هو وصيف سيدة ذات شأن : « أنا ؟ » اننى رجل عظيم •• التهنئة لك يا مانويل بونافيستا من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية » •• ثم استرخى وقال فى صوت طبيعى : « انهم سوف ينصبونى قسيسا فى أقرب وقت •• وأنت تعرف ذلك •• ! فالى أى حد تعجبك هذه الوظيفة ؟ •• اننى مغرم بها •• وسوف أموت من أجل وطنى » •• ونطق مانويل عبارته الأخيرة وهو يقلد صوت بائع الصابون المتجــول •

فعقبت هيلين على كلامه قائلة : « انه مجنون » فقال لها : « صه ! اننى سوف أموت فى سبيل وطنى •• » ثم توقف بطريقة مسرحية وكأنما قد نسى بعض سطور الكلام ثم استأنف حديثه : « يا للجحيم •• ما هو وطنى ؟ •• تذكر يا بن ما تعودنا أن نغنيه فى المدرسة » وأردف يعنى :

بلادى العزيزة ••

أنت يا موطن الحرية ••

لك أغنى ••

فقالت هيلين : « انهم مجانين •• فهذه أمريكا • » •• وعاد مانويل يحكى ذكرياته موجها الى الحديث : « ماذا تتذكر عن هذه الأغنية •• هل كانت تسمى « باقة الورود » •• نعم يا بن •• تلك الأناشيد التى كنا نرددها فى المدرسة !! ولم نعد نسمع مثلها فى هذه الأيام •• على أن برنامج مدرستنا •••• »

كان الدفء قد أخذ يشيع فى جو الحجرة •• غير أن ذكريات مانويل أفسدت هذا الدفء •• وتذكرت أن مانويل كان هو الصبى الوحيد فى المدينة الذى يجيد العزف على الفيولين •• وقد تعود أن يقول انه سوف يصبح عازفا كبيرا •• فسألته : « لقد أخذت الفيولين معك •• أليس كذلك يا مانويل ؟ » •

— « أوه •• لقد فعلت •• ولكن ماذا أفادتنى ؟ •• لقد كنت كالفأر •• نعم كنت كالفأر •• انتقل من جحر الى جحر •• ذلك المستودع الجهنمى •• لطالما انتظرت أن أجد مكانا أستطيع العزف فيه •• وكان الجيران يصبون لعناتهم على ويدقون الجدران •• ويطلقون على أسماء •• فهل يمكن أن ترغب فى شيء كهذا ! » •

فقالت هيلين وهى ماتزال تلعب بمفردها ودون أن تنظر اليه : « لعلك كنت تعزف عزفا ردئيا » •

— « لا •• لم أكن أعزف عزفا ردئيا •• اسألى بن •• ولنفرض أننى كنت أعزف عزفا رديئا فأى ضير يلحق بهم ؟ •• كل ما هنالك أننى كنت أريد أن أعزف ، ولكنى لم أجد المكان الذى أستطيع العزف فيه ••

الوقت والمكان •• تلك كانت مشكلتى •• عمل طول النهار ونصف الليل •• أو الليل كله ونصف النهار •• لقد مرت أيام لم أكن أملك فيها حتى المأوى •• فكنت أنام تحت أنفاق السكك الحديدية •• وعندما كان يرانى رجال الشرطة كانوا يرفعون حواجبهم فى استعلاء وهم يقولون آ •• موسيقار •• لقد كانت أياما رهيبة يا بن ! » •

كانت ظلمة الليل بالخارج تزداد كثافة فلم أعد أستطيع — من خلال النوافذ — أن أرى الأسوار الأخرى فيما بعد الفناء الأمامى •• هناك حيث كانت الأعشاب ذابلة •• وفى ضوء الحجرة بدا مانويل فى ناظرى أكبر سنا مما هو عليه •• فقلت له : « ولكنك الآن تستطيع ••• »

فاعترض قائلا : « وما الفائدة ؟ والى جانب ذلك انظر الى يدى » •• ونظرت الى يدين قد دبت فيهما الشيخوخة والذبول كأعشاب ميتة •• انه على حق فلم تكن يداه تشبهان فى شىء يدى عازف الفيولين !

وسألنى مانويل : « والآن •• هل اقتنعت ؟ » •• ورحت أسترجع رسائله من كاليفورنيا الى الأسرة : « أنا أعمل فى الحقول •• أقطع الأخشاب •• أتسكع — فريزنو •• سكرامنتو •• ألاسكا •• شيكاغو •• نيويورك ••• »

وشعرت بحاجة الى مزيد من الشراب فقد جف حلقى مرة ثانية •• ولكنى بدلا من ذلك قلت : « أرى أنه من الأفضل أن أرحل الآن • » ولم يقل مانويل شيئا •• وكل ما فعله أنه نظر الى ثم تبعنى الى الباب •• فقلت له : « طابت ليلتك ! » فرد بصوت ضعيف وقد بدا عليه تعب حقيقى : « أرجو أن أراك مرة أخرى يا بن •• قبل أن أبدأ فى تلك العملية •• الموت فى سبيل وطننا ! » وأخرج من جيب قميصه صندوق سجائر ، فنظرت الى يديه مرة أخرى فاذا بهما ذابلتان •• على خلاف وجهه •• لقد ماتتا منذ وقت طويل ••

قدم مانويل صندوق سجائره الى وهو يغمغم بأنفاسه المخمورة قائلا : « خذ سيجارة » ثم تحول بنظره الى هيلين •• وتابعته بالنظر الفتاة التى كانت تلعب الورق على السرير وأنا أقول :

« لا •• أشكرك •• أنا لا أدخن • »

وعندما عدت الى حجرتى بالفندق شعرت كأن شخصا ما أعرفه قد مات •• ضاع منى فى الظلام •• واقتربت من النافذة فطرق سمعى هدير طائرة كانت تحلق فى مكان ما فوق المدينة •• وكانت الفتاة البيضاء فى الغرفة المقابلة — وهى نفس الفتاة التى رأيتها فى ليلتى الأولى بنيويورك — راكعة على ركبتها بجانب السرير تؤدى الصلاة •• ولم تكن هناك على الجدار صورة ما لأى قديس •• فقط صورة لوالدورف استوريا •• وفى طبعة بالألوان •••



الأسرى

كان الوقت متأخرا فى مساء أحد أيام الشتاء الكئيبة عندما رأيت مجموعة من أسرى الحـرب فى مدينة هايز بولاية كانسـاس •• كانوا يسيرون فوق الجليد فى ساحة الجامعة المهجورة •• منتظمين فى أربعة طوابير ، وقد ظهر الحماس واضحا فى حركتهم الرشيقة وهم يسيرون بخطوات سريعة لا تخلو من الوقار •

كانوا يبدون جميعا فى سن الشباب •• لهم وجوه متوردة •• وكان بعضهم يسير مبتسما ، وكأنهم لم يكونوا أسرى ، وانما عمال سعداء فى مزرعة سعيدة ••

كانت تلك ليلتى الأخيرة فى المدينة الجامعية ، فقد كانت خطتى تسمح لى بقضاء اجازة عيد الميلاد فى الجهة التى أريدها ، ومن ثم بدأت أخطط لرحلتى فور وصولى الى كنساس ، فقد سافرت من امبوريا الى هايز ، وكان على بعد ذلك أن أحدد المكان الذى ينبغى أن أتجه اليه •• كانت هذه تعليمات الدكتور (هجر) فى خطابه حيث يقول : « يمكنك أن تتجه الى المدينة التالية •• ثم تنتظر هناك حتى موعد الدراسة •• أو تعود الى واشنطن اذا أردت ، فالأمر فى هذا يرجع اليك أنت » •• وكان الخطاب يتضمن التهنئة التقليدية فى المناسبات ، فلم تقع من نفسى موقع الارتياح ، ومع ذلك لم أشعر أن الأستاذ الطيب قد أخطأ فى شىء ! •

ثقل على نفسى أن أتنقل بين أماكن يغطيها الجليد ، حيث الطرقات الباردة فى المدن الصغيرة تبدو بائسة كأنها تحمل فوق طاقتها من ثلوج الشتاء •• ويهـرع الناس الى منازلهم يلتمسون الدفء أمـام موقد مشتعل •

كانت الثلوج تسقط فى كل مكان — قبل عيد الشكر بوقت طويل —

على امتداد الطريق من « شيينسبرج » •• أما فى انيونتابنيورك فقد جاء الصقيع مبكرا ، •• فقبل رحيلى عن المدينة بقليل كانت الأشجار القائمة فوق التلال قد فقدت لونها الذهبى •••

كانت المحطة التالية فى رحلتى بعد هايز هى « افانستون » لذلك قررت أن أذهب الى شيكاغو •• لقد ذهبت اليها من قبل خلال عامى الأول بأمريكا •• حيث هربت من مساكن الجامعة فى « أوربانا » على اعتقاد بأننى سأقضى عيد ميلاد أفضل بشيكاغو •• ولكن الأمر كان على غير ما توقعت : فأنا أتذكر الآن تلك الرياح الباردة •• والجو المكفهر •• وأولئك الناس الغرباء الذين لا أعرفهم •• وتلك الوجوه التى لا تفصح عما وراءها من مشاعر •••

ولكنى أتذكر الى جانب هذا أيضا •• ذلك المهد الذى يرقد فيه المسيح الطفل •• تحيط به العذراء •• ويوسف •• والحيوانات •• والملوك المفتونة •• كان هذا المنظر المألوف عند أسفل القنطرة على ضفة النهر •• يتألق بالحياة •• خاصة فى الليل •• وكأن الميلاد كان يقع فى هذه اللحظة •• لحظات يعيشها الانسان فى الماضى •• وكأن سبب الفرح العظيم ماثل أمامه •• حقيقيا •• فى لحظة انبثاقه •••

كنت قد رأيت الأسرى فى طريق عودتى من المحطة بعد أن تعطل سفرى الى شيكاغو •• حيث قال لى ناظر المحطة : ان ثمة عاصفة ثلجية فى مكان ما بالطريق •• وانه من المتوقع أن تتوقف المواصلات خلال الأيام القليلة القادمة •• ثم أردف قائلا : « اعطنى رقم تليفونك وسوف أتصل بك عند اللزوم • » فأخبرته بأننى مقيم فى المدينة الجامعية •

ولم تكن هايز مدينة كبيرة •• وفى مثل هذا الوقت من السنة •• عندما تخلو من طلابها وطالباتها •• تصبح مكانا مهجورا يشعر فيه المرء بوحشة ••• لقد ظلت الثلوج تسقط ••• وأصبح الجو •• — سواء فى الصباح أو فى وقت الظهيرة — يشبه وقت الغسق •• فجميع الأشـياء

تكسـوها غلالات ضبابيـة •• رمادية اللون •• جعلتها غامضـة •• كالأشـباح •••

أبدى مشرف المبنى أسفه وهو يعيد الى مفتاح غرفتى ، عندما علم أننى لم أتمكن من السفر •• ولكنى قلت له : « لا بأس •• كل شىء على ما يرام •• فأنا أتوقع أخبارا من ناظر المحطة فى أى وقت •• » ثم أضفت مازحا : « اننى محظوظ فقـد أصبحت المدينـة الجامعيـة لى وحدى •• ! » فضحك قائلا : « هذا صحيح •• ولكنك لست وحدك تماما •• فثمة بعض أسرى من الألمـان •• يقيمون هنا بصفة مؤقتة •• أظن أنك رأيتهم •• » فأجبته وقد تذكرت أولئك الرجال الشقر الطوال •• وهم يسيرون على الجليد : « أوه •• أجل •• لقد رأيتهم بالفعل •• » •

أصبحت فى غرفتى وحيدا •• فلما خلعت معطفى ونظرت فيمـا حولى •• لاحظت أن الغرفة قد أعيد تنظيمها واعدادها ، كأنما لاستقبال وافد آخر من ضيوف المدينة الجامعية •• وبدت الغرفة غريبة عنى •• كأنى أراها لأول مرة •• شأنها فى ذلك شأن جميع الغرف التى عرفتها فى رحلاتى •• وهى فى العادة غرف مجهزة بأثاث بسيط •• روعيت فيها أسباب الراحة والدفء •• ولا تخلو من رائحة معطرة •• وليس على حوائطها شىء مما يشغل النظر •• ولكنى أشعر دائما أنها غريبة عنى •••

أطفأت النور •• وأرسلت النظر من خلال زجـاج النافذة لأرى الثلوج تحت أضواء الطريق •• وهى تسقط بغزارة •• كان الأوتوستراد يمتد غير بعيد من موقع المدينة •• ومن حين لآخر •• كانت كشافات السيارات تسطع •• ثم لا تلبث أن تتلاشى •• وكان هذا المنظر هو الشىء الوحيد المتميز فى ذلك المكان •• وفيما عدا هذا لا شىء •• سوى الرياح التى تصفر فى الفضـاء المترامى على امتداد الأرض المسـتوية البيضاء ••• ولا أدرى ما الذى جعلنى أفكر بأن هذا الطريق كان فى يوم من الأيام نهرا ••• كما هو الحال بالنسبة لنتشاتوشز •• أو كنيسة كما هو الشأن بالنسبة لكيب جيراردو ••

كانت الليلة عشية عيد الميلاد •• ولم أستطع النوم فى بادىء الأمر •• فقد كانت الغرفة شديدة الحرارة •• كما كانت ثمة جلبة تصــدر من المدفأة أشبه ما تكون بجرى الفئران فى مصيدة •• وخيل الى أننى أصبت بالحمى •• فثمة التهاب فى أذنى •• وشــعور بالضــيق فى التنفس •• فنهضــت على أطراف أصابعى وذهبت الى النافذة ثم رفعت مصراعها قليلا •• فهبت نسمة من هواء الليل لتملأ الغرفة •••وبدأت أشــعر بتحسن وأنا أتدثر بالأغطية الثقيلة •••

وتداخلت الأصوات فى رأسى •• وأنا فى حالة بين اليقظة والمنام •• فلم أعد أميز بين البعيد منها والقريب •• ولكن •• ثمة حفيف اطارات على الجليد •• وأبواق سيارات •• ثم صوت باب ينصفق •• ويطبق الصمت •• فلا شىء •• سوى ذلك الشــعور الغامض •• بأن الثلوج تواصل سقوطها على الأرض فى سكون •••

لابد أننى كنت أحلم عندما تراءت لى صورة موطنى •• وصــوت الموسيقى يتداعى فى جوف الليل •• وقد انسابت النغمات الهائمة •• لأغنية عذبة من أغنيات عيد الميلاد : ليلة هادئة •• ليلة مباركة •••

لابد أننى كنت أحــلم عندما رأيت نفسى فى بلادى •• عشــية عيد ميلاد •• وقد رجعت مع أخى من مانيلا لنقضى اجــازة العيــد فى بلدنا •• ولكننا أخطأنا •• ونزلنا من القطار فى محطة مختلفة •• وتأخرنا فى الوصول الى البيت •• لقد فاتنا أن المحطة التى نزلنا بها كانت محطة فرعية •• وليست المحطة الرئيسية للمدينة •• فقد كنا متلهفين للعــودة الى البيت •• ولكن تسرعنا جعلنا نسير خلال الظلام فى طريق طويل •• اجتزنا طرقات رملية كثيرة تحت أشجار البامبو (١) • وكنا نستدل على طريقنا بصوت النهر •• فالتزمنا السير تجاهه •• فبيتنا يقــع فى مكان ما وسط هذا الظلام •• على شاطىء النهر •• ! كان الليل جميلا •• امتلأت

---

(١) نبات الغاب الهندى يكثر فى الفلبين •

سماؤه بالنجوم •• وقال أخى جريج : « اختر أكثرها تألقا فهى التى قادت الحكماء الى المسيح الطفل فى مهده » فقلت له : « ها نحن أولاد نقوم بدور الحكماء •• ولكننا لسنا على درجة كافية من الحكمة •• فقد ضللنا الطريق الى البيت ••• ومع ذلك فان نهر سنتياجو العريق •• يقود خطواتنا اليـــه •• »

كانت الكلاب تنبح من حولنا فنزجرها •• وكلمــا مررنا بأحــد الأكواخ المصـــنوعة من عروش النيبــا (١) •• ونلمح قبس نور عــبر الجدران •• كنا نستأذن فى المرور •• فنســـمع صوتا أو أصواتا كثيرة تجيب : « تفضلوا بالمرور •• اللهِ يرعاكم •• عيد ميلاد سعيد ! » •

ولمــا اقتربنا من بعض المنازل استطعنا أن نتبين طريقنا على الضوء المنبعث من النوافذ •• كان الجو مفعما برائحة الحـــلوى والفطائر •• فشعرنا بالجوع والتعب •• ولكننا مضينا نســير •• ونســير •• حتى شاهدنا النهر تحت أضواء النجوم •• ورأينا البيت المنشود مرتفعا فوق الرمــال •••

كان أبى وأمى هناك مع الأطفال الصغار •• فلما فتحنا أغلفة الهدايا التى أحضرناها لهم ، بادر أبى قائلا : « ما كان ينبغى لكم أن تنفقـــوا كل نقودكم هكذا ••• » أما والدتى فكانت لاتزال منهمكة فى اعــداد الطعــام •• فذهبت اليهــا وأخذت من يدها المغرفة •• وبدلا من أن أساعدها •• وضعت المغرفة جانبا •• ثم أقبلت عليها •• وأحطت جسمها النحيل بذراعى •• وضممتها الى صدرى وأنا أبكى •• لقد كنت مشتاقا اليها بعد طول غياب •• فأخذت أتنسم رائحة جوز الهند فى أنفاسها •• وعبير الليمون فى شعرها •• ولكنها صاحت : « دعنى •• دعنى •• انكَ توشك أن تكسر عظامى • » وما ان أرخيت عنها قبضتى حتى أحاطت

---

(١) نوع من القش يضفر فى جدائل .. ويصنع منه جدران الأكواخ وسقوفها ..

عنقى بذراعيها •• وانخرطت هى الأخرى فى البكاء •• وهى تقـول : « لقد تغيبت عنا كثيرا يا بنى ••• »

كان جريج ينظر الى النهر من خلال النافذة •• أما أبى فقد تحـول بعيدا عنا •• وفى تلك اللحظة ارتفعت فوق هدير النهر •• فى مكان ما وسط الظلام •• أغنية عيد الميلاد : « ليلة هادئة •• ليلة مباركة •• »

حقا •• هل كنت مستغرقا فى النوم •• ولم يكن هذا كله ســوى حلم تراءى لى ! ؟ ولكن •• لم لا •• لقد اجتاحت الحرب بلادى •• ولربما كان النهر هو الشىء الوحيد الذى بقى على حاله •• أما الأشياء الأخرى •• فالله وحده يعلم ما جرى لها ••• !

عندما فتحت عينى كان ضوء النهار قد انبثق •• وكنت أرتجف من البرد •• فأسرعت الى النافذة أغلقها •• وكان الثلج قد توقف عن السقوط ولكن الشمس كانت لاتزال محتجبة •

وقلت وأنا أتطلع الى السقف : « عام سعيد » ثم سرحت خواطرى مع الدفء • والأذرع الحنون التى كانت تحيط بعنقى •• وأخذت أتشمم الهواء متلمسا فيه رائحة جوز الهند وعبير الليمون •••

ولكنى ما لبثت أن لمت نفسى قائلا : « لا تكن غبيا » فهكذا كنت أفعل دائما عندما أشعر بالوحدة التامة وبالحنين القوى الى وطنى • ومن ثم بدأت أستحضر تلك الخواطر التى اعتدتها فى مثل هــذه اللحظات لأخفف عن نفسى ما تعانيه من مشاعر الأسى •

وقلت : لكى لا تسوء حالتك كثيرا فكر فى الأماكن التى رأيتها •• وفى الناس الطيبين الذين قابلتهم ، فانك سوف تغبط نفسك على ذلك • لقد عوملت معاملة طيبة حيثما ذهبت •• وكان الناس كراما معك •• فقد احتفوا بك دائما •• وأقاموا الاحتفالات تكريما لك •• وكانت الفتيات

الأمريكيات الجميلات يطلبن منك أن توقع باسمك على أوتوجرافاتهن ، وكأنك واحد من المشاهير •• وكم كتبن اليك الرسائل ، يتحدثن فيها عن أشياء جميلة ••• تذكر أسرى الحرب •• وذلك الجندى من أوهايو الذى كتب من أحراش غينيا الجديدة الى زوجته فى أمريكا يقول : « ســوف يكون عيد الميلاد هذا العام مختلفا ، فانى أرى هنا — بدلا من شجرة عيد الميلاد — شجرة تسقط فى هذه الأحراش العفنة •• لا شىء حولى سوى رائحة العرق الكريه •• والثياب المتسخة •• ورائحة الموت السقيم •• غير أننى كلما ركعت للصلاة شعرت بأنك معى تصلين •• وهذا الشعور وحــده يا عزيزتى سوف يجعل عيد الميلاد يوما سعيدا • »

وانتابتنى فجأة رغبة ملحة فى الذهاب الى الكنيسة •• انه لا ينبغى أن أنسى ذلك فى يوم عيد الميلاد •• ولابد أن تكون هناك كنيسة ما •• ولايزال أمامى متسع من الوقت •••

وفى شوارع المدينة رأيت قلة من الناس يسيرون فى ملابســهم الجديدة ، كان بعضهم قادما من ناحية الكنيسة ، وكان بعضهم الآخر يتنزه ، اما بمفرده أو يمشى مع الآخرين وقد تشابكت أيديهم •

ركعت فى الكنيسة على ركبتى •• ولكنى لم أستطع أن أقول الأشياء التى أردت حقيقة أن أقولها •• ومر الوقت وأنا راكع فحسب ، أستمع فى صمت الى موسيقى الأرغن •• فلم أكن أفكر الا فى شىء واحد ، هو كيف أعود الى بيتى هناك •• على شاطىء نهر سنتياجو ••

فرغت من الكنيسة ثم ذهبت الى محطة السكة الحديدية ، فتعرف على ناظر المحطة فى الحال وبادرنى قائلا : « اننى آسف يا صديقى أن تمضى عيد الميلاد بعيدا عن بيتك هكذا ، ولكنى سوف أتصل بك تليفونيا بمجرد أن تأتينى أخبار تهمك • » فشكرته واتجهت خارجا من المحطة ، وكانت الشمس حينذاك ساطعة •• أما الشوارع فكانت موحلة ••

وأخذت أفكر فيما اذا كانت المطاعم تفتح أبوابها هنــا فى يــوم

عيد الميلاد ، وذلك لأننى عندما كنت فى شيكاغو — خلال عامى الأول — اضطررت أن أسير طويلا ، وأجتاز كثيرا من المبانى ، حتى عثرت على مطعم مفتوح فى أحد أسواق المدينة •

ولكن لحسن الحظ لم يكن الأمر بمثل هذا العسر فى هايز ، فقد عثرت على مطعم صغير •• فى شارع جانبى ، وكانت هناك صورة ملونة لسانتاكلوز يوزع سجاير ، معلقة على الجدار فوق مائدة الصراف ••

عدت فى المساء الى المدينة الجامعية بعد أن استمتعت بالتجوال فى الشمس ••• وبينما كنت على وشك أن أفتح باب المدخل الرئيسى لمحت رجلا يكسر الجليد بجاروفه عند الفسقية •• لقد كان واحدا من الأسرى الذين شاهدتهم بالأمس •• كان يلبس قفازا وبذلة سميكة ، فتوقفت أنظر اليه ، ولاحظت أن الجهد الذى يبذله يجعله دافئا •• وعندما التفت نحوى قلت له — متمنيا أن يفهم كلامى : « عام سعيد • » فانحنى بهدوء وابتسم وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ••• ثم استأنف عمله •

وفى تلك اللحظة تقدم نحوى شاب يرتدى الملابس العسكرية الأمريكية فحيانى بأدب ، ورددت عليه التحية ، ثم توقفنا معا ننظر الى الأسير •

كان هذا الحارس يعرفنى •• ويعرف السبب فى بقائى بالمدينة الجامعية ، فقد سبق أن أخبره بذلك مدير المبنى •

قال : « ان الأسرى يقيمون هنا بصفة مؤقتة •• انهم يشغلون ذلك الجزء من المبنى القريب من الردهة حيث تقيم • » •• ثم أضاف : « ان صاحبنا هذا ليس عليه أن يعمل اليوم •• ولكنه أينما وجد فسقية مغطاة بالجليد — يعرف أن بها سمكا — فانه يصر على اخراج السمك منها •• أما زملاؤه فانه لا يهتمون به •• انهم يفضلون البقاء فى مساكنهم حيث يستمتعون بالدفء ويلعبون الشطرنج أو يستمعون الى

الراديو • » فسألته : « هل يعرفون التحدث باللغة الانجليزية ؟ » فقال : « بصعوبة •• فهم يعرفون فقط ما يلتقطونه منا من كلمات •• عندما نتحدث اليهم •• أو ما يتعلمونه فى فصول الدراسة •• ولكن البعض منهم مجتهد •• حيث يواظب على الدراسة •• ويحاول قراءة الصحف •• أما الآخرون فانهم يكتفون بالنظر الى الصور • »

شق الأسير الجليد ثم نظـر اليـنا مبتسما •• فهتف الحارس : « أوه •• لقد نجح •• » •• وشمر الرجل عن ساعديه ثم ركع على الأرض ودفع بيده الى المـاء •• ولكنه أجفل متراجعا ، كأن المـاء المثلج قد أصابه بلذعة فى جلده •• غير أنه ما لبث أن عاود الكرة ، فوضع يده فى المـاء من جديد •• ويبدو أن المـاء لم يكن من البرودة الى الحـد الذى تخيله •• فقد استطاع أن يبقى ذراعه فيه مدة من الوقت •• باحثا عن السمك فى قاع الفسقية •••

كان يكافح لكى تصل يده الى أبعد الأعماق وهو يهتف : لا •• لا •• ! فقال الحارس : « انه عنيد •• » ثم انصرف بعيدا •••

ونهض الرجل واقفا وقد أمسك فى يده بسمكة صغيرة ذهبية اللون •• ثم قال : « انظر ••• ! » وابتسم كمن يوشك على القيام بلعبة سحرية ••• فقلت له : « ولكنها جامدة •• انها ميتة •• » فاعترض قائلا : « لا •• لا •• سوف تحيا •• ستعود الى الحياة • » وأشار الى لكى أقترب منه •• ثم سرنا معا تجاه معسكر الأسرى •••

لم أتنبه الى أننى قد مكثت وقتا بالخارج أطول مما ينبغى فى ذلك البرد ، الا بعد أن دخلنا وأغلق الباب من خلفنا •• حينذاك أحسست بدفء لذيذ يتسلل الى جسمى من حرارة الحجرة •

كان بعض الرجال يحتسى القهوة •• وقـد لاحظت أن أسرتهم نظيفة ومرتبة •• فلما رأوا ما يحمله صاحبى تحولوا بوجوههم عنه ••

وشرعوا يتحدثون بأصوات عالية •• حديثا فيه كثير من أمارات الاشمئزاز والاستهجان •• فعنفهم صاحبى وهو بادى الغضب •• ثم اتجه ناحية سريره وتناول كأسا من الزجاج •• يشبه تلك الأنابيب التى يستخدمها الطلاب فى معاملهم •• وجرى بها عائدا الى الفسقية •••

دعانى الحارس لتناول قدح من القهوة •• فجلست بين الرجـال الذين نظروا الى وهم يبتسمون •• ثم أخذوا يتحدثون معا بلغتهم •• فقال الحارس وهو يقدمنى اليهم : « انظروا •• هذا الرجل المهذب من الفلبين • » وتناول الأسرى هذه الكلمة يحاولون نطقهـا بصـعوبة : « فى •• لى •• بين •• » وبدا النطق وهو يتردد على ألسنتهم غريبـا على مسمعى •• وخيل الى أن بعضهم قال انه يعرف هذه البلاد •• أما الباقون •• فقد كان من الواضح أنهم لا يعرفون عنها شيئا •• ومن ثم عادوا الى سمرهم وضحكهم •• الا أن جماعة منهم ذهبوا الى المنضدة فتناولوا كتابا كان موجودا عليها ، ضمن مجموعة من المجلات بجـوار جهاز راديو •• وأخذوا يبحثون فى صفحات الكتاب ••

فى هذه الأثناء لمحت فى ركن من أركان المنضـدة الكبيرة شخصا يجلس مكبا على كتابة شىء ما •• وقد عجبت من أمره •• فهذه الضجة المتصاعدة من حوله لم تستطع أن تحول بينه وبين الاستغراق فى الكتابة ••

قلت للحارس وأنا أضع القدح أمامى على المنضدة •• « انهم كما يبدو لى فى حالة طيبة •• » فأجاب بقوله : « تستطيع أن تقول ذلك •• انهم آخذون فى التحسن •• » وانفجرت فى تلك اللحظة صيحة •• من الجماعة التى كانت تتصفح الكتاب :

— « الفلبين •• انها هاهنا •• » ثم جاءوا الينا بخريطة للشرق •• وهم يشيرون الى جزر الفلبين •• فنظرت اليها وأحنيت رأسى •• فقد ظهرت الجزر على الخريطة ضئيلة جدا ••

قال أحد الأسرى : « انها بعيدة •• بعيدا جدا • » وأردت تغيير

مجرى الحديث •• فسألتهم : « هل تحبون الجليد ؟ » •• فلم يفهموا سؤالى فى بادىء الأمر •• فلما تحققوا من ذلك •• أخـــذوا يتحدثون بعضهم الى بعض باللغة الألمانية •• وأخيرا قال واحد منهم : « الجليد •• ها •• ! فى ألمانيا كثير منه » •• فقلت : « فى الفلبين •• ليس عندنا جليد • » وترجم زميلهم هذا الكلام •• فعادوا مرة أخرى يتناقشون •• بينما سألنى ذلك الرجل الذى بدا أنه يعرف الانجليزية أكثر من غيره •• فقال : « ولم لا تعود الى وطنك الفلبين •• لابد أنها بلاد جميلة •• ليس بها جليد • » •

فقلت له : « أنا لا أستطيع العودة الى وطنى •• فالحرب قائمة كما تعلمون • » •• وانتقلت معانى هذه الكلمات الى الآخرين •• وسرعان ما دوت عاصفة من الضحك •• وأخذوا يتكامون عن أشياء •• كان يبدو أنها تسرهم •• ولكن ظلت هنالك عبارة معينة تتردد على ألسنتهم وتتكرر وهم ينظرون الى : « جيفانجنر •• جيفانجنر •• » وانتشرت العبارة فى أنحاء الحجرة ، كأنها فقرة من نشيد تردده فرقة للغناء •• فسألت الحارس : « فيم كل هذا الضجيج ؟ » •

ولكن المترجم أسرع بالاجابة قائلا :

ــ « انهم يقولون انك مثلهم •• أسير ! »

فقلت وأنا أحاول الابتسام : « حسنا •• ! » •

فى تلك اللحظة دخل الأسير يحمل الكأس الزجاجية بين يديه مملوءة لنصفها بالمــاء •• وقد طفت على سطحه بعض الأسماك •• كلها جامدة •• ميتة •• وتجمع حوله الأسرى الآخرون •• ينظرون الى السمك ويقولون كلاما لم أفهمه •• فنهرهم الرجل لينفضوا عنه •• وقال الحارس : « انه يصر على أن هذا السمك سوف يعود الى الحياة •• »

وضع الرجل الكأس على المنضدة الكبيرة •• ثم جلس على مقعــد أمامها •• وأخذ ينظر الى السمك •• فاقتربت منه وجلست الى جانبه ••

وأخذت أرقب معه السمك •• لعلى ألاحظ عليه شيئا من علامات الحياة •• ولكن هيهات •• لقد بدا مستغرقا فى سكون • » • وفتح أحدهم الراديو فانبعثت منه موسيقى كنسية شاعت روحها فى أرجاء المكان •• وقلت لصاحبى : « قد تكون محقا •• ! » فأجاب دون أن يحول نظره عن الكأس : « أجل •• أجل » ثم أخذ يحدث نفسه بصوت مهموس •• عرفت فيما بعد أنه كان يقول بالألمانية : « سوف يحيا •• سوف يحيا •• هناك أمل • »

ورمقنى بنظرة سريعة •• فلمحت عينيه •• لم يكن فيهما بريق الشباب •• لقد كانت نظرة رجل مكتهل ! •• وعاد يهمس من جديد :

ـ سوف يحيا •• سوف يحيا •• هناك أمل ••

لقد تعلمت هذه الكلمات ، منذ ذلك الحين ، وكنت أحاول جهدى أن أبث فى قلبى ، الايمان بها ، لاسيما فى لحظات اليأس •• وخرجت من معسكر الأسرى •• ولم أعرف بعد ذلك ما اذا كان صاحبى ذاك على حق •• !

كان ناظر المحطة قد طلبنى بالتليفون •• فتركت المعسكر لأرد على المكالمة •• ولم أكن أدرى أننى لن أرى الأسرى بعد ذلك •• فقد أخبرنى ناظر المحطة أن القطار قادم فى طريقه الى الساحل الشرقى •• ولم يكن لدى الا وقت وجيز لكى أحزم أمتعتى •• ومع ذلك فقد تمنيت لو أستطيع العودة الى معسكر الأسرى لأودعهم •• وأرى اذا ما كان السمك الذى فى كأس صاحبى قد عادت اليه الحياة ؟ •• ولكنى كنت شديد الانفعال •• فلم أذهب الى المعسكر ••

توقفت تحت المدخل المضىء أمام المدينـــة الجامعية •• بينما كان الحمال يضع حقائبى داخل السيارة •• ونظرت الى معسكر الأسرى •• فوجدته غارقا فى الظلام •• لقد ذهبوا الى فراشهم مبكرين •• ومع ذلك فلابد أن بعضهم كان لايزال مستيقظا ينظر من خلال النوافذ ••• فلوحت نحوهم بيدى مودعا ••• لعل أحدهم رآنى •• فبادلنى تحية الوداع ••

* * *

المـــذبون

كانت أول مرة أسمع فيها اسم « أمبو » يتردد فى منزلنا بواشنطن ٠٠ أثناء لعبة البوكر ٠٠ فى الليلة السابقة على رحيلى الى ميامى ٠٠ وكانت ليلة صيف شديدة الحرارة ٠٠ تميز جوها برطوبة لازجة ٠٠ كان الضباب طوال النهار يجثم على صدر المدينة ثقيلا معتما ٠٠ يحجب الشمس ، وينذر بهطول أمطار غزيرة ٠٠ ولكن المطر لم يسقط ٠٠ وجاء الليل دون أن يطرأ تحسن فى الجو ٠٠ فقد ظل الهواء راكدا لا تتحرك فيه نسمة واحدة ٠٠ حتى ان الأشجار القائمة فى الحديقة المواجهة لنا ٠٠ كانت تبدو ساكنة كأنها أشجار مطبوعة فى لوحة ٠٠ ولم يكن هنالك ما ينم عن الحياة سوى أولئك الرجال والنساء ٠٠ الذين كانوا يتمددون على الأرض المعشبة ٠٠ وحتى هؤلاء ٠٠ كانت حركاتهم الواهنة المسترخية تفصح عما بهم من تبرم وكســل ٠

أمضيت الأمسية كلها بالمنزل أحزم أمتعتى ٠٠ وما كدت أفرغ من تلك المهمة ٠٠ حتى فوجئت بطرق شديد على الباب ٠

ترى هل يمكن أن يحضروا فى مثل ذلك الوقت المتأخر ٠٠ ! انهم لن يدعوا لى فرصة للراحة ٠٠ ومع ذلك فقد شعرت بنوع من السرور لحضورهم ٠٠ فسوف أجد على الأقل من يودعنى ساعة الرحيل ٠٠ ولعل الفرصة تكون متاحة لتبادل الفكاهات ٠٠ والتحدث عن أشياء مختلفة ٠٠ قد لا يكون لها معنى ٠٠ ولكنها على أى حال سوف تزيل عن القلب بعض ما يثقله من هموم ! ٠

وتحركت نحو الباب أفتحه ٠٠ ودخل الفتيان ٠٠ وعلى رأســهم تيبوى ٠٠ الذى ألقى بسترته على أقرب مقعد فى طريقه ٠٠ وهو يصيح قائلا :

— بوكر .. بوكر .. !

كان من الواضح أن دراسته فى جامعة هارفارد لمدة عام كامل لم تهذب طريقته فى الكلام .. فلاتزال كلماته تخـرج من أنفه بأصـوات مبهمة .. وقد زاد حالته سوءا .. مرض مزمن فى جيوب الأنف .. كان دائما مصدر كثير من المنغصات .. لاسيما فى أشهر الصيف .. ويتميز تيروى بشفتين مبتلتين .. ترتسم عليهما نصف ابتسامة .. لها جاذبيتها البدائية ..

اتجه « مايك » الى الراديو وفتحه .. فهو لابد أن يبحث عن الراديو أينما وجد .. حتى فى بيوت الغرباء .. ثم يذهب اليه ويدير مفتاحه .. وفى عينيه بريق سرور .. !

وكان علينا نحن أن نعتذر عنـه فى كل مرة . زاعمين أنه لا يدرى حقيقة ما يفعل .. لقد كان متخصصا فى الاستماع الى برامج الاذاعة ! ولكنه فوق هذا .. صاحب ميول طاغية تجاه المسرح .. فهو يستطيع أن يمثل دور رجل يموت تمثيلا متقنا .. يعينه على ذلك ما كان يبدو عليه من علامات المرض .. واصفرار فى بشرته يقربه من شحوب الموتى .

ولما كنا نشير الى ذلك فى أحاديثنا .. كان يعترض بقوله :

— انه اصفرار لا يتجاوز البشرة الخارجية ..

الا أنه فى تلك الليلة كان يبدو مريضا بوضوح .. فشعره الطويل شديد الجفاف .. ووجهه قد اكتسى ببثور ملتهبة ..

أما « ليو » فقد استقر فى مقعده مفتر الثغـر عن ابتسـامته التقليدية التى لا تفارقه .. وقد اعتاد أن يرمى الآخرين بنظرة قاسية أو يلقاهم بابتسامة ملائكية .. حسب ما يرى فيهم من انكار أو مودة ..

ويتردد على لسانه عبارة : (دائما •• دائما ••) وهى لازمة لا معنى لهـا •• يغطى بها كثيرا من مواقفه تجنبا للارتباك ••

انه هو الآخر ينتمى الى جامعة هارفارد •• ولكن الذى يراه يحكم عليه بأنه من شيكاغو •• وهو محبوب من النساء •• طويل القامة •• له مثل أقدام الراقصين المحترفين •• وهو يعرف الرجل الأبيض معرفة وثيقة •• يعرف كل ذرة فيه •• وكثيرا ما كان يمثله لنا بتلك العبـارة المقتبسة : (اننى أهيم بنفسى عشقا •• وهنـالك كثير من أمثـالى •• ونحن جميعا ظرفاء) •

ولقد كنا نقول عنه : انه ناضج أكثر مما ينبغى •• !

وكان معهم فى تلك الليلة فتى آخر •• لم يسبق أن رأيته من قبل •• قدمه الينا تيروى قائلا :

— انه « فال » •• فالنتين لوبيز •• من ايلو ايلو ••

ثم نظر اليه وقال :

— أليس كذلك يا فال •• !

فأضاف فال :

— من الفلبين ••

فأبدى تيروى تأثره بانحناءة ود وهو يقول :

— لقد أحسنت يا فال ••

ثم استأنف حديثه معرضا به :

— ولكنـك أصبحت أخيرا من نيويورك •• متسـترا بدعـوى الدراسة •• !

وتدخلت فى الحديث موجها كلامى الى فال :

— لا بأس •• فهذا خير ما يمكن أن نفعله فى الوقت الراهن •• ولعلك الآن يا فال تشعر بأنك فى وطنك •• ولكن أخبرنى قبل كل شىء •• منذ متى وقعت فى هذه الجماعة الفاسدة ؟

ولفت نظرى تيروى وهو يسير نحو الثلاجة •• بينما ضحك فال ضحكة شابة صافية •• فتحولت اليه ، ونظرت فى وجهه حيث تجمعت حول عينيه تجعدات قليلة من شدة الضحك •• ولاحظت أن بشرته غاتحة اللون أكثر من أى واحد منا •• وقد بدت ذراعاه المكشوفتان بضتين ناعمتين كذراعى فتـــاة •

قال فال متجها بالحديث فى موضوع آخر :

— أعلم أنك ذهبت الى كولومبيا ••

— نعم •• فى سنة ١٩٤٢ •

فقـــال :

— من الغريب أنى لم أصادفك هناك •• فقد كنت أنا أيضا فى كولومبيا •

وذكرت له مكان اقامتى هناك •• فقال مبديا دهشته :

— ولكننا كنـــا جيرانا •• فى شـــارع « كلارمونت » •• أليس كذلك •• ! أخبرنى : فى أى « شلة » كنت • ؟

— لم تكن هناك « شلة » •• لقد ذهبت مع فيليا فقط •

— أوه •• ذلك الشاعر الحالم •• ان هذا يفسر كل شىء •• ! لقد كنت بعيدا عن العالم •••

وبينما كنا مستغرقين فى الحديث انطلقت صرخة غريبة •• كأنها آتية من عالم آخر •• واندفع على أثرها تيروى الى حجرة المعيشة ••

وهو يسب ويلعن •• ويمسح شيئا عالقا بفمه •• وقد رفـع فى يده زجاجة لبن • ثم سأل وهو بادى الامتعاض :

— ما هذا •• لبن حامض ! ؟

فأجبته قائلا :

— انه لبن زبادى •• وهذا ما تراه مكتوبا على غطاء الزجاجة •• لقد توهمت خطأ •• أنهم علموك القراءة فى هارفارد !

فقال تيروى باستغراب :

— لبن زبادى •• ! هل « دوك » موجود هنا •• ؟

لقد كنت أشترك مع دوك فى مسكن واحد •• فالشقة فسيحة •• وايجارها كبير •• ولكنها مناسبة لنا معا • وكان الجميع يعلمون أن أحدا لا يتناول اللبن الزبادى سوى دوك •

أغلق مايك الراديو على أغنية أيرلندية لبنج كروسبى قائلا :

— اننى لا أسمع هذه الأغنية حتى يراودنى النوم ••

أما تيروى فقد ذهب الى حجرة النوم •• وسمعناه يقول لدوك مداعبـا :

— حان وقت النهوض يا فراشتى العزيزة •• اللبن الزبادى فى انتظارك • وكرر قوله هذا عدة مرات •• دون أن نسمع اجابة عليه •• فخرج يقـول :

— يبدو أنه لن يستيقظ •• لابد أنه قد أفرط فى الشراب •• من يدرى •• ! انك لا تستطيع أن تحكم على الأطباء من مظهرهم •• حتى أولئك الذين يتخرجون من جونز هوبكنز •

ثم توجه الى المطبخ •• وألقى باللبن فى البالوعة ••

وفى تلك الأثناء كان مايك منهمكا فى تثبيت منضدة اللعب •• ومسح الغبـــار من فوقها •• وترتيب المقاعد حولها •

وقال ليو :

ـ لقد جئت بأوراق لعب جديدة •

وأخرجها من جيبه فوضعها فوق المنضدة •• ثم اتجه من فوره الى الشرفة الخارجية •• وما لبث الا قليلا حتى سمعناه يقول :

ـ ان الجو هنا ألطف •

وانتهزت الفرصة فذهبت الى حقيبة ملابسى أغلقها •• وأبعدها عن الطريق •

ولحقنى فال فقـــال :

ـ دعنى أساعدك •

ـ أشكر لك يا فال •

وسألنى تيروى :

ـ الى أى مكان تعتزم الرحيل ؟

ـ ميـــامى •

ـ لابد أنك أبله •• من الذى يذهب الى ميامى فى الصيف !

فقلت بعنـــاد :

ـ سوف أذهب •• وليس عندى رغبة فى لعب البوكر •

فاستدرك تيروى وقال :

ـ على كل حال سوف يتحرك قطار ميامى الساعة الثامنة صباحا ••

ولن تتأخر عنه •• فسوف ننتهى من اللعب قبل الساعة الثامنة •• وعلى أن أوصلك بسيارتى •

ـ سوف تقود عربتك وأنت نصف نائم !

ولكنه استمر فى حديثه دون أن يلقى بالا الى اشارتى :

ـ لتكن مطمئنا فستكون لدينا الفرصة لكى نلحق بالقطار •

جاء ليو من الشرفة وهو يقول :

ـ هل رأيتم الناس الذين يرقدون على أرض الحديقة •• ؟ انهم كثيرون •• وعندما نكون فى الصيف •• يصعب علينا أن نعرف : من منهم له بيت •• ومن منهم المشرد الذى لا مأوى له •• !

وهنا ارتفع صوت مايك •• وهو يقلب أوراق اللعب •• فقال بصبر نافد •• متعمدا تقليد ليو فى الكلام :

ـ دائما •• دائما •• يا لك من أبله !

فقال ليو وهو يتخذ مقعده أمام المنضدة :

ـ اننى آســف ••

قالها بنغمة صادقة •• فلعله قد أدرك أن الوقت لم يكن مناسبا لذكر البيوت والمشردين ••

وجاء من غرفة النوم صوت مشوب بآثار النعاس :

ـ اجعلوا لى مكانا معكم ••

فضحك الفتيان •• ثم أخذوا يخلعون ستراتهم •• ويتخففون من أربطة العنق •• واتخذ كل واحد منهم مكانه حول المنضدة •• وهو يضع الأوراق المالية والعملات الفضية أمامه •

وسأل تيروى وهو يخلع حذاءه :

ـ هل أجد لديكم نعلا زائدة •

فألقيت اليه النعل وسألته مستنكرا :

ـ هل ترغب فى بيجاما أيضا • ! ؟

فتجاهل قولى وغمغم قائلا :

ـ أتذهب الى ميامى فى الصيف •• اننى لا أشك فى جنونك !

وفى تلك اللحظة ظهر دوك عند مدخل الغرفة •• وقد بدا فى منامته الحريرية •• واهنا بالغ الرقة •• وكانت عيناه نصف مغمضتين كأنه لا يقوى على مواجهة الضوء الشديد •• ثم قال مرة أخرى وهو فى طريقه الى الحمـــام :

ـ أرجو أن يكون لى مكان فى اللعبة •

ولم يلبث الا قليلا حتى عاد وهو يحمل اناء كبيرا يمتلىء لمنتصفه بالعملات المعدنية والأوراق المالية الملفوفة • فتساءل مايك وهو يمســك الاناء بيده :

ـ أين تحتفظ بهذه الأشياء •

فأجاب دوك وهو يجلس :

ـ فى الثلاجة ••• !

فعلق تروى مازحا :

ـ حقا •• انها اذن ثروتك المجمدة بالثلاجة •

ولم يأبه دوك لهذا الكلام وانما التفت نحو فال مبتسما :

ـ لم أتشرف بمعرفة الأستاذ • !

فقال تيروى :

ــ انه ليس أستاذا •• ولكن ترى من يكون هو • !

ثم عقب على ذلك بأن قدم كلا منهما للآخر •• بتلميحات خالية من اللباقة حيث عرض بفال حين قال بأن عليه أن يبعد فتياته عن دوك •• ثم عرض بدوك بقوله انه متخصص فى الطب المقيت ••

وردد ليو عبارته المعهودة :

ــ دائما •• دائما ••

وكان من الواضح أنه يتلاعب بالألفاظ •• دون أن يقصد معنى ما •

كنت قد غيرت رأيى •• واتخذت لنفسى مقعدا بينهم •• ثم قلت وأنا أشير الى النقود التى وضعتها أمامى على المنضدة :

ــ سوف أغادر المكان اذا فقدت هذه النقود •• فلن ألعب بغيرها لأنى لا أحب أن أتسول فى ميامى •••

فبادر فال بقوله :

ــ من المؤكد أنك سوف تتسول فى ميامى •• فستجد هنــاك أفراد الجيش والقوات البحرية •

وصاح مايك :

ــ لنبدأ اللعب •

ولكن تيروى عاد يقول وهو يتنهد :

ــ ميامى فى الصيف •• وكأن حر واشنطن لا يكفيك •• !

لم يسقط المطر الذى بدت نذره منذ الصباح الباكر •• وها هو الضباب الكثيف الذى تجمع فى النهار قد بدأ يمتزج بعتمة الليل الزاحفة •• وجاء ليل ثقيل •• لا تخفق فيه نجمة واحدة •• ولا ترف نسمة هواء ••

ولابد أن المدينة التى أطبق عليها هذا الظلام الكئيب كانت تتثاءب وهى تقبل على النوم •• كما تفعل تلك الأشــباح الراقدة على العشب فى استرخاء وضجر ••

ومن بعيد •• من حديقة الحيوان •• انطلق فى جوف الليل •• زئير أسد حبيس •• زئير مبهور •• ليس فيه شىء من الضعف •• ولكنه يفصح عن ضجر •• أشبه ما يكون بضجر الانسان •• !

قال مايك مازحا :

ــ ان الأسد يرغب فى اللعب •• انه يقول : دعونى أشارككم هذه اللعبــة • !

فرد ليو قائلا :

ــ انها لبؤة ••

وتساءل ديوك :

ــ كيف عرفت أنها لبؤة •• وليست أسدا • ؟

فابتسم نيروى ابتسامته المعهودة وقال :

ــ أما هذه فدعها الى ليو •• فانه خبير فى هذه الأمور •

وعاد ليو يردد عبارته التقليدية :

ــ دائما •• دائما ••

اشتدت حمى اللعب •• وكنت أكسب معظم الوقت •• فتراءى لى حينذاك أن أسهر فى هذه اللعبة حتى الصباح •• معللا نفسى بأنه سيكون لدى فرصة للنوم فى القطار طوال النهار •

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا •• عندما هبت من النهر نسمة باردة •• جاءت من الشرفة المفتوحة •• مارة فى طريقها بأشجار

الحديقة •• فملأنا صدورنا بالهواء المنعش •• ولكن ما هى الا لحظات حتى تلاشت النسمات الباردة •• وتركتنا نعانى الحر والضجر من جـديد •

واسترسل مايك يصدر صفيرا رقيقا نائحا •• يستدعى به الهواء •• على طريقة الصبية فى قرى الفلبين •• عندما يرسلون طائراتهم الورقية فى الهواء •• خلال أيام الصيف التى يطيب فيها الجو •

كان الدور على مايك فى اللعب فقال :

ـ اسحب •

وكانت أنفه خلال الليل قد ظهرت عليها بثور جديدة ملتهبة ••

بدأ فال يلعب •• وكان حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئه المعتاد •• ناعما لا يبدو على وجهه أى أثر للتجاعيد •• كأنه أمير لم تمسسه يـد الزمن •• وكانت يده الأنثوية الرقيقة تحمل أوراق اللعب فى حنو كأنها تلاطفها •

قال فال :

ـ خمسة دولارات من أجل يدى العزيزة •

فرد ليو ساخرا :

ـ السعر الجارى •• حتى لأحسنها •• هو ثلاثة ونصف فقط ! ولكنى كرجل مهذب أوافق على الخمسة •• !

وتقدم كل منا بنقوده •• وبينما كان دوك يضع دولاراته الخمسـة باستخفاء قال متأففا :

ـ الحمقى يتداعون مرة واحدة •

وقال تيروى وهو يهز رأسه :

— ان الأمور آخذة فى التحسن •

ثم غمس قطارة فى زجاجة صغيرة •• ومال برأسه الى الخلف • ثم ضغط القطارة برفق لينزل السائل فى أنفه •• نقطتين فى كل فتحة أنف •• وكنت أتطلع اليه صافى الذهن •• فلم يكن هناك ما يقلق خاطرى •• ولم لا •• وأنا أرى فى يدى أوراقا رابحة : الآس والولد • !

واستطرد تيروى كلامه وهو يتململ :

— المشكلة الوحيدة •• أن السائل ينزل فى الحلق •

فعلقت على كلامه متهكما :

— أنا أعرف طريقا أفضل الى هذا الحلق •• !

وقال فال وهو ينظر فى أوراقه وقد بدا نافد الصبر :

— ليست معى أوراق ذات قيمة • !

فنظرنا اليه جميعا •• وصاح تيروى :

— مجنـــون ••

وظل يردد تلك العبارة •• التى قال عنها انها عبارة أبيه المفضلة •• لطالمـــا تحدث فى هذه الشقة عن أبيه بكل الاعجاب والتقدير •• والحب الذى يمكن أن يكنه ابن بار •• لأب أصـــبح الناس جميعا يصبون عليـــه اللعنات ••

واسترسل تيروى فى حديثه دون أن تبدو عليه المرارة :

— انهم يطلقون على أبى لعبة اليابانيين •• ولكن ماذا فعل ؟ ماذا قال عن بلاده العظيمة التى تنفث الآن غضبها على الأب والابن معا ! ؟

فقلت له :

— لا تبتئس يا تيروى •• فان التاريخ سوف ينصف أباك • وأبدى ليو شكه فى كلامى ، فقال مستنكرا :

— لا أحد يعرف أين سنكون .. عندما يصبح التاريخ متهيأ لاصدار هذا الحـكم !

كان والد ليو مديرا لاحدى الجامعات فى مانيلا .. وقد جاءته أخبار سيئة من هناك فى الشتاء الماضى .. تقول بأن أباه وأمه وأخاه وأخته قد قتلوا جميعا .. بعد احراق منزلهم وتخريبه .. فاعتزل ليو الناس فترة من الوقت .. ثم عاد الى مجرى حياته من جديد .

قال مايك :

— اننا لا نحتاج الى مؤرخين .. فالمؤرخون ليسوا معصومين من الخطأ .. انما نحتاج الى نبى ..

وكانت زوجة مايك معروفة قبل الحرب بأعمال البر .. وكانت جميلة كالدمية .. وقد جاءته هو الآخر .. أنباء من مانيلا تؤكد أن زوجته قد طلقته أثناء الاحتلال اليابانى .. ولم يعلق مايك على هذا النبأ بشىء .. سوى أنه كان يقول من وقت لآخر :

— اننى حائر .. لا أدرى ما الذى حدث لابنى .. !

أما دوك فلم يكن يتحدث عن شىء .. فقد أصبح قليل الكلام منذ تلقى خبر وفاة زوجته .. التى كانت تقيم فى وسط مانيلا .. وقد ظل محتفظا لها بصورة كان يعلقها فى المنزل الذى نسكنه معا .. وكانت تبدو فيها هزيلة .. ضئيلة الجسم .. لها عينان سوداوان يستكن فيهما توسل ورجـــاء .

وقد خرج دوك عن صمته فى ذلك اليوم حين قال وفى صوته رنة أسى عميق :

— حتى النبى .. لن يكفى .. فان التاريخ سوف يشله !

كان فال هو الشخص الوحيد بين أفراد المجموعة الذى لا أعرف عنه شيئا .. ومع ذلك فقد كنت أشعر نحوه بنوع من الحب .. لا أدرى سببه ! .. ألأنه كان يبدو فى نظرى مختلفـــا عن الجميع .. وكأنما لم

يصبه سوء ؟ •• ولكن من يدرى •• فأحيانا يكون وراء هـذا المظهـر السـعيد انسان معذب •• انسان مثلنا جميعا •

لقد كان كل منا يحاول جاهدا أن يخفى جرحه العميق تحت بشرته السمراء •• فكل منا له مأساته الخاصة •• بسبب الحرب الدائرة فى بلادنا •• ولكننا رغم الألم كنا نمشى فى شوارع المدن الكبرى فى أمريكا •• وعلى وجوهنا سرور ظاهر •• وكأننا لا نبالى بشىء •• نشتاق للصداقة •• ونمتن للكلمة الطيبة •• والنظرة الحانية •• وتهزنا لمسة الحب •

أخذ تيروى ورقتى لعب •• ثم أخرج منديله وبدأ ينشق فيه •• وقال الدكتور دوك :

— أعطنى ثلاث أوراق ••

ولم يكد ينظر فيها حتى ألقاها — بغير اكتراس — على المنضدة •• وهب واقفا ليغادر المكان وهو يقول :

— من منكم يرغب فى تناول شىء من لبن الزبادى ؟

قال ليو وهو منهمك فى تفنيط الأوراق •• وكأنه قد اندمج فى لعبته الخاصة :

— أريد ورقتين فقط •• !

والتفت مايك نحوى •• فهززت رأسى وقلت وأنا أقاوم التثاؤب :

— ليس عندى أوراق تهمك ••

فنظروا الى جميعا •• بينما كان فال يبتسم • •وكان ليو مستغرقا فى تدخين سجائره بنهم •• حتى انه لم ينظر فى أوراقه •

قال مايك وهو يمد يده الى أوراق اللعب :

— سوف آخذ ثلاث أوراق •••

وكان وجهه فى ذلك الوقت يبدو كله مشتعلا بالبثور الملتهبة •• وعاد دوك يحمل زجاجة لبن الزبادى •• ولكنه توقف ينظر الينا كأنه يتمتع بمنظرنا حول المـائدة ••

وبينما كان الآخرون يتفحصون أوراقهم كنت أنا وفال يصعد كل منا النظر فى صاحبه •• وأخذت تدور فى رأسى خواطر وتكهنات :

— ترى ماذا تملك يا فال •• أوراقا خاسرة •• أم رابحة •• ؟ مهما يكن الأمر فلن أبالى •• أم تراك يا فال تراوغنى •• ! هذا ما أخشاه •• ومع ذلك فسوف أعلمك كيف تكون أمينا فى المرة القادمة •• يا عزيزى الطالب ذو الهيئة الملكية •• لا يا فال •• دع هذه اللعبة فهى لى •• وستخرج منها •• لقد أصبح تروى ومايك ودوك خارج اللعبة •• فاذا لم يوفق ليو فى الحصول على الأوراق التى يريدها فانه سوف يخوض صراعا مريرا •• أن يكون أو لا يكون •• !

كم هو جميل أن أنام طول النهار •• فى قطار مكيف الهواء •• حيث يأتى المضيف ويقدم لى وسادة ناعمة •• وأنفحه البقشيش بسخاء •• نعم •• فاننى بعد هذه اللعبة سأكون قادرا على ذلك ••

انتزعنى فال من خواطرى حين قال :

— كيف أننى لم أرك فى كولومبيا •

وصاح ليو بصوت بادى الجزع :

— أرجوكم •• ليتقدم من يريد فتح الدور ••

— أوه •• يا لك من بائس يا ليو •• هأنتذا لا تجد فى أوراقك ما تفتتح به ••

كان فال يحصى النقود التى أمامه باهتمام واضح •• ولابد أن الأسد فى حديقة الحيوان قد استغرق فى النوم •• فقد أصبح كل شىء هادئا الآن •• فيما عدا صوت عربة تتدحرج بعيدا عند منعطف شارع أرجـــون •

قال فال وهو يضع النقود فى الاناء :

— هذه خمسون دولارا •

وابتلع دوك اللبن •• وارتعشت شفتا ليو •• ونظر الى النقود •• ثم ضغط بأصابعه على رزمة الأوراق المالية فالتصقت بأصابعه المبتلة •• وأخرج منديلا معطرا ليمسح العرق عن جبهته •• وتراءى لى أن أعلق بنكته على هذا المنديل •• ولكنى أمسكت عن هذه السخرية •• فقد بدا لى الحزن شديدا فى وجه ليو •• الذى شرع يشعل سيجارة أخرى ••• ثم ندت عنه صرخة ألم وهو يقــول :

ـ عليها اللعنة •• لقد أحرقت أصابعى • !

ونفخ تيروى بأنفه فخرج منــه زفــير مؤلم •• يا له من تعذيب للنفس •• ! ترى لمــاذا كتب علينا أن يعذب بعضنا بعضا • ! ؟

عد ليو خمسين دولارا •• ثم وضعها فى الاناء وهو يصيح :

ـ أعلن أن هذه آخر ما لدى من نقود •

وخيل الى أنه يقول انها نقود ضائعة •• وكان قد جمع الدولارات القليلة التى بقيت له •• ثم وضعها فى جيبه •• وهو يقول :

ـ أوشك الفجر على الشروق •••

قالها وكأنه يصدر حكم الاعدام على شخص ما •• وما أن فرغ من قوله حتى عادت اليه ابتسامته الغريبة •• فأضاءت وجهه بالسعادة ••

أما تيروى فقد جلس بادى الامتعاض •• ملتــوى الشــفتين •• مستغرقا فى تفكير عميق وقد اختفت من وجهه تماما تلك الابتســامة التقليدية • وما لبث أن مال بظهره الى الخلف وأسقط مزيدا من النقط فى أنفه •• فلما فرغ من هذه المهمة ، أخذ يعد نقوده الباقية •• ثم توقف عن العد وتحول بنظره الى ليو وكأنما يوجه اليه الاتهام ••

قال وهو يجتهد أن يبدو متلطفا فى الكلام :

ـ لقد أخذت ورقتى لعب •• أليس كذلك ؟

فقال ليو وكأنه لم يسمع سؤاله :

ــ دائما •• دائما ••

فصاح تيروى وقد زايله الامتعاض :

ــ لقد جاء دورك ••

أما دوك فقد نهض واقفا وهو يقول :

ــ انى ذاهب الى فراشى •

ثم تحول الى تيروى مستطردا :

ــ يمكنك أن تنام على هذه الأريكة ••

كنت لاأزال محتفظا بهدوئى وكامل يقظتى •• ولم يفتر حماسى للعب •• ولم أشعر بأى ملل •• فتوجهت الى فال متلطفا فى الحديث :

ــ أرنا ما عندك يا صديقى •• وهذه خمسون دولارا أخرى ••

كان اهتمامى الآن مركزا فى معركتى الخاصة مع فال •• أما مايك فقد أهملته •• لقد بدا فال مريضا •• ولكنه يغالب نفسه •• وهو ذا يترنم بأغنيته المفضلة •• وفى صوته رقة حزينة •• ولكنه لم يرفع نظره عن أوراقه ، وكأن أغنيته مطبوعة على صفحاتها •

وقال تيروى :

ــ انها أغنيته المفضلة •• واننى لأرتعد كلما سمعتها •

أما مايك فقد ألقى بأوراقه ثم نهض قائلا :

ــ انى منسحب من اللعب •

ولكنه نظر نحوى مبتسما وهو يتغنى بكلمات •••

والتقط فال اللحن وقد أضاءت وجهه ابتسامة مرحة ثم قال :

ــ انها أغنية البجعة الجميلة •• كم أتمنى أن تكون لى مثلها :

فقلت متهكما •• وقد تحفزت للصراع معه :

— انها ترانيم جناز •• أليس كذلك ؟

ولكن فال تجاهل سخريتى وأخذ يعد نقوده ثم قال :

— هـــذا مبلغ كبـــير •• واننى لأعجب •• من أى أرض هبطت علينـــــا •• ؟

ثم استطرد وهو مايزال على ابتسامته :

— ولكن ثق أننى لازلت أملك بقية من نقود •

ثم دفع بكمية النقود فى الاناء قائلا :

— لاتزال هناك خمسون دولارا أخرى •• فلعلك تفكر جيدا •• وتراجع نفســـك ••

فقلت له مبتسما •• وأنا أتلطف معه بقدر ما استطعت :

— ألست مقامرا صغيرا •• ؟

وهنا نطق فال لأول مرة باسم « أمبو » فقال :

— اسمع يا بن •• لقد كنت أراقبك طوال الوقت •• انك لاعب ماهر •• وانى لأسألك الآن : هل سمعت عن أمبو ؟ لابد أن تقابل أمبو ••

ثم استرسل يحصى النقود الزائدة عن الخمسين دولارا •• فلما انتهى من العد أعلن أنها سبعة وثلاثون دولارا وسبعون سنتا •• فسألته باشـــفاق :

— أتحسب السنتات أيضا •• حقا انك لمقامر •• !

وتدخل ليو وكأنه يذكرنا بوجوده فقال :

— اننى أقامر بآخر سنت فى جيبى ••

واستأنف فال حديثه :

ـ اننى معجب بك يا بن •• ويجب أن تقابل أمبو •• انه من الغريب ألا تلتقى به حتى الآن •• أوه •• أليس هذا غريبا حقا •• انه يعيش فى واشنطن •• وقد تعرفنا عليه جيدا فى نيويورك •• ألم تسمع من قبل عن أمبو ؟ ان هناك أمبو واحدا فى كل شواطىء الأطلنطى • !

قلت وأنا أدفع بالنقود الى الاناء :

ـ سبعة وثلاثون دولار وخمسة وسبعون سنتا •• فماذا أنت قائل •• ؟

وبدا على وجوه الفتية أنهم أكثر عصبية منى ومن فال •• فقد وضع فال يده على أوراقه واسترسل فى حديث رقيق بالغ التأدب :

ـ متى ستعود من ميامى يا بن ؟ فيجب أن تلتقى بأمبو فى أقرب وقت •• وأستطيع أن أرتب لهذا اللقاء •• انه شخصية ممتازة وسوف ترغب فى مشاركته اللعب ••

لقد أثارنى هذا الاهتمام بأمبو •• كأنما هو الموضوع الحيوى فى تلك اللحظات الدقيقة •• وكأن لقاء أمبو هذا أبلغ أهمية من نتيجـة اللعبة •• فقد بسط فال أوراقه على المنضدة من غير مبالاة وقال :

ـ هذه أوراقى ••

واستفزتنى رؤية الأوراق •• فذاب ما كنت أحرص عليه من هدوء وأدب وهتفت صائحا :

ـ ماذا •• ! ؟

أما ليو ـ وقد رأى أوراق فال ـ فألقى بأوراقه يائسا •• الى كومة أوراق اللعب قائلا :

ـ عليك اللعنة •

وطرحت أوراقى على المائدة قائلا : الآس والولد •

ثم أبرزت لهم الورقة الثالثة :

ـ دياموند فلوش

فصاح فال :

ـ يا الهى ••• !

وعاجلته بقولى هامسا :

ـ بقيت عندى ورقة أخيرة •• ها هى ذى •• انها تسعة ••

فقال فال :

ـ تسعتك تربح يا بن •• فعندى خمسة فقط ••

لقد انتهت اللعبة لصالحى •• فانطفأ حماسى الملتهب فجأة •• وشعرت كأن أعماق نفسى تهوى فى فراغ •• أما فال فقد أزاح النقود نحوى يقول متلطفا :

ـ لابد يا بن أن تقابل أمبو •• لا تنس ذلك •

وعلى طول الطريق الى ميامى كان أمبو يشغل كل تفكيرى ••

ـ ترى من يكون أمبو هذا •• ؟ ولمـاذا ينبغى على أن ألتقى به •• ! ؟

* * *

مطعـــم مانيـــلا

أشرفت رحلتى الى ميامى على نهايتها •• وكان على أن أعود الى واشنطن لاستئناف الدراسة •• وفى هذه المرحلة كنت سأتلقى دراستى فى كمبردج (١) ، التى سبقنى اليها زميلاى تيروى ، وليو من قبل ••

لقد حظيت فى ميامى بمشاهدة احدى معجزات اللغة الانجليزية •• فقد هبط اليها ما يقرب من ألف بحار صينى مع بضع مئات من الضباط والبحارة الروس ، وكانوا جميعا يجهلون اللغة الانجليزية •• بل ان بعضهم كان أميا لا يجيد لغته القومية • ولكن فى خلال أسابيع قليلة ، استطاعوا أن يبحروا بسفنهم وهم يلقون أوامرهم ويتلقونها بلغة انجليزية سليمة •• شأنهم فى ذلك شأن الضباط والبحارة الأمريكيين •

وكان وراء تلك المعجزة التعليمية أساتذة جامعة هارفارد الذين كان من المقرر أن أعمل تحت اشرافهم فى وقت قريب •

أفصحت وجوه الفتية عن سرور واضح لرؤيتى عندما عدت اليهم فى واشنطن •• فالعودة بعد غياب تمنحنا ذلك الاكتشاف المحبب ، أن أصدقاءنا يفتقدوننا وأننا نبادلهم نفس الشعور •

ولا يعبر الفتية عن هذا الشعور بكلمات الترحيب العاطفية •• ولا بالتنهدات •• وانما بالتلميحات الذكية يستطيعون أن يقولوا لك : انهم افتقـــدوك •• دون أن يقولوا فى الواقع هذه الكلمات •

— لعلك تلاحظ سرورنا بعودتك يا بن •• لم لا ووجودك هنا يمنحنا الفرصة لنسترد نقودنا منك •

---

(١) كمبريدج : مدينة امريكية ، وهى غير جامعـــة كمبريدج البريطانية الشـــهيرة •

— يا لكم من مقامرين !

— كيف حال شاطىء ميامى ؟ .. وكيف حال الفتيات هناك ؟

— أما عن الشاطىء فانه لايزال هناك فى موضعه .. وهو ينقسم كالعادة الى شاطىء خاص فى المقدمة والى كبائن حمر وخضر ...

أما بالنسبة للسؤال الثانى .. فأنا أريد أولا أن أستوضح منك يا دوك عما اذا كنت تسأل كرجل علم مهتم بتشريح الانسان .

فقال ليو :

— تعال يا بن تعال ... قل لنا : هل فتيات هناك نفس فتيات هنا .. ؟

ولفت نظرى ركاكة عبارته فقلت له :

— ان لغتك تثيرنى أكثر من سؤالك . !

تجاوزت سؤال ليو وأخذت أتحدث عن البعوض وكيف تستطيع أسرابه هناك أن تنقض عليك فتلسعك فى أكثر الأجزاء حساسية من جسمك .. دون خجل .. ودون وازع من ضمير ..

قال تيروى :

— أى لغة تريد دراستها يا بن ! .. ان أساسيات اللغة الانجليزية تكفيك .. وانى لا أدرى كيف ستصبح فى كمبريدج .. وما الذى يجذبك اليها . ؟ .. انك تفتقر الى الاحساس بالدهشة .. فكيف يمكنك أن تتذوق تلك الأشياء الغريبة فى متحف الجامعة .. ؟ .. ان المحاضرات التى ستلقى فى رحاب الجامعة ستكون فوق قدرتك العقلية بكل تأكيد .. فكيف يمكنك أن تتفهمها ؟ .. ولما كنت تفتقر أيضا الى أى احساس تاريخى فلن تستطيع أن تدرك قيمة تلك الآثار التاريخية فى

كمبريدج وبوســطن •• ولن تكون فى نظــرك أكثر من حشائش جامدة وأحجار •• وستكون آذانك صماء غير قادرة على الانصات الى همس العصور والأجيال •• وفوق هذا كله لن تستطيع هناك أن تلعب البوكر ••

فأشحت بوجهى عن تيروى موجها الكلام للاخرين :

ـ انه يقول أية لغة ••• ! هل سمعتم تلك المحاضرة الطويلة •• ؟

ولكن تيروى عاد يقول :

ـ اننى أسدى اليك النصيحة يا بن •• سوف تكون معنا هنا أكثر سعادة •• فليس فى كمبردج سوى الأبطال الموتى •• وأنصاف الموتى من النابهين الذين يتشدقون بالحديث عن هوميروس ، وأولئك العجائز اللائى لا عمل لهن سوى التشدق •• أجل •• التشدق فحسب •

ثم استطرد يقول :

ـ انك تملأ قلبى بالشفقة عليك ••

فقاطعه دوك قائلا :

ـ لعلك تقصد الرثاء ••

ولكن تيروى عاد يؤكد قوله :

ـ انك تملأ قلبى بالشفقة •• فأنا لا أستطيع أن أتخيــل كيف ستكون بائسا وأنت تنوء تحت أثقال من ثقافات لا حصر لها •• فلسوف يضل عقلك ، وتتحطم طاقتك وتتبعثر •• وستصبح ضحية بريئة •• لاسيما وأنت خلو من المواهب ••

لم يغضبنى حديث تيروى فقلت :

ـ انه كلام ممتع ••

وكنت حقا أستمتع بكلامه •• فأنا لا أشك أن هؤلاء الفتية يحسدونني لأنهم لن يعودوا الى الجامعة مرة أخرى مثلى •• ويبدو أن تيروى قد استخفته الفكرة الساخرة التى يوشك أن يلقيها فقال :

— قبل أن تبدأ الدراسة •• وقبل أن تصل فى بؤسك الى المدى الذى وصل اليه تشارلز ريفر التاريخى •• لا تقل اننى لم أحذرك ••

ثم استدار ودلف الى الحمام •

التفت الى دوك وقلت له :

— يبدو أنه لا توجد لى هنا خطابات ••

ونحن اذا تحدثنا عن الخطابات فاننا لا نعنى تلك التى تأتينا من جيم أو مارى فى نيويورك ، أو من آل فى بنسلفانيا ، أو من ديونى فى سان فرنسسكو •• انما نقصد خطابات من الوطن •

فهز دوك رأسه بالنفى •• ثم استدرك قائلا :

— ولكن يبدو أن تيروى قد تسلم خطابا ما — لا أدرى من أين — غير أنه يفكر فى بيع سيارته •• وقد قيل انه سيبعث الى أمه بمال تحتاج اليه ••

خرج تيروى من الحمام وهو يقول :

— صدقنى يا بن اذا قلت لك انى أعتقد أنك كلب محظوظ •• ولكن خبرنى ما هى قوة ايمانك ؟ •• أو •• هل لديك أى قدر من الايمان على الاطلاق ؟

— أنا لا أسأل عما اذا كنت تذهب الى الكنيسة أو لا تذهب •• ولا أقصد أداء الشعائر الدينية •• ولا تصنع التقوى كما يفعل الأطفال ••

ثم أشار الى قلبه قائلا :

ــ انما أقصد هذا •• ما الذى يؤمن به •؟

فقلت :

ــ لا أعرف ••

وشعرت فجأة أننى لم أعد واثقا من ايمانى كما كنت قبل ذلك •• وتمنيت حينذاك أن أكون قد تلقيت خطابا من الوطن •• فعندئذ كنت سأصبح أكثر يقينا •

وتبادلنا النظرات فى صمت : حقا اننا لم نعد فى هذه اللحظة أولئك الأطفال المرحين بأى حال •• لم نعد أولئك الأطفال الذين كانوا يملأون البيت بأصواتهم المرحة الفتية •• وبضحكاتهم وكلماتهم الجريئة •• نعم •• لقد كانت لنا •• فيما مضى •• تلك اللحظات السعيدة •• ولكنها تلاشت الآن •

رجعت بالذاكرة الى الأيام الأولى للحرب •• وكيف كان القلق الممض يعتصر قلوبنا •• ويأخذنا الهلع شفقة على مصــير أحبائنا فى الفلبين •••

ورأيت كيف كنا نميل الى السير وحدنا •• فلا نشعر الا ونحن فى احدى الكنائس نركع فى ركن من أركانها المهجورة فنبتهل الى الله ودموعنا تسيل على وجوهنا •• وكيف كنا نجلس أحيانا فى الحديقة قرب شاطىء النهر ندعو الله وأعناقنا مشرئبة الى السماء •• ولكن كلما مرت الأيام امتلأ القلب بالكآبة واليأس •• وجفت الشفاه حتى ماتت عليها كلمات الدعاء •• ولم نعد نسأل الآن شيئا ولا نعبأ لشىء ••

الا أن الأمل بدأ ينتعش فى صدورنا من جديد عندما سمعنا عن هزائم الأعداء فى أرض الوطن ••

وسمعت تيروى يقول :

ـ قد نكون أفضل بغير ايمان •• فحينذاك لن يجد شيوخ هارفارد شيئا يحطمونه فى نفوسنا بآرائهم وأفكارهم ••

وعقب ليو على ذلك بعبارته التقليدية :

ـ دائما •• دائما ••

قالها وهو يهز رأسه ضاحكا •• وأعادتنا فكاهة ليو الضاحكة الى حياة الصبا واللهو من جديد فسأل ديوك :

ـ وماذا عن تلك الفتاة السمراء من رومانيا •• تلك التى ذكرتها لنا فى أحد خطاباتك • ؟

ـ هل قلت لكم عنها انها رسامة مشهورة فى أوربا ؟ ••

وتنهد الطبيب وهو يقول :

ـ رسامة •• هل سمحت لها بتصويرك ؟ ••

فقلت :

ـ كنت أتمنى ذلك ••

وقطع فال الحديث بقوله :

ـ لشد ما تدهشنى يا بن •• ومن الضرورى أن تلتقى بأمبو ••

ـ خبرنى الآن أى شيطان هذا الأمبو ؟

ـ لأنه شيطان أريدك أن تراه •• ولسوف نجده الآن فى واشنطن •

قلت :

ـ اذن لندعوه الى شقتنا •

وبادر فال معترضا :

ـ كلا انه لن يقبل هذه الدعوة •• فأمبو انسان يعتز بنفسه •• وهو يعتقد أننا مترفعون ••

فقال تيروى :

ـ لاشك أنه على حق •• وانى لشديد الرغبة فى لقائه •• واذا كان هذا هو رأيه فينا فانه لم يفعل أكثر من أن يسمى الأشياء بأسمائها الصحيحة ••

واعترض مايك قائلا :

ـ أنا لا أرى هذا الرأى ••

فقال تيروى مستهجنا :

ـ لنكن صادقين مع أنفسنا ••

وأطلق ليو عبارته المأثورة :

ـ دائما •• دائما ••

ثم أردف بقوله :

ـ حدثنا الآن عن أمبو ••

فاستأنف فال حديثه :

ـ أمبو فلبينى •• كبير السن نسبيا •• يمارس عملا خطرا •• هو اعداد المفرقعات •• وهو يقول انه لا يمارس هذا العمل بحافز من الوطنية وانما لمجرد كسب العيش •• لقد كان شيئا مختلفا تماما قبل الحرب •• فقد كان الجميع يتطلعون الى مساعدته •• وفى سنوات الضنك كان يعول أسرة كبيرة من اخوانه الفلبينيين الذين لا مورد لهم •• كانوا يلتهمون كل ما يستطيع تقديمه اليهم ، ولم يكن هو من جانبه يدخر جهـدا فى سبيلهم •• والآن •• فان هؤلاء الذين آواهم خلال تلك السنين المريرة

مستعدون لأن يقاتلوا من أجله •• ويفتدوه بأرواحهم •• ان مجتمع الفلبينيين هنا يكن له أكبر الحب •• ولو أنه فقط قد نال حظا من التعليم لأصبح قائدا مرموقا للفلبينيين فى هذه البلاد •• ولكنه رغم كل شىء يحظى باحترام الجميع •• ربما لأنه يتميز بشىء لا يملكونه •• فانه لايزال يحتفظ بتماسكه ••• وقد يصبح أمبو واحدا منا لو أننا لم نكن ــ كما يصفنا هو ــ « أولئك المترفعين » •• واستكمالا للتعريف بأمبو أقول : ان معرفته بلغة التجالوج (١) ضئيلة •• ولكنها على كل حال أفضل من معرفته بالانجليزية •• ومع أن انجليزيته غير فصيحة ، فانه شديد الفصاحة فى لعبة البوكر •••

فقلت :

ــ لعلك تقصد أن لديه حاسة الشم •

فصاح فال :

ــ تماما •• ذلك ما أعنيه •• انه يملك هذا الشىء الذى تملكه أنت أيضا •• ولهذا أريد أن أراكما تلعبان معا ••

فتنشق تيروى ثم قال :

ــ لا تسخر يا فال •• اعطنى الحظ وسوف يكون لك كل احساسات الشم فى العــالم ••

كان تيروى مصابا فى حاسة الشم •• وقد شعر فال أنه أساء اليه بهذا الكلام فاستدرك يوضح مقصده :

ــ أنا لا أعنى حاسة الشم بمعناها المــادى ••

---

(١) التجالوج هى اللغة القومية للفلبين الان ، ولكنها لم تكن دارجة فى المناطق الجنوبية والوسطى من جزر الفلبين ••

فقلت :

ـ اذا كنت تعنى أن أمبو مقامر محترف ، فاننى فى هذه الحالة لا أحب أن ألعب معه •• لأنى لست لاعبا من هذا الطراز •• واذا كنت قد كسبت مؤخرا •• فقد كان هذا ضربة حظ ، أو هو كما يقول البسطاء ، شىء يأتى مع حسن النية •• لا مهارة ولا تدبير •• وبلغة دوك التى تستعصى على التقليد : (تارة أنا محظوظ •• وتارة أخرى لا !) •

ـ أوه •• لا •• ليس أمبو مقامرا محترفا •• فأنا لم أر فى حياتى لاعبا شديد الاحساس مثله •• ولا يكون هكذا المقامر المحترف •• وانك لتنظر الى صفحة وجهه طوال اللعب فترى شتى الانفعالات تنعكس عليه •• ولقد تشعر بالشفقة عليه فى بداية اللعب ، حتى تراه يكسب •• وتتكدس النقود أمامه أكواما •• !

كان تيروى أكثرنا شغفا بشخصية أمبو فقال :

ـ لابد أن نرى هذا الرجل •

خرجنا لنرى أمبو •• فقد قيل انه اعتاد التردد على (مطعم مانيلا) الذى يقع عند تقاطع شارع « ك » والشارع الرابع •

ويتكون مبنى المطعم من طابقين ، وهو مطلى باللون الأبيض ، ويقع فى أطراف حى الملونين بمدينة واشنطن ، حيث يقطن أكبر عدد من الفلبينيين المغتربين ، ولم تكن هذه المنطقة قد أصبحت بعد جزءا من حى الملونين عندما بدأت جماعات الفلبينيين الوافدين تتكاثر عليها عاما بعد عام ••

وفى هذا المطعم كانت تقدم أجود الأطباق الفلبينية ، كانت حجرة الطعام فيه نظيفة ، تطل نوافذها ذات الستائر على حديقة نامية العشب ، بها مساحات قليلة زرعت بالطماطم والباذنجان وبعض أنواع أخرى من الخضروات •

وكانت المناضد والأطباق نظيفة دائما .. تشبه فى نظافتها أولئك الفتيات الأمريكيات اللائى كن يقمن على خدمة الرواد ، وفى بعض الأحيان كنا نسمع أن أحد الشباب قد هرب مع واحدة منهن ليتزوج بها ، بعد حفل سريع فى احدى المدن الصغيرة بولاية ميريلاند ، أو بغير احتفـــال على الاطــلاق .

وعند دخولنا رأينا مجموعة من الشبان يأكلون على بعض الموائد ، كان معظمهم من سائقى التاكسيات ، وقد رأينا سياراتهم من قبل ــ رابضة تحت الأشجار فى شارع ك . وفى أحد الأركان لمحنا شابين من أولئك الذين يرشدون طلاب المتعة فى ليــالى واشنطن ، وكان فال يعرفهما معــرفة جيــدة ..

وفى الحجرة المتصلة بحجرة الطعام كان يوجد بيانو قديم ، ذهب اليه وشرع يعزف احدى مقطوعات شوبرت الموسيقية وهو يقول :

ــ اننى أعزف هذه المقطوعة أفضل من عزف أختى ، مع أنها طالبة فى الكونسرفتوار .

وعلى جدران المطعم حديثة الطلاء ، شوهدت بعض الصور ذات الأطر ، لعظماء الفلبين السابقين أمثال : ريسال ، وكيزون ، وأوسمينيا (١) . كما ارتفعت فى أحد الأركان أعلام أمريكية وفلبينية فوق مشجب الملابس ، كانت ألوانها الحمراء والبيضاء والزرقاء كالحة ، كما انطفأ بريق الشمس والنجوم عليها بفعل السنين والأتربة .

حل موعد الغداء ، فأعدت لنا مائدة ذات ستة مقاعد ، بجوار نافذة مسدلة الستائر فى أقصى الحجرة .. واتجه فال الى ركن المطبخ وأخذ يتحدث الى الطاهى .. كان المطبخ صغيرا تحتل الثلاجة الضخمة حيزا

---

(١) ريسال ، وكيزون ، وأوسمينيا ، أسماء أبطال وزعماء مشهورين فى تاريخ الفلبين .

كبيرا منه •• وبالقرب من الباب جلس رجل ضخم الجسم يأكل بيديه وقد ظهرت أسنانه الصفراء من بين شفتيه اللتين لم تكفا عن الحركة بين كلام وضحك ، بينما تتناثر منهما حبات الأرز وفتات اللحم •

كان فال يقف عند مدخل المطبخ يهمس بطلباته الى الطاهى الذى استمر يومىء برأسه •• وتعمدت احدى فتيات المطعم — كلما مرت خلف فال — أن تضغط على ظهره بصدرها الممتلىء ، غير أنه ظل يهمس الى الطاهى دون أن يعيرها أدنى التفات •

استغرق ليو فى مراقبة جماعة كانت تلعب الورق بالقرب من الباب المواجه لشارع ك ، بينما أخذ مايك ودوك يدوران فى المكان ، وقد بدا عليهما الضجر ، ومن وقت لآخر كانا يتوقفان أمام احدى الصور الصفراء المعلقة على الجدران أو فوق المدفأة •

أما تيروى فكان مايزال أمام البيانو يتخبط فى عزف مقدمة المقطوعة الموسيقية « بولونيز » لشوبان ، وكأنه يتحسس طريقه فى الظلام ، فكان يتلجلج ويضيع منه الطريق ، ثم يعاود خطواته الأولى من جديد ، ولكن بثقة أقل من المرة السابقة ، حتى يئس تماما من المحاولة ، فأخذ يجرب مقطوعة أخرى ، ولكنها هى الأخرى لا تستجيب له • ثم التفت الينا أخيرا وقال :

— تستطيع أن تعتبرنى فنانا متعدد المواهب ••

فرد عليه مايك بسخرية :

— أنت عاجز عن استخراج أى نغمة من البيانو •• فلماذا لم تفكر فى أحاسيس هؤلاء الناس الذين يتحملونك على مضض ؟

وتضاحكنا ، فانفجر بقية الفتيان ضاحكين ، فقد : تنبهوا الى أننا نأخذ من تيروى مادة للسخرية ، وبدا سرورهم لذلك واضحا •

كان البعض يتحدث بأصوات عالية فى شئون الحياة اليومية المعتادة ، وأخذ البعض الآخر يروى قصص مغامراته الحقيقية أو الوهمية مع الجنس اللطيف ، وقصص المراهنات الخرافية التى كسبها أو خسرها على موائد القمار فى الحى الصينى .

وكان أكثرهم يحرص على ارتداء الزى الرسمى (١) ، ولكنهم جميعا قد تخففوا من التكلف لاعتبارات السن .. واذا اتجه أحدهم الينا بسؤال فانه يبدأ عادة بتلك العبارة : (هل صحيح كذا ...) ، وكنا لا نبخل عليهم بالاجابة ، وقد يحدث أحيانا خلال المناقشات أن يحتد أحدهم على صاحبه ويوشك على الاشتباك معه فى عراك ، فهم لايعرفون الموضوعية فى مناقشة المسائل ، حتى لو كان الموضوع هو المواطنة (٢) ، فانهم يتناولونه بأسلوب عاطفى خالص .

وكانوا يحتكمون الينا فيما يختلفون عليه ، فكنا نحكم بينهم حتى لو لم نكن واثقين فى كل مرة من صواب آرائنا ، فيما عدا تيروى الذى كان يبـدو دائما متثبتا من نفسه ، كما كان يتميز دوننا جميعا بشهية قوية للطعـام ..

كانت أمامنا وليمة كاملة على المائدة ، فلما تهيأنا للأكل ، تذكرنا ما يجب أن نفعله فى مثل هذه المناسبات ، فقد التفت كل منا حواليه حيث كان يجلس الفتيان يلعبون ويتحدثون ، وقلنا لهم بعيوننا وشفاهنا :

ـ تفضلوا معنا للطعام .

وأجاب أكثرهم كالعادة :

ـ شكرا .. لقد تناولنا طعامنا ..

---

(١) الزى الرسمى للفلبينيين : عبارة عن قميص من قماش معين مزركش بطريقة خاصة ، ويسمى البارون تجالوج ، ويلبس فوق البنطلون ..

(٢) المواطنة واكتساب الجنسية الامريكية وشروطها كانت دائما أحـد الموضوعات الهامة التى تشغل الفلبينيين المهاجرين ..

وقال بعضهم :

— شكرا لكم •• لقد طلبت طعامى الآن ••

وحظينا من البعض الآخر بايماءة تشير الى أنهم قد تلقوا دعوتنا بالعـــلم •••

كان لأصدقائى عادات متباينة فى تناول الطعام ، فدوك مثلا طبـــاخ ماهر ، اعتاد أن يقدم الينا فى المنزل أشهى الأطباق التى يصنعها بنفسه ، فاذا سألته عن تركيبتها أجاب : « انها تعويذة خاصة » ، ولكنه مع ذلك لا يأكل الا القليل •• كأنه طائر صغير ، قال بعد أن تذوق صنفا أو صنفين من الوليمة التى أمامنا :

— انه طعام فاخر ••

أما تيروى فلم يكن لديه وقت لأى شىء آخر غير الطعام ، لا للحديث ولا لغيره ، على الأقل خلال الخمس أو العشر الدقائق الأولى ، فقد انكب على الطعام يلتهمه بشراهة كأنه مارد جوعان • وعلى نقيضه كان يفعل ليو ، فهو لا يحب أى طعام عليه خل أو أى مذاق حمضى مهما قل ، وها هو ذا الآن يدور علينا بأسئلته الملحة :

— أى هذه الأطعمة خال من الأحماض ؟

وكانت شهية مايك ضعيفة كالعادة •• قال :

— العيون تشتهى •• ولكن العيون فحسب ••

أما فال فقد انفرد بطريقته الأنيقة فى تناول الطعام كأنه أمير •• وكانت فتاة المطعم تحوم حوله بشغف لا تخطئه عين الملاحظ ، وتخصه باهتمامها ورعايتها ، ويبدو أنها كانت تعرفه أكثر منا ، فقد كان كثير التردد على المكان •

أسر مايك بشىء لجاره على المائدة ، وتبادلا بعض الكلمات الهامسة ، ثم انفجرا ضاحكين ، وانضم لهما فى الضحك آخرون •• وفى الحـــال

امتلأت الحجرة بالفتيان ، وأخذ الجميع يتكلمون فى وقت واحد •

كان الفتيان يرتدون ملابس مختلفة ، بعضها من الجبردين وبعضها من الحـــرير ، ماعدا تيروى وليو فقـــد تميــزا بملابسهما الصوفيه الفاخرة ، وكان فال يلفت النظــر بملابسه البيضاء الأنيقـــة بينمـــا اكتفى معظم الفتيان بقميص مفتوح أمام الرقبة ، وبنطلون غير واف الطول فى أكثر الأحيان •

سأل أحدهم :

ــ ماذا تم بشأن مشروع المواطنة يا دوك ؟

ولم يكن يقصد دوك بالذات بل كان يود أن يجيبه أحدنا •• لذلك بادر ليو فشرع يتحدث عن امكانية اقرار هذا المشروع ، وعن المعوقات المحتملة وطبيعتها ، والآمال المشجعة فى التغلب على هذه المعوقات •• كان حديث ليو موجزا يتسم بالبساطة والوضوح ، وما كاد أن ينتهى منه حتى انطلق سؤال آخر :

ــ هل أنت واثق أنهم سيمنحوننا الاستقلال المنشود على الفور ؟

وجاء دور تيروى ليشرح المسألة شرحا جيدا مستفيضا ، حتى وجدت نفسى أستمع اليه بانصات ، رغم أننى سمعت منه هذا الحديث عدة مرات قبـــل ذلك •

وقطع الحديث صوت فى المؤخرة يقول :

ــ يا لكم من أشقياء ••

ويبدو أن صاحب الصوت كان قد حضر لتوه من الخارج •• غير أن (تيروى) استمر فى حديثه فقال :

ــ ولكن انظروا •• ان اقتصاديات أى دولة ــ وبخاصة بلادنا التى أصابها الدمار والخراب ومزقت شر ممزق ــ ترتبط أوثق رباط بسلامة استقلالها السياسى وتتأثر به •

قال ليو ببساطة :

ــ انها كارثة ••• الضنك الاقتصادى يؤدى الى الفوضى ••

فالتفت اليه أحد الفتية وكان يرتدى قميصا مهلهلا •• ويبدو أكبر من الآخرين سنا •• ثم عقب متسائلا :

ــ تعنى أن بلادنا توشك أن تشهد حربا أهلية • ؟

فأجاب ليو :

ــ لا أدرى ••• ربما لا تكون هى الحرب الأهلية •• بل اضطراب شديد •• فالفلاحون الفلبينيون أصبحوا الآن مسلحين ، ولن يعودوا للأرض تحت نفس الظروف السابقة •• أعنى العبودية التى عرفوها كما عرفها آباؤهم وأجدادهم من قبل ••

وتصدى له الأمير (فال) قائلا :

ــ ولكن ما هــو الرأى فى الدماء المراقة ؟ •• ثم اننى أعلم أن بعض مطالب الفلاحين غير معقولة بالمرة ••

فأخذ ليو يحرك يديه حركات دائرية وهو يقول :

ــ العجلة الآن تدور يا فال •• انك تقــول ان الفلاحين يطالبون الآن ، أما ملاك الأراضى فقد كانوا قبل الحرب لا يطالبون ، بل يأخذون ما يريدون •

فقال الأمير دون أن يبدو عليه الانفعال :

ــ ما أخــذوه كان حقهم ••

ــ أجل •• ذلك الحق الذى أصبح لهم بعــد أعوام وأعوام من الاغتصاب المتصل !

وتساءل مايك باستنكار :

ــ هل تقول أن الكنيسة أيضا مالك مغتصب ؟ ••

فأجاب ليو بمرارة قائلا :

— نعم ·· انهـا ذلك المالك الخبيث الذى لا يمكن المساس به ، فلا تستطيع أن ترشق العصـا فى عينيه ، أو تدفع السكين فى كرشـه المنتفخ ، ولا تستطيع أن تخرج مخه من عظام جمجمته ··· ذلك المالك الذى استطاع أن يحصل على ممتلكاته لا بيد ممدودة للاغتصاب ، بل بيد مرفوعة للصلاة والابتهال ·· بتلك الأساليب التى كان لها سلطان على النفوس ، لقد كانت آفة أجدادنا السابقين تكمن فى اهتمامهم بخلاص أرواحهم ، وكانوا على استعداد دائم للنزول عن أملاكهم للكنيسة من أجل هـذا الخلاص ·

قال فال بحسم بدا معه أنه لا يرغب فى التعليق بشىء على ما قاله ليـــو :

— لقد سمعت عن أعمال التمرد والشغب التى شاعت فى البلاد ·· ألم تسمع بذلك ؟ ··

ولم ينتظر فال اجابة عن سؤاله بل مضى يقول ·· وكأن كلامه الآن لا يتعلق بموضـوع الحديث :

— « كان أبى يعطف على الفلاحين الأجراء ، كثير الاحسان اليهم ، وكانوا بالنسبة له أسرته الكبيرة ·· أجل كان هذا شعور أبى نحوهم ·· وكانوا بدورهم يحبونه ·· سعداء فى ظله ·· وكنت وأنا طفل أجلس على ركبهم الملوثة بالطين ·· أستمع الى أغانيهم الخشنة ·· وكثيرا ما حملونى على أكتافهم القوية ليعبروا غدران المـاء المضطربة فى جوف الغابة ·· وكنت أقضى الليالى فى أكواخهم وهم يغمروننى بالحب ·· وأنا أبادلهم حبا بحب ·· لقد كنا أسرة كبيرة ··· ولا أذكر أنى شاهدت — حيثما توجهت — فى مزارع أبى قلقا أو بؤسا ·· وانمـا الرضا والطمأنينة ·· كنت أذهب الى المدرسـة مع أبنـاء الفلاحين ، ويوم أن تركت الوطن

لأواصل تعليمى فى أمريكا ، خرجوا يودعوننى والدموع فى أعينهم •• فلمـا أصبحت فى غربتى لم أنسهم بل كانوا يردون على خاطرى كلمـا تذكرت أبى وأمى •••• » •

كانت الفتاة لاتزال واقفة تنظر الى فال وهو يتحدث وكأنها مجذوبة اليه بمغناطيس •• تلتهمه بنظراتها النهمة •• فقد بدا نبيل الطلعة كأمير بين حاشيته •

واستطرد فال يقول والجميع ينصتون اليـــه :

ــ « وفى يوم من الأيام •• كان أبى يتحدث اليهم فى المزرعـــة • وكان هناك أناس غرباء بينهم يعلنون مطالبهم •• نعم ياليو هذا ما حدث : كانوا يطالبون وكان أبى ينصت اليهم •• وفجأة انقضوا عليه •• حتى أولئك الذين أحبوه •• أولئك الذين بكوا فى وداعى •• انقضوا عليه •• ثم خلفوه وراءهم جثة هامدة ملقاة فى العراء • » •

ورغم أن الموقف كان مشحونا بالحزن الا أن فال لم يستسلم للبكاء •• بل ابتسم فى أسى وهـــو يوجه الحديث الى ليو قائلا :

ــ هــذا ما أردت أن أقوله ••

ثم أضاف :

ــ ربمـــا أن العجلة تدور حقـــا ••• ولكن الشراب امتزج بلحم البشر •• وأصبحت الكلمات تنطلق بالدماء •• انها ليست صورة مبهمة ••

فقال ليو واجما :

ــ أنا آسف ••

وتحرك الجميع لينصرفوا دون أن يقولوا شيئا •• وأخذت الفتاة

تمسح بمريلتها دموعا سالت على وجهها •• ثم بدأت تجمع الأطباق ف صمت •••

والتفت ليو نحـــوى ثم قال :

ــ كنت أود أن يموت أبى فى حقل مفتوح •• فتلك منية أنظف •• ولكن لا •• لقد بدأت أصبح عاطفيا •••

وارتفع صــوت تيروى صائحا :

ــ يا أولاد هل لكم فى شىء من الحلوى تختمون به مائدتكم ••••

* * *

حفيف غريب

اشتملت خاتمة طعامنا على موز حلو المذاق تام النضج ، وقهوة باللبن محلاة بالسكر •• جلسنا نرتشفها متمهلين •

كان الوقت لايزال نهارا عندما حضرنا الى ذلك المكان •• ولكن سرعان ما دهمتنا ظلمة الليل •• وعلى الفور سطعت الأنوار الكهربائية •• وهأنذا أعود بذاكرتى الى الوراء •• ليلة أن شاهدت مبنى الكابتول لأول مرة فى حياتى •• كان مغمورا بفيض من الأنوار الباهرة •• مزقت من حوله حجب الظـلام •• وتذكرت كيف وقفت أتأمل ذلك الجمـال الهادىء الملهم •• الذى يغشاك حينما تطالع النصب التذكارى للزعيم الراحل لنكولن •• كانت ليلة شديدة المطر •• انسابت فيها المياه غزيرة فى الطرقات ، لامعة تحت أضواء المصابيح •• وقفت صامتا مبهورا بعظمة الرجل التى تجسمت فى كتلة من الرخام الأبيض •• وبكلماته المحفورة فى الحجر منذ سبعة وثمانين عاما •• هنالك التمعت فى خواطرى ومضات من عهد الطفولة •• عندما كنت أسهر فى ليالى « تندو » الصاخبة لأحفظ خطاب لنكولن فى جيتسبرج ، بصـوت مرتفع كان يطغى على ضجيج المدينة •• هاهى نفس الكلمات التى حفرت عميقة فى ذاكرتى من ذلك الحين •• أراها اليوم أمامى منقوشة على الحجر ••

ترى كم من الفتيان جاء يحج الى هذه البقعة من الأرض ، وكم من الساعات مرت بهم وهم وقوف يحملقون فى عينى لنكولن الحزينتين •• ويقرأون للمـرة الثانية كلماته العظيمة فى صمت •• ؟ وهل كانت تلك الحقائق التاريخية تعنى شيئا بالنسبة لهم : فقر لنكولن •• وقلبه الذهبى •• وحزنه المضنى العميق •• ؟ لا شىء •• لا شىء •• كل ذلك لم يكن له أى معنى •• ففى الصيف والربيـع كانوا يزورون الحديقـة ليتنزهوا •• ويلتقطوا الصور لأنفسهم فى أوضاع متشابهة : شاب أسمر اللون •• ضئيل الجسم •• فى بذلة فاخرة •• ذراعه يلتف على خصر فتاة أمريكية

باسمة •• هى دائما أطول منه قليلا •• وفى خلفية الصورة يظهر نصب لنكولن التذكارى •• أو قبة الكابتول الشامخة فوق الأشجار •• أو تمثال واشنطون الذى يرتفع عاليا فى السماء •• شاهدا على المكان الذى وقع فيه •• فى يوم من أيام الربيع •• ذلك الحدث الهام •• خلال العصور : ذراع ذلك الشاب الأسمر يلتف حول خصر فتاة بيضاء •

أقبلت مجموعة من الفتيان فى صحبة بعض الصديقات الأمريكيات •• وكانت تظهر على الجميع سيما الأناقة وحسن الهندام •• وقد بدا لى أن بعضهم لابد أن يكون مرتبطا بعلاقة زوجية مع صاحبته ••

كانت الفتيات يتناولن الأطباق الفلبينية بتلذذ واشتهاء •• وقد أمسكن الملاعق باليد اليمنى •• وأما الشوكة فكانت باليد اليسرى كأداة مساعدة فحسب •• نفس الطريقة الفلبينية •• حيث الملعقة وحدها هى وسيلة نقل الطعام الى الفم ••

كن يفعلن ذلك بيسر ورشاقة •• لا ترجع طبعا الى ظروف المولد ••

ومن حين لآخر كانت العبارات الفلبينية المألوفة تنطلق من أفواههن بطريقة طبيعية حبيبة الى النفس :

سيجانا (هيا بنا) •• وفى العيون دعـوة بارقة ، أو ايكاونامان (هذه غلطتك) •• مصحوبة باشارة تأنيب باليد ، أو آنج ساراب ! •• (كم هى حلوة !) •• مشفوعة بقبلة ملذة على الشفاة ••

كانت مناضد اللعب قد أبعدت من الصالة الى احدى الحجرات ، حيث أعيد ترتيب الصالة ، وصفت المقاعد حول جدرانها • وأخذ يتوافد على المكان فريق آخـر من الفتيان يحملون آلاتهم الموسيقية •• من الفيولين •• والسكسوفون •• والمندولين •• والجيتار •• وقد بدا على الجميع الحيوية والنشـاط •

قال فـال :

— لقد نسيت أن أخبركم أنه سيقام الليلة هنا حفل راقص •• على أى حال •• لا أظن أنكم تمانعون فى ذلك ••••

كأن الأمر لا يقبل الجدل ، التفت الى الجرسونة وأشار اليها فأقبلت بادية السرور ، فى ثوبها الأبيض الذى كانت تفوح منه رائحة البصل والثوم ، وسألها :

— كم تريدين ؟ ••

وأسرعنا جميعا نضع أيدينا فى جيوبنا لنشارك فى دفع فاتورة الطعام •• ولكن الجرسونة ابتسمت ، ثم مالت على أذن فال وهمست له بشىء ما •

فبادرناه متسائلين :

— ما الخبر ؟ ••

ونظر الينا فال •• ثم أعلن هذا النبأ :

— أيها السادة •• لقد تناولنا الغداء مجانا ••

— كيف حدث هذا ؟ ••

فأجاب فال :

— لقد تولى أمبو دفع الحساب •• وانى ذاهب الآن لاحضاره ••

ثم تركنا ليدخل حجرة أخرى حيث كان بعض الفتيان يلعبون •• ولم يلبث الا قليلا حتى عاد الينا وفى صحبته شخص ، خيل الى وأنا أراه لأول وهلة كأنه الزعيم الراحل ريسال ، فلما أخذت أتفرس فيه بمزيد من الدهشة تبين لى أنه رجل ناضج ، فى عمر ريسال كما عرفناه من صوره ، شديد الشبه به كأنه توأمه •• لا يختلف عنه الا قليلا ، استبعد من صورة ريسال معطفه وياقته المنشاة •• وتلك الابتسامة الحيية على شفتيه ، ثم أضف اليها بعض الخطوط العميقة حول الفم وتحت العينين ، ولوث ياقته بعرق العمل المضنى أو الاهمال ، واجعل فى موضع رباط العنق

الأســـود ، رباطا أخضر اللون مهلهلا •• اعتصرته الأصابع ســنوات وسنوات ، هذه هى صورة أمبو الذى يمثل الآن أمامنا كفلاح سعيد • ولو أنه كان ريسال نفسه لمــا استطاع أحد أن يتصور أنه ريسال البرىء النقى ، بل ريسال الذى قهره الاستشهاد ، وأبلته تلك الأناشيد التى صاغها عشقا لوطنه المجروح •

مد أمبو يده الينا فتصافحنا •• كانت كفه خشنة •• نافرة العروق •• يابسة الأصابع •• قاتمة من أطرافها ••

ـ اذن •• هذا هو أمبو !

نطقتها والدهشة تملأ كيانى •• كيف لم يلاحظ الآخرون ذلك الشبه القوى بين أمبو وبين زعيمنا التاريخى ؟ لاشك أن أحدا لم يلاحظ شيئا من ذلك •• والا لكان قد عبر عنه بطريقة أو بأخرى •• حتى فال نفسه لم يشر الى ذلك وهو يقدمه الينا •

وجه تيروى الحديث الى أمبو فقال :

ـ لم يكن من الواجب أن تدفع ثمن طعامنا •• فهو مبلغ كبير •• وفضلا عن ذلك ••

فقاطعه أمبو قائلا بطريقته المتميزة فى نطق اللغة الانجليزية :

ـ لا بأس من ذلك •• لا بأس •• لا تشغل بالك ••

ويبدو أنه لم يدفع ثمن الطعام حقيقة •• فقد كان من الناحية العملية يعتبر مديرا للمطعم ••

وأمام اصراره لم يبق لنا الا أن نفيض عليه بالشكر والثناء •• ثم سأله فال :

ـ على أى حال نريد أن نعرف متى حضرت الى هنا ؟

فأجــاب :

ـ عندما كنتم منهمكين فى الحديث ••

ثم تحول الى فال وربت على كتفه وقال :

ـ رجل نبيل •• كان أبوه مثل الـــه ••

وعلق فال شارحا :

ـ كان أمبو يعرف أبى ••

وسألنا أمبو :

ـ هل تعرفون لغة الفيسايا (١) ؟

فقلنا : كلنا نعرفها •

فابتسم أمبو وقال :

ـ كم أنا مسرور بذلك ••

وكانت هذه آخر عبارة نطقها باللغة الانجليزية •• ثم أخذ يتحدث بلغته الوطنية ، وهو بادى السرور والابتهاج •

قـــال :

ـ والآن •• كم من الزمن مضى على اقامتكم فى أمريكا ؟ •• هذه الحرب أساءت الى كثير من الناس ••

وأراد فال أن يغير مجرى الحديث فقال :

ـ أجــل •• أجــل •• ولكننا لم نأت الى هنا لنتحدث عن ذلك •• لقد جئت بهؤلاء الأصدقاء ليرفهوا عن أنفسهم بشىء من التسلية ••

فقال أمبو :

ـ سيبدأ الرقص بعد ساعات قليلة •• وســوف تسلب الفتيات عقولكم •• انهن جميعا يعشقن فال لأنه شاب ساحر •• ولكنى أخشى عليه من التورط فى المشــاكل •• لذلك أوصيه دائما أن ينظر الى عندما يختار فتاة ليراقصها •• فاذا أومأت اليـــه فان هــذا معناه أن الفتاة ليس معها صــديق ، وأنه يستطيع أن يمضى فى الرقص معها •• فاذا

---

(١) الفيسـايا : احدى اللهجات المحلية بالفلبين ، وهى شـائعة بين سـكان الجزر الوسطى ، التى يطلق عليها هذا الاسم نفسه .

أرسلت نظرى بعيدا فهـذا يعنى أن يكون على حـذر لأن الفتاة لها صديق •• ولكن المغفل يوجـد فى مكان بعيد •• أما اذا هرشت أنفى فان عليه أن يبقى بعيدا لأن صديق الفتاة قريب منها ••

لم نتوقف عن الضحك طوال حديث أمبو فلمـا انتهى منه سـأله مايك مستظرفا :

ـ هل يمكنك الليلة أن تقوم بهذا الدور من أجلنا جميعا ؟ ••

فرد أمبو وجسمه يهتز من شـدة الضحك :

ـ الأفضل لكم أن تكونوا أولادا طيبين •• فاذا أصبحتم جميعا مثل فال فلا بد أن يصيبنى الصداع •• هل تعلمون أنه اذا أعجبته الفتاة فانه لا يهتم •• ولو ظللت أهرش أنفى حتى يدمى ، بل يمضى فى شأنه دون مبالاة •• وبعد كل شىء أنا لا أريد أن تتورطوا فى المشاكل ••

قال فال :

ـ لن تكون هناك مشاكل •• فنحن الليلة غير متهيئين للرقص ••

فقاطعه ليو قائلا :

ـ يا الهى ••• هل يمكن أن تجيبنى عن هـذا السؤال : لأى شىء نحن متهيئون اذن •• ؟

فتجاهله فال ومضى يقول :

ـ اننا نحتاج الى بعض التمرينات العقلية •• ربما كانت البوكر ••

فهتف أمبو وقد طار عقله من شـدة السرور :

ـ أو ••• هـذا رائع ••

وعاد ليو الى سخريته فقال :

ـ لن يلعب فال •• انه سيقوم الليلة بهرش أنفه من أجلى ••!

لم يستمر النقاش طويلا فقد انصرف الفتيان الى صالة الرقص •• وبقيت مع أمبو وثلاثة فتيان آخرين •• جلسنا الى مائدة مستديرة مغطاة ببطانية صفراء •• كان يبدو على الفتيان الثلاثة ثراء واضح فقد كانت

لديهم نقود كثيرة •• ولكننى — لسبب مجهول — شعرت بالضيق وعـدم الارتياح •• فقد كان فى الجـو شىء غير طبيعى •• ربمـا قلة هـواء الحجرة المغلقة •• أو رائحـة عفنة تسللت الى المكان من مصـدر غـير معروف •• وربمـا لأننى لم أكن أعرف اللاعبين •• فقد كانوا جميعا غرباء بالنسبة لى •• حتى أمبو نفســه •• فلم أكن قد تعرفت عليه قبل هـذه الليلة ••• !

لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك وأنا أرى يدى أمبو ترتعشان بطريقة غير عادية •• خاصة عندما كان يهم بسحب ورقة لعب •• فقـد كانت الأوراق الأخرى تتبعثر على سطح المـائدة •• وتبددت عنى بعض مشاعر الضيق •• ولكننى عدت أحدث نفسى : اذا حدث وخسرت فسوف يحاصرنى الشعور بالضيق وعـدم الارتياح •• ولن أستطيع مواصلة اللعب •• فعلى حينئذ أن أغادر المـائدة الى صالة الرقص •• فلابد أن أصحابى يقضون الآن أمتع أوقاتهم ••

كانت الأوركسترا الفلبينية (١) بديعة •• الموسيقى تتدفق رقيقة حالمـة •• والمغنى يؤدى غناءه بصـوت دافىء مفعم بالمشـاعر •• ومن المكان الذى جلست فيه كنت أستطيع أن أرى الفرقة الموسيقية فى نهاية المرقص •• فقد كنت أجلس فى مواجهة الباب الموصل اليه •• وكانت هناك ستارة مسدلة ولكنها رقيقة شفافة لا تحول دون الرؤية •• كانت حركات الفتيات والفتيان تبدو غاية فى الرشاقة ، وكان الجميع يرقصون فى براعة وانطلاق ••

لم تكن المسافة التى تفصل بينى وبينهم تسمح لى بالتحقق من الملامح بدقة •• لذلك بدت لى جميع الفتيات بدون استثناء •• رائعات الجمال •• وبين لحظة وأخرى كنت أتعرف على ظهر ليو •• أو ألمح جانبا من وجـه فال ••

---

(١) الفرق الموسيقية الفلبينية معروفة بمهارتها .. وانتشارها فى كثير من بلاد العالم .

لو أمكن القول بأن هناك « بوكر » نقيا فلابد أن يكون هـو ذلك الذى كنا نلعبه •• فلم يسمح أحـد اللاعبين لنفسـه أن ينطق بكلمـة واحـدة لا تتعلق باللعبة •• وقـد حاولت أن أجر أمبو فى حديث •• ولكنه كان مستغرقا فى الكسب والارتعاش ، حتى أنه لم يسمعنى على الاطلاق •

بدأت أتململ •• وتجتاحنى أمنية •• أن يدخل الفتيان علينا •• ويحملوننى على الذهاب معهم •• الى أى مكان آخر •• فلم أكن أكسب الا القليل •• أما أمبو فقد كانت النقود تتكوم أمامه وتتضاعف •• ومع ذلك •• كان يبدو شـديد العصبية •• وكأنه يوشك على الانفجـار فى أية لحظة ••

ولم يكن الفتيان الآخرون لاعبين من طراز أمبو •• ولكنهم كانوا يلعبون فى صمت مطبق •• وقد غدت اللعبة •• بالنسبة لهم •• مسـألة حياة أو موت •• فلم يعرف الابتسام طريقه الى شفاههم حتى عندمـا كان الحظ يواتيهم •

أقبل تيروى يعرب عن رغبته فى الرحيل مع دوك ومايك •• وكان معهم ثلاث فتيات متهيئات للخروج •••••

قال متسـائلا :

ـ هل ترغب فى أن نعود اليك ••

فأجبت :

ـ قد لا يكون هذا ضروريا •• فربما حملنى ليو معه فى سيارته ••

ثم تسـاءل :

ـ وكيف حالك الآن ••

فقلت :

ـ لا بأس ••

وعقب قائلا :

ـ انك لا تحمل هما ••

ثم مـــد يده وأخذ من نقودى عشرين دولارا ••

فقلت متلطفا :

ـ لا عليك •• فهناك المزيد من حيث جاءت هذه النقود •• ثم أشرت الى النقود التى أمام اللاعبين الآخرين •• فضحك تيروى •• ولكن لم يشاركه أحد فى الضحك •• وكان أمبـــو يرقبنى طوال اللعب ولكنه لم يبتسم قط •

وتساءل اللاعب الذى يجلس بجوارى وهو يخلط الأوراق :

ـ هل أنتم الآن على استعداد ؟

قلت :

ـ أجل •• هأنذا معك ••

وتحرك تيروى للرحيل ثم قال :

ـ طابت ليلتكم ••

فبادره أمبو بقوله :

ـ لتكن ولدا طيبا •••

فعقبت قائلا :

ـ اذا لم تستطع أن تكون طيبا •• فلتكن حذرا ••

فقال تيروى :

ـ أعرف ذلك •• واذا لم أكن حذرا فينبغى أن أكون كذلك •• وفى هذه المرة ضحك الحاضرون جميعا •• فيما عدا ذلك الذى كان يوزع الورق حيث عاد يكرر سؤاله :

— هل أنتم الآن على استعداد ؟

فقلت له •• وقد شعرت بشىء من الغضب •• لقلقه الزائد :

العب • •لا أحـــد يمنعك ••

بدا لى ذلك الدور كأنه آخر دور فى االعبة ••

قال الموزع :

— يمكن لأحدكم أن يفتتح بأى شىء ••

وبينما هو يوزع الورق دخل ليو وفال •• فقلت لهما :

— لقد رحل تيروى مع دوك ••

فرد ليو قائلا :

— أعرف ذلك •• ونحن أيضا راحلان ••

ونظرت فى أوراقى فوجدت ورقتين متماثلتين من (التريث) ولا شىء بعد هـــذا ••

اذن فقد حان وقت الفرار •

وعاد الموزع يقول :

— من الذى يفتتح •• ؟

ثم نظر الى جاره •• فهز الفتى رأسه •• وقد امتقع وجهه •• وارتعشت يداه •• ونظر أمبو الى ما فى يده ثم هز رأسه مغضبا •• وقال الفتى الآخر : لا شىء ••

وعقبت بقـــولى :

— وأنا أيضا •• لا شىء عندى يصلح ••

فقال الموزع :

— اذن أفتتح أنا ••

ثم قال وكأنه يعلن نبأ هاما :

— هذه خمس دولارات ••

اختلجت شفتا أمبو وازدادت رعشة يديه •• حتى أن المنضـدة اهتزت عندما أسند يديه عليها وهو يقول :

— هذه سرقة •• فأنت تعرف أننا قد أوشكنا على الافلاس •• تفتتح بخمسة دولارات لتجبرنا على الهرب •• وتخطف أنت الدولارات الخمسة •• أليس ذلك صحيحا •• ؟

— انه حكم اللعبة •• أليس كذلك ؟ •• لا أحد يجبرك على البقاء •• اذا كنت شديد الحرص على دولاراتك ••

— عجيب أمرك •• هل تظن أننى أخشاك •• ؟ •• اننى باق هنا •• فلا شيء يمنعنى من ذلك ؟ ••

ووضع أمبو خمسة دولارات فى الاناء •• وتبعه الفتيان الآخران فأسقطا دولاراتهم •• وبينما كنت أضع نقودى فى الاناء انفجر أحدهم ضاحكا وكأنه يرانى أخسر نقودى ••

كان ليو وفال يقفان خلفى صامتين •• وابتسم الموزع الى أمبو الذى كان يتأمل الأوراق بين يديه المرتعشتين وقال له :

— كم ورقة تريد ؟ ••

كانت رعشة أمبو مثيرة للشفقة بمقدار ما كانت مثيرة للضحك •• وفى بطء وتثاقل تناول احدى أوراقه ووضعها مقلوبة على المائدة •• ثم نحى الأوراق الأربعة الأخرى وقال :

— اعطنى أربع ورقات ••

وانفجر الفتيان يقهقهون ••

فتطاير الشرر من عينى أمبو وقال وهو يتناول أربع ورقات :

— انظروا •• هذه الأراق لن أراها ••

ثم وضعها — ووجهها الى أسفل — على ورقته الوحيدة الباقية وأسند ظهره للمقعد •• وشبك ذراعيه فوق صدره •

قلت :

— الى بثلاث ورقات ••

وجاء نصيبى للمرة الثانية ثلاث ورقات متماثلة من (التريث) •• وتناول الموزع بدوره ثلاث ورقات ثم نظر اليهم وابتسم الينا •

قال أمبو وهو لايزال مشبك الذراعين :

— حسن •• حسن ••

ورد الموزع :

— هـذه عشرون دولارا ••

فكررها أمبو :

— عشرون فقط •• هـذا أمر بالغ السوء •• تذكر أننى أخـذت أربع ورقات •• وأنى لن أنظر اليها ••

وأسقطت اليد المرتجفة عشرين دولارا فى الاناء •• ثم •• ببطء شـديد •• أتبعتها بثلاثين دولارا أخرى •• وابتسم فانفرجت شفتاه عن أسنان ذهبية لامعة ثم قال :

— لتزيدوا نقودكم ثلاثين أخرى ••

ثم نظر الى وأضاف :

— يحسن بك أن تتنحى أنت عن هذه اللعبة •

كيف يحدث هـذا •• انها مسخرة •• أنسحب • ! لابد أن أمبو قد فقد عقله •• اذا كان يظن أنه يستطيع أن يغرر بنا حتى ننسحب •• بهذا الأسلوب المضحك •• لابد أنه قد أصيب بالجنون •

ـ قلت وأنا واثق من أوراقى :

ـ ليحدث ما يحدث •• فأنا باق لا أبرح المكان •

ووضعت خمسين دولارا فى الاناء •• وظهر على أمبو الارتباك ثم صاح غاضبا :

ـ لا شك أنكم بلهاء ••

بدا الموزع واثقا من نفسه •• أما أنا فقد بدأت أشعر بالقلق •• هـذا الأبله يملك ثلاث أوراق متماثلة أيضـا •• وربمـا كان الأرجح أنه لا يملك أكثر من زوجين متماثلين فقط •• وهـذا ما كان شعورى الباطن يحدثنى به •• أما أمبو فانه يلعب لعبة سخيفة •• يريد أن يحطم أعصابنا •• لا أكثر ولا أقل ••

ولعل هذه الخواطر كانت تدور فى رأس الموزع أيضا •• وها هـو يعلن تحديه حيث قال :

ـ لقد زدتها ثلاثين •• فليكن •• هذه خمسون دولارا أخرى ••

وتلبد جـو المكان فجأة •• وأصبح الهواء ثقيلا •• ولم أعـد أطيق وقفة الفتيين فوق رأسى وهما صامتين •• وارتفع هدير الموسيقى يطن فى أذنى •• ونفذت الى خياشيمى تلك الرائحـة العفنة التى تهب من مصـدر مجهول ••

لم يتزعزع أمبو •• وها هـو ذا يوجه الى رءوسنا ــ التى طار صوابها ــ ضربة جديدة •• فقد أخذ يعد نقودا ويضعها فى الاناء وهو يقـول :

ـ وهـذه مائة أخرى ••

وقبل أن نسترد أنفاسنا من المفاجأة •• أردف يقول •• وهو شديد الثقة بنفسـه • •رغم تلك الرعشة فى يديه :

ــ تذكروا •• لقد أخذت أربع أوراق •• ولن أنظر اليها •••

وبدون ارادة منى ارتفعت يداى تضغطان على جانبى رأسى •• كأنها توشك على الانفجار •• واعترانى غضب هائل على أمبو •• ذلك النصاب العجوز •• لم تعد المسألة فى نظرى •• مسألة دولارات فقط •• فقد صور لى غبائى فى تلك اللحظة •• أن رجولتى قد أصبحت فى كفة الميزان •• اما أن أنسحب أو أستمر فى اللعبة •

وأطلق أمبو تحذيره الأخير :

ــ يحسن بكم الآن أن تنسحبوا •• فقد ملكتكم جميعا ••
من يصدق هــذا الكلام •• ! انه لا يعرف حتى ما معه من أوراق •• فهل بلغ به الغباء لدرجــة أن يعتقد أننا يمكن أن نسقط أمامه •• لمجرد أنه يطلق كلاما فارغا ••

نظر الموزع الى أمبو نظرة ملتهبة بالغضب وقال :

ــ ليس من حقك أن تملى علينا ما تشاء •• فاذا كان هذا السيد يريد أن يبقى فدعه يبقى •• فهو يملك النقود •• وفوق هــذا نحن فى بلد حر •• أليس كذلك ؟

فرد أمبو وقد امتلأ فمه بالزبد :

ــ أوه ••• أجل ••• انها حرة بالنسبة للمغفلين •••

وجاء من خلفى صوت ليو :

ــ دائما •• دائما ••

ولا أعرف ما الذى دهانى •• لقد اندفعت دون تفكير وفعلتها •• ولم أعرف الا فيمــا بعد أننى كنت فى تلك الليلة أكبر مغفل فى واشنطن ••

قلت :

— اليكم هذه الخمسين •• وهذه مائة أخرى تضاف الى المائة الأولى ••• اشتد امتقاع وجه الموزع •• وحاول أن ينتزع من شفتيه ابتسامة ما •• ولكنه لم يفلح •• وأخذ يتنقل ببصره بين أوراقه والنقود التى أمامه عدة مرات •• وكأن رغبته الجارفة سوف تجعل أوراقه بمعجزة ما — أوراقا رابحة •• ونظرت الى أمبو •• فاذا هو يبتسم لى لأول مرة منذ ابتدأنا هذه اللعبة •• وتحولت بنظرى تجاه الموزع فاذا به فى تلك اللحظة •• قد ذاب فى عرقه •• وبدا وكأنه يتلمس مهربا •• فقد همس بصوت ضعيف بلغته الفلبينية :

— أنا ••• منسحب ••

وقال أمبو بلهجة ظافرة :

— الآن •• حان الوقت لأنظر فى أوراقى ••

ثم تناولها وضمها الى صدره كأنه يغدق عليها من حبه •• ومرت به لحظة بدا فيها غائبا عنا •• ولكنه عندما رفع نظره الى كانت الابتسامة المحببة تشيع فى كل وجهه •

ثم صاح • وهو لايزال محتضنا أوراقه منتشيا بها :

— يالك من قط ماكر ••

كانت حواسى قد أصبحت متبلدة تماما •• كأننى مساق الى ساحة الاعدام •• فحاولت أن أستجمع قواى المبعثرة لكى أنطق بأى كلام •• قد يبعث الحياة فى أعضائى الميتة •• فى القدمين اللتين لم أعد أحس بوجودهما •• وفى الذراعين المرتخيتين •• قلت :

— حسن •• والآن ؟

وكررها أمبو :

ــ حسن •• والآن •• أنسحب طبعا •••

مرت الكلمات فى رأسى •• وأنا لا أكاد أعى ما يقول •• ومكثت لحظات لا أقوى على الحركة ولا أتبين حقيقة ما يجرى من حــولى •• وأخذت أعود الى صوابى بينما كانت الحجرة تصطخب بالأصوات •• وفى ذلك الجــو المشوش لمحت فال يجــرى ناحية أمبو •• ثم يخطف أوراقه وينظر فيها قبل أن يعيدها اليه مرة أخرى •• ليخلطها أمبو مع أوراق اللعب المبعثرة فوق المــائدة •• رغم الحاح الفتيان الآخرين أن يروا هذه الأوراق ••

قال فال وهو يضع يده على كتف أمبو :

ــ اننا ذاهبون لنشرب فى مكان آخر •• فهل لك أن تأتى معنا ؟ •• ولســوف يرحب بن بهذا الاحتفــال •• أليس كــذلك يابن •• ؟ ••

فأجبت •• وأنــا أتحسس رجلى لأرى مــا اذا كانتا لاتزالان فى موضعهما من الجسم :

ــ بالتأكيد •• بالتأكيد ••

وأشار أمبو الى وهو يقول :

ــ مستر بن لاعب ماهر ••

فعلق فال قائلا :

ــ هل سمعت هذا يابن •• أمبو يقول انك لاعب ماهر •• ألم أقل لك من قبل انه ســوف يعجب بك ؟ •• والآن هل نستطيع الرحيل •• ؟

تطوع أمبو بقيادة السيارة •• وجلست الى جانبه •• بينما جلس الفتيان الآخران مع فتاتيهما فى المقعد الخلفى •• كانت فتاة فال تتميز بلثغة فى النطق سمة أهل الجنوب •• وبشعر أحمر جذاب •• كما كانت بادية الجمال •• كان فال يدعوها باسم (ســو) أما هى فكانت تقــول لــه (حبيبى) ••

أما فتاة ليو فقد كانت سمراء طويلة القامة ·· ذات أسنان رديئة ·· وكان لها اسمان ·· أحدهما ·· على ما أذكر يقرب من نطق كلمة (لو) ·

كانت الفتاتان ترغبان فى الذهاب الى أحد الأندية الليلية ·· فاتجه صاحباهما الى أمبو يطلبان اليه المشورة ·· فقال ان أغلب مراقص المدينة تغلق الآن أبوابها ·· ولكنه يعرف مكانا ما فى الضواحى ·· لا يغلق أبوابه الا بعد الثانيــة صباحا ·· ثم أردف قائلا :

— وفوق هذا ·· فان لدينا من الوقود ما يكفى للمشوار ··

كانت الرحلة طويلة ·· ولكنها لم تكن خالية من المتعة ·· وكان الهواء يحمل الينا رائحــة الحقول الخضراء ·· فقد تجاوزنا المدينــة خلفنا بمراحل ·· ولم تعد هناك أنوار تتلألأ من بعيد ·· وها نحن نقطــع طريقنا فى وسط الغابة ·· وحفيف أوراق الشجر يتسلل الى أذنى فيمــا يشبه صوت الأمطار ·· بينما تشدنى الذكريات الى مكان ما فى بلادى ·· بين أدغال البامبو ·· حيث يتصاعد الدخان عاليا فى السماء ·· وينبعث ذلك الحفيف الغريب ·· بينما ترقد فى سبات عميق ·· أم شابة ·· ومن حولها ثلاثة من أطفالها ·· يحلمون ·· أحلاما غير سارة فى أكثر الأحيان ·· ولكنها أحلام جريئة ·· لا تخلو من ومضات الأمل ··



النـادى الليلى

توقفت سيارتنا بالطريق الزراعى .. حيث يقع على مسافة قصيرة ذلك النادى الليلى الذى أرشدنا أمبو اليه . .كان الضـوء يسطع أمام النادى على موقف السيارات ، وقد بدت متلاصقة جنبا الى جنب .. وتدلى مصباح كهربائى خافت الضـوء فوق بوابة خارجية نفذنا منها الى ممر زينت جوانبه بمصابيح ملونة تشبه تلك المصابيح الخضر ، فى الأنفاق الأرضية بنيويورك .

تقدم أمبو يقودنا فى الطريق .. فأولئك الذين يألفون هذه الاضاءة الخافتة يعرفون طريق أقدامهم فيها .. انهم يملكون الخطوات الواثقة أكثر من غيرهم .. !

كانت المسافة قصيرة .. وكنا نتوقع سماع الموسيقى .. ولكننا بدلا من ذلك تناهى الى سمعنا صوت شخص يتحدث .. لعله مدير العرض يقدم نمرة جديدة على المسرح .. ربما كانت آخر العروض فى تلك الليلـة ..

دلفنا الى ردهـة فسيحة مفروشـة بالنباتات الخضراء .. تشبه الفرندة الأسبانية .. ومشى الفتيات والفتيان .. كل اثنين جنبا الى جنب .. الأيدى متشابكة .. وفى الليل الرطيب تسرى نسمات منعشة .. كانت تهب علينا من الغابة القريبة ..

مررنا عند الباب الداخلى برجل بادى الغلظة والشراسة .. لعله من حراس النادى .. ودخلنا فى دهليز مظلم .. ما ان تجاوزناه حتى ظهر أمامنا وسط المسـاحة المضيئة على المسرح ، جسم امرأة .. واضح التفاصيل .. كانت فى ذلك الوقت تلقى أغنية من تلك الأغنيات الفاحشة .. وهى تنتقل فى أدائها بين الغناء والحديث .. بينما يداها مشغولتان فى محاولة لخلع ثيابها ..

انغرسنا فى مقاعدنا غير بعيد من خشبة المسرح •• وأخذت أحدق فى المغنيـــة أتفحص ملامحها •• كانت لها أهداب مستعارة •• وأغلب الظن كانت تضع على رأسها شعرا مستعارا •• لم يكن يبدو وعليهــا الشباب •• بل خيل الى أنها جديرة بأن تكون جدة لعشر من الساقطات •• ولم يكن فى صوتها أنوثة •• وكانت تمط فى حرف الراء وحرف الألف مطا يتناسب مـــع أردافها العريضة ••

أصبح كتفاها عاريين •• وها هى ذى تلوح بتعرية جزء من فخذيها •• وقد صوبت نظرها الينا وسارت نحونا قليلا •• ثم توقفت فى منتصف الطريق لتزيح شيئا رخوا تحت ثيابها •• التقطته بأصابعها وأخذت تلوح به أمامها كأنه علم أبيض طائر فى الهواء •

لم يحفل أكثر الرجال بالنظر اليها ••• لعلهم كانوا يتوقعون أن تفعل أســـوء مما فعلت فتحاشـــوا النظر اليها حتى لا تفسد سهرتهم •• أما الفتيات فكن يتطلعن اليها بتلذذ واعجاب ، وكأنهن يتلقين درسا فى ذلك العلم السرى الذى يتصل بوظيفتهن فى أدق ثناياها وتفاصيلها ••• ولكن الرجال قد خبروا فى حياتهم مناظر أجمل من تلك التى كانت تعرض فى تلك الليلة •• أو على الأقل قد شاهدوا مثلها من قبل •

وعندما ما خلعت ما كان يفترض أنه آخر قطعة من ثيابها ، أطفئت الأنوار •• وساد الظلام حتى لم تعد الرؤية ممكنة •• ولابد أن المغنية كانت ترتدى ثيابها حينذاك ، لتعود كمـــا كانت فى أول الأمر •

وفى تلك اللحظة ارتفع التصفيق المعتاد •• كان تصفيقا ضعيفا ولم يلبث أن تلاشى •• ولكنه كان مشـــوبا بالأمل والرجاء •• أن يتبع هـــذه الفقرة شىء أفضل منها •• رقص وموسيقى ••

طلب الفتيان شرابهم ، كذلك فعلت الفتاتان : « لو » و « وسو » •• أما فال فقد نظر الى ليو نظرة ذات مغزى وهـــو يقول للساقى « لا تخلط الشراب بالصودا حسبك المـــاء القراح » ••

فعلق ليو بقوله المـأثور :

— دائمـا •• دائمـا ••

واستحسن الفتيان رأى فال فتبعوه فى رغبته ••

قلت وأنا أرقب أعضاء الفرقة الموسيقية :

— يبدو أن أغلب الأوركسترا من الفلبينيين ••

فقالت احـدى الفتاتين :

— لم لا •• انكم اناس ظرفاء •

فابتسمت وأنا أقول :

— مـاذا ؟ أحقا تقولين •• ؟

وبدا أمبو فخورا بمـا لديه من معلومات سابقة عن المكان حيث قال :

— الغلام الذى يمزج الشراب هنا فلبينى أيضا •• كذلك الطاهى الذى يصنع ألذ السندوتشات •• لذا أحب هذا المكان •

— لابد أنك تتردد على هذا المكان كثيرا يا أمبو • ؟

— أوه •• أجل •• من حين لآخر •• كلما أتاحت لى الظروف ذلك ••

— أى شراب هذا الذى عندك يا أمبو ••

فقـال :

— « ديابلو كوكتيل •• انه من خصوصيات الفتيـة •• هـذا ما عندى •• فهل لك فى أن تجرب مذاقه ••• ها •• ؟ » •

وترددت قليلا ثم أجبت قائلا :

— أحب أن أراه أولا ••• فاذا كنت على حق •• ورأيت أنك لاتزال متماسكا بعد الشراب ، فاننى قد أجربه فى الجولة القادمة ، أمـا الآن فاننى أطلب « روم » وكوكالولا ••

وأكد أمبو رأيه قائلا :

— لسوف يعجبكم هـذا الديابلو كوكتيل ••

كانت الفتاتان ترغبان فى رؤيته قدر تلهفهما على الرقص ••

— نرجو المعذرة ••

قالها فال وهـو ينهض ••• وتبعته الفتاتان ، بينما حرك الفتيان مقاعدهم الى الخلف ، ووقفت أنحنى لهما ، أمـا أمبو فانه لم يتحرك من مقعده ، غير أنه عندما رآنى واقفا ، دفع بمقعده الى الخلف وهو يهم بالنهوض ، ولكن جاء هـذا متأخرا عن موعده ، فقد كانت الفتاتان قد غادرتا المكان •• فقال :

— اننى •• بطىء الحركة ••

تنقلت ببصرى عبر المكان ، ولاحظت العازفين الفلبينيين ينظرون الى ليو وفال ، ورأيت العيـون وهى تتصافح ، والابتسامات تنطلق مـع الأنغام •• وترائى لى كأن النظرات تقول :

— فلبينى •• أليس كذلك ؟ أجل انك فلبينى ••

والابتسامات تتناجى وتقول :

— يا أخى المواطن •• هل أعرفك ؟ •• ربمـا التقينا من قبل •• أو لعلنا سنلتقى عما قريب •• انه وجه مألوف •• مواطن فلبينى •• هذه الموسيقى لك •• وتجيب ابتسامات أخرى : خطواتى سهلة •• حركـة أقدامى سعيدة لأن الموسيقى منك يا أخى المواطن ••

كان الضوء شديد الخفوت حتى ان الانسـان لا يكاد يتبين معالم الرجال والنسـاء وهم جالسون فى الأركان ، أيديهم متشابكة ، وكل منهم يبدو غارقا فى الحب مـع رفيقه •• ترى كم من هذا الحب حقيقى •• وكم منه يرجع الى فعل الموسيقى والأضواء الخافتة ••••• !

قال أمبو :

ـ نستطيع الآن أن نتحدث بلغة بلادنا ..

فقلت :

ـ أجل .. كما تريد .. أظن أننا سنرتاح أكثر .. لو جلسنا طوال هـذه الليلة خارج القاعة ..

فأجاب وهو ينظر فيما حولـه :

ـ هـذا يتوقف على رغبتك أنت ..

ـ على أية حال .. ليس لدينا رفيقات ..

ـ ليست هذه مشكلة .. الا اذا كنت تفضل البقاء هنا حيث أنت ..

قلت :

ـ لننتظر حتى يحضروا لنا الشراب .. ثم ننصرف ..

ولم يكد يحضر الشراب حتى أقبل الفتيان مع صديقتيهما الى المائدة ، وقد توردت وجوههم وبدوا تحت الأضواء الخافتة فى جمال أخاذ .. اجترعت الفتاتان كأسيهما دفعة واحدة .. لم يتغير تعبير وجهيهما .. ولم ترتعش أكتافهما أدنى رعشـة .. أما كوكتيل أمبو فقد بدا شيئا مثيرا للدهشـة ... فالكأس التى تحتويه كانت شديدة البرودة .. مرشوشا عليها مسحوق سكرى .. علق بحافة الكأس كأنه ثلج مسحوق .. وفى وسـط الكأس انغمس نبات أخضر مورق كأنه فرع شجرة سقط وسـط بحيرة من الثلج .

قلت وأنا أشير الى الكأس :

ـ شىء فظيع .. هذا النبات سوف ينغرس فى أنفك قبل أن تصل الى فمك نقطة واحـدة من الشراب .. أم ترى هـو شىء متوقع الحدوث فلا عجب فيه ؟ ..

قال أمبو :

ـ أوه •• لا •• عليك أن تفعل هكذا •• انظر •• ما أيسر هذا •• !
ثم التقط ذلك الشىء الأخضر المـورق ووضعـه فى الطبق حتى يقلب الشراب •• ثم شرع يحتسيه وهـو يقول :

ـ بديـع

قالت الفتاتان متضاحكتين :

ـ أهـو كذلك حقا ؟ ••

كان شرابهما قد انتهى •• فأخذتا تتطلعان نحـو السقاة لعل أحدهم يتنبه الى دعوتهما •

وسـألنى ليو :

ـ ألا ترقص معنا ••

فأجبت :

ـ لا •• ليس الآن •• فأنا وأمبو سنجلس فى الهواء الطلق ونتبادل الأسرار •• وأسرت الفتاتان ضحكاتهما •• بينما كنت أنا وأمبو نغادر القاعـة ••

اتخذنا مجلسنا فى ركن من الفرندة •• وشرع أمبو يهمس بحديث طـويل ••••

انها نفس قصة أمبو القديمـة تتكرر مع الغالبية الساحقة من الفتيان الفلبينيين : « صبية فقراء •• لا يكنون للمدرسة قدرا كافيا من الحب •• يهجرون مدنهم وقراهم الى أمريكا •• وفى أول الأمر تمتلىء رسائلهم الى ذويهم اعجابا بتلك المـدن الأمريكية الكبيرة الباهرة •• يلتحقون بالمنازل لخدمة بعض الأسر الأمريكية •• وبعد فترة من الوقت ينتابهم

الملل من الخدمة فى المنازل فيشرعون فى تجوال لا قرار لـــه ، متنقلين بين المدن الكبيرة والصغيرة من عمل يدوى الى عمل آخر ..

وتستمر رسائلهم الى الوطن تتوهج بالآمـــال المضيئة فى مستقبل مرتقب .. حافلة بقصص الحياة المتألقة فى الوطن الجديد ..

ومع الرسائل الأولى تصل النقود الى الأسرة .. دولارات قليلة تتضاعف كميتها عندما تحول الى بيزوات (١) .. فيشرع الآباء الفقراء فى اصلاح سقوف منازلهم .. ويشترون الملابس الجديدة ، والحلى الفضية ، ويصبح لهم بعد وقت وجيز مزرعتهم الخاصة الصغيرة .. ويجلس الآباء المتقدمون فى السن ، فى مقاعدهم المصنوعة من البامبو فخورين ، ينسجون أحلام المستقبل السعيد لأبنائهم .. ولأنفسهم ....

وفى حالات قليلة تستمر الرسائل فى الوصول الى الأم .. وتظل تحمل فى طياتها النقود والأمانى المضيئة .. ولكن فى معظم الأحـــوال تتباطأ الرسائل شيئا فشيئا .. حتى تنقطع نهائيا مع مرور الأيام .

وفى تلك الأثناء .. ما الذى حدث للابن ؟ لقد فشل فى الدراســـة كلية .. فهو عندما كان يحاول استذكار دروسه مع زملائه المراهقين .. يشعر بارهاق شديد ، ولا يجدى معه جهد المدرسين ولانصائحهم .. وأيسر من هـــذا عنده أن يجلس بالقرب من منضـــدة البلياردو يرقب اللاعبين .. أو يقف حـــول الأولاد الذين يلعبون الورق .. وسرعـــان ما يصبح هـــو أيضا مقامرا مثلهم ...

انه الآن يضحك مع الرجال على أشياء مبتذلة أصبح هو أيضـــا يعرفها .. وهنا لم يعد فى مقدوره أن يدبج الرسائل .. وتصبح الكذبة مرة فى فمه .. الأفضل اذن هـــو أن يصمت .. قد تبقى هنالك رغبة

---

(١) البيزو أو (بيسو) كما ينطقها أهل الفلبين هو وحدة العملة الوطنية .

ما فى صـــدره •• أن يكتب الى أهله •• ولكنه يؤجلها الى يوم آخر •• وسرعان ما تتحول الأيام الى أعوام •• ويصبح الغد أمســا •••

وتقذف به الأيام من مدينة الى مدينـــة •• حيث يلتقى بوجـــوه جديدة •• ويمارس ألوانا أخرى من الحياة •• ولكن صاحب الوجـــه الأسمر يصادف فى كل مكان نفس الفشل •• نفس الانحدار •• !

وبالبشاعة الأشياء التى رآها •• والأشياء التى خبرها •• والأشياء التى سمعها من شفاه السكارى من بنات الهوى ••• فأى شىء طيب فى نفس الفتى يمكن أن يبقى على حاله فى هـــذا الخضم الفاسد •• !

واسترسل أمبو يقول :

— اننا نعرف بين اخواننا الفلبينيين هنا ، أولئك الذين لم يمسسهم الفساد بعد ، وعندما نراهم لأول مرة تتقطع قلوبنا اشفاقا عليهم •• فنحن نعلم أنه سيأتى يوم ما تتكر فيه نفس القصـــة القديمة من جديد •• ويصبح أولئك الفتيان الطيبون مثلنا •• بوجـــوه ممسوخة •• واحساس متبلد •• وقلب قاس ••

قلت وأنا أتحسس يده :

— ولكنك يا أمبو لست قاسى القلب ••

وتجاهل أمبو قولى ، كما كنا نتجاهل ليو وفال وصاحبتيهما •• لقد أصبحوا مصـــدر ازعاج مستمر •• لا سيما الفتاتان •• فمن حين لآخر تأتى احداهما لتمسك بيدى أو تداعب خـــدى •• وفى كل مرة أنهرهـــا صائحا : « ابتعدى عنى •• ألا ترين •• أمبو لايزال يتحدث ! » •• ويستأنف أمبو حديثه ناعما وقـــورا •• بلغته الوطنية التى لا تفهمها الفتاتان •• وأمعنا فى تجاهلنا لهم ، حتى عندما أخـــذوا يرسلون الى مائدتنا بقبلاتهم •• وقد بدا واضحا أن الفتيات قد انتشين بالشراب ، وأن الفتيان قد أصبحوا أكثر بهجة وأكثر ميلا الى الثرثرة ••

ـ من أجل هـذا عندما رأيتك يابن لأول مرة ...

ولم يكمل أمبو حديثه فقد قاطعه فال قائلا :

ـ بن .. هل أخبرك أمبو الآن ، عن الأوراق التى كانت معه عندما انسحب من اللعب ، وتركك لتفوز أنت بالنقود كلها .. ؟

فقلت :

ـ لا ...

كنت تواقا الى معرفة ذلك .. ولكنى فى نفس الوقت وددت أن أستمع الى حديث أمبو الذى انقطع ..

وخاطب أمبو ثلة الفتية والفتيات متلطفا فقال :

ـ اذهبوا .. واصلوا رقصكم هناك ..

كان السقاة يغدون ويروحون بين الموائد .. بينمـا شغل ساقينا بالفتاتين .. فقد وقف يترقب اشارتيهما .. حتى طلبتا مزيدا من الشراب ، فذهب يلبى رغبتهما .

وعاد فال يلح على أمبو قائلا :

ـ أخبره يا أمبو ..

فقلت موافقا فال :

ـ أجل .. أخبرنى يا أمبو .. لقد أطلعت فال على أوراقك أثناء اللعب .. وكنت تمكر بنا .. فماذا كان معك ؟

وقهقه فال ساخرا وهو يحث أمبو على الكلام :

ـ يقول انك مخادع .. بالله عليك أخبره يا أمبو ..

ولكن أمبو ظل صامتا عازفا عن الكلام ..

وتولى فال الكلام فقال :

— لن تصدقوا •• لقد كان معه (فلوش) •• وكان يستطيع أن يكتسح الجميع •• وعرت الدهشــة وجه ليو •• فقال وهو يبعد وجــه صاجبته عنه :

— (فلوش) ••• !

وأرسلت الى أمبو نظرة استغراب دون أن أوجه اليه أى سؤال •• فقد شعرت فى أعماقى أنها الحقيقة •• بينما أحنى أمبو رأســه الى أسفل وكأنه يحــاول اخفاء وجهه الذى تضرج حياء وخجلا •• ثم شرع يقول :

— لم أفهم كيف حدث هــذا •• فلم تصادفنى هذه الحالة من قبل •• لقد كنت أتمنى أن تدعنى لأنفرد بذلك الرجل الآخر الذى كان ينافسنى •• فقد أردت أن أصرعه •• الا أنك ظللت تقتحم اللعبة •• وترفع الرهان •• فلمــا نظرت الى أوراقى •• تأكدت حينذاك أنهــا الرابحــة ••

— ومع ذلك تركت النقود لى متعمدا •• !

فرد أمبو قائلا :

— لم أكن أحب أن تقوم خاسرا مكسور الخاطر ••

فقلت وقد ازدادات دهشتى :

— يا لله •• ما الذى جعلك تفعل هكذا ••

فأجاب ببساطة بالغة :

— لقد أحببتك •••

وعلقت احدى الفتاتين قائلة :

— وأنا أيضــا أحبك ••

فقهقهت الأخر ىقائلة :

— أو ••• يا لكم من أناس طيبين ••

وشعرت فجأة بعطش شـديد •• فرفعت كأسى ورشفت ما تبقى فيها من شراب •• وعادت الجماعة الى الرقص من جديد ••

كانت عينا أمبو محمرتين •• لا أدرى •• هل شرب أكثر مما ينبغى ؟ حتى قال بصـوت متهدج :

— ربما لا تتذكر أنت هـذه الواقعة التى أقصها عليك الآن :

كان ذلك فى يوم من أيام الصيف •• عندما رأيتك لأول مرة مـع صديق أمريكى فى استاد (جريفيث) •• كنت تأكل فولا سودانيا •• وكنت تبدو فى ذلك الحين متورد الوجـه بادى الحماسـة •• لعلها كانت أول مرة بالنسبة لك ، تشـاهد فيها البسبول فى الولايات المتحـدة •• وكنت تبدو حديث السن •• أجل •• لقد كنا منذ بضع سنين لانزال شبانا فى مقتبل العمر ••• يومها رأيتنى •• والتقت عيوننا •• فأخرجت كيس الفول السـودانى •• وقلت لى : « تفضل •• خذ ما تريد • » •• وهززت رأسى وأنا أتمتم بالشـكر •• ولكنك نهضت واقفا واقتربت منى بقدر ما تستطيع •• وأصررت على أن آخذ أنا وزميلى كفايتنا من الفول السودانى قائلا : « انه سـودانى من نوع ممتاز » وراودنى ذلك اليوم احساس بأننى أمام أخى الأصغر •• وفى مساء ذلك اليوم جلست أحدث نفسى قائلا : لايزال فى هذه البلاد أولاد طيبون من أبناء وطنى •• ولكن الى متى سيبقى هـذا الفتى نقيا •• ؟

وتطلعت الى وجـه أمبو خلال الضـوء الخافت فخيل الى أنى أرى وجـه أخى الأكبر وأننى أحظى بصحبته •• وتمنيت أن يطول أمـد هـذا الشعور الحبيب •• ولكن لم تلبث الجماعة أن عادت •• كل واحد يحتضن صاحبته •• بينمـا كنت أنا وأمبو نجلس فى موضعنا وقد خيم على المكان جـو من الأسى والصمت ••

قالت الفتاتان :

ـ لابد أن ترقصوا معنا ••

وأخذت احداهما تداعب وجهى بأصابعها وهى تقول :

ـ كيف لم نلتق من قبل •• ؟

فدفعت بيدها بعيدا عنى ••• فاستدرك أمبو وهو لايزال يتحدث بلغته الوطنية وقال متلطفا :

ـ كن رفيقا بها يابن ••

فقلت للفتاة :

ـ أرجو المعذرة ••

ولكنها تشبثت بى قائلة :

ـ لابد أن ترقص الآن معى •• تعال يا ذا العينين الجميلتين •• !

قال أمبو :

ـ انهم سيغلقون النادى بعد قليل :

فقالت الفتاة الأخرى :

ـ لنشرب اذن كأسا أخيرة ••

ولكن أمبو قاطعها قائلا :

ـ لقد حان وقت الرحيل ••

فالتفتت الفتاتان اليه قائلتين بغيظ :

ـ يالك من انسان خسيس !

فابتسم لهما وهو يقول :

ـ لست فى الحقيقة سيئا الى هذا الحد •• أيها الأطفال ••

كان الهواء يهب علينا فى الخلاء نديا فنستسلم له كما نستسلم

لنشـــوة الشراب الأثير الى نفوسنا •• وكان صافيا نقيا كأنه العذراء التى لم تبرح بيتها من قبل •

ولم نلبث أن وصلنا الى سيارتنا فقلت لأمبو :

ـ أظن أنه من الأصـــوب أن أتولى قيادة السيارة هذه المرة ••

فرد أمبو قائلا :

ـ أوه ـ بالطبع لا •• لن أسمح لك بذلك •• فعليك أولا أن تعرف هــذه الطرق •• بقلبك كمـــا أفعل أنا ••

فســـألته :

ـ هل أنت واثق أنك قادر على القيادة •• الآن ؟

ـ انك لازلت صغيرا جـــدا يابن ••

قالها وهو يتخذ مكانه أمام عجلة القيادة •• بينما استقرت الجماعة فى المقعد الخلفى •

وفى طريق العودة الى المدينة •• ظلت احدى الفتاتين مستندة الى كتفى •• وهى لا تكف عن الحـــديث والثرثرة ••

وعندما وصلت الى مسكنى كانت بوادر الصباح قد سبقتنى اليه •• لم تكن النوافذ محكمة الاغلاق •• فتسللت بعض أشعة الشمس لتفترش افريز النافذة ساكبة بقعة لامعة من الضـــوء عند أسفل الفراش •• حيث كان دوك يرقد فى سبات عميق •• وقد أمسكت يداه بصورة ملتصقة على صـــدره •• صورة امرأة ضئيلة واهنة •• ذات عينين سوداويين فيهما توسل وأمل ••



عن مــوت الآخرين

كنت أتناول الطعام مع زميلى دوك فى شقتنا عندما أقبل علينـا الفتيان •• قالوا : انهم قد تناولوا غداءهم بمطعم « ماى فو » •• ولكن يسرهم أن يشاركونا فى تناول التحليــة •• طلب بعضهم علبــة مشمش •• وطلب البعض الآخر فواكه كوكتيل •• وســأل آخرون عما اذا كان هناك أيس كريم •• ؟

لحسن الحظ كانت لدينا كمية من الأيس كريم فقلت لهم : « انها ليست كمية كبيرة •• ولكن يمكن أن تكفينا جميعا •• ذلك اذا لم نسمح للزميل تيروى أن يقوم بعملية التوزيع •• فهو مصاب بخلل فى حاســة الكم ••

واحتج تيروى قائلا :

— بل سأقسم بينكم بالعدل •• دون اجحاف بحق أحد •••

ولكن الفتيان اعترضوا عليه وأسكتوه ••

ذهب فال يعد لنفســه قدحا من القهوة ، بينما كان ليو يضع الثلج على المشمش والفواكه الأخرى •• ثم قال — وهــو يعد الأطباق والأكواب للأيس كريم :

— مسكين يابن •• أطباق كثيرة •• ولكن لا تهتم فســوف أعاونك فى تنظيفها ••

فقلت لــه :

— لا عليك •• فسيتولى مايك الليلة هذه المهمة ••

ووجه تيروى حديثه الى قائلا :

— كان بودى أن تتناول الغداء معنا فى المطعم •• لقــد حاولنا الاتصال بك تليفونيا •• ولكن يبدو أنكم كنتم فى الخــارج ••

فعلق دوك بقولـــه :

ـ حقا •• لقد كنا عند البقال ••

وعاد تيروى يشرح الأمر :

ـ لقد كانت وليمة دعانا اليها ليو فقـــد نشر له مقال فى احـدى المجـلات ••

فســأل دوك متهكما :

ـ عن أى شىء •• « أمريكا •• أحبك ! »

فأضفت قائلا :

ـ أو لعلها •• « حمدا لله •• شكرا لله •• نحن هنا سعداء ! » •• ان مثل هــذا المقال •• كمــا تعلمون يعطى ربحا كبيرا ••

قال تيروى :

ـ لا •• انه مقال عن الاقتصاد ••

ـ يا للهناء !

قلتها متهكما •• على طريقة صديقنا العزيز أمبو ••

وعاد تيروى يقــول :

ـ كان رأيى ورأى مايك أن المقال عبارة عن ركام من نظريات •• وترديد لمصطلحات فنية تاهت فى ثناياها الحقيقة عن اقتصادنا الوطنى ، الذى هــو موضوع المقال •• وبطبيعة الحـال كان رأى ليو فينا أننـــا مجرد بلهاء لا نحسن الفهم •• فالموضوع كما يراه واضح كالشمس ••• غير أنه فى كل مرة فتح فيها فمــه ليشرح المســألة •• كان يزيدها تعقيدا بنظرياته ومصطلحاته المعقدة ••

وأراد فال أن يغير مجرى الحديث فقال وهــو يغمز بعينيه الى دوك :

ـ أليس من الأفضل أن نتحدث عن النســاء ••

فرد مايك :

ـ النســاء والاقتصاد لاَ يتفقان ••

وتهكمت قائلا لمــايك :

ـ اذا لم تكن أنت الذى تعرف هذا فمن غيرك يعرفه •• !

كان من الواضح أن ليو لا يعبأ بمــا يقال •• فقد استمر فى تناول تحليته بتلذذ •• حتى انتهى منها •• وشرع يدخن سيجارته •• ثم تحول الينا بعين نصف مغلقة •• بطريقة توحى بأنه يعرف أفضل من الآخرين •• وقـــال :

ـ أخشى أيها الأصدقاء •• أخشى •• أنى اذا ذكرت لكم حقيقة أنفســكم •• أن يكون هــذا مصدر ألم لكم •• وخلاصـــة المسألة أنكم غير مثقفين •• وعلى ذلك فمقالى لم يكتب لأمثالكم ••

وعارضـــه تيروى على الفور قائلا :

ـ ولكن هــذا الموضوع يهمنا جميعا •• وفضلا عن ذلك ما الذى يجعلك تكتب هذه المقالات ذات الصبغة الفنيــة الخالصـــة •• هل ينبغى على القارىء أن يكدح ذهنه فى مقالاتك ، وهــو يحاول أن يفك رموزها واصطلاحاتها الغامضة •• بينما الذى نحتاجه فى الواقع فكر واضـــح كالبللور •• ان بلادنا تعانى من أوضاع اقتصادية مروعة •• منذ •• منذ بدأت ذاكرتنا تعى الأشياء ••

ـ ثم ماذا •• ؟

ـ ألا ترى •• ؟ اننا فى حاجة الى حلول •• ونتوقع ارشادا من أولئك الذين يعلمون •• وليس لدينا وقت لحــل الألغاز ••

فقال ليـــو :

ـ اسمع •• أنت محام •• فاذا كتبت مقالا عن القانون الدولى

مثلا •• لصحيفة قانونية •• هل تنتظر أن يفهم هــذا المقال رجل مثل أمبــو ؟

وأجاب تيروى قائلا :

ـ هذه مسألة أخرى •• أما بالنسبة لمجلتك فانها ليست مجلــة متخصصة •• وفضلا عن ذلك •• يجب أن تعلم أن هناك منجزات كبيرة ومشكلات ستواجه الفلبين بعد انتهاء الحرب وعودة الأمور الى نصابها •• وواجبنا أن نقدم للفلبينيين البسطاء ما يقدرون على فهمه ••

وأخذ الجدال يشتد •• وتناثرت الكلمات هنا وهناك •• بينما ليو مستمر فى شرح وجهة نظره ، مقتبسا فقرات من المقال ، مستخدما حركات يديه فى الشرح والتوضيح •• وترتفع أصابع تيروى أمام وجهه وهــو يعترض ويناقش •• ويطول النقاش ويحتدم ••• ولكن فال يتدخل وهو يحاول تغيير مجرى الحديث فيوجه كلامه الى قائلا :

ـ أعلم أنك سافرت كثيرا يابن •• فلم لا تكتب عن جــولاتك فى الولايات المتحدة ؟ • سيكون هــذا كتابا جيدا ••

وكأنهم كانوا ينتظرون هذه الفرصة •• فقد انقضوا على جميعا بأسئلتهم : « لم لا تكتب كتابا عن رحلاتك •• لابد أنك تحتفظ بذكريات كثيرة •• ! »

قلت :

ـ انكم تتصورون أننى أحتفظ بذكريات كثيرة ولكن •••

ـ قص علينا •• انك لم تفعل ذلك قط من قبل ••

فقلت :

ـ ليس عندى قصيدة مــدح فى أمريكا •• فكيف أستطيع نشر ما عندى فى هــذه البلاد ••

واعترض ليو قائلا :

ــ انك تظلم هذه البلاد كثيرا •• لقــد قرأت كتبا هنا كلها نقــد وتجريح •• ولم أر شعبا يتمتع بروح الفكاهة مثل هذا الشعب •••

قلت :

ــ ولكنى لا أستطيع أن أسخر بها •• ليس عنــدى فى الحقيقــة ما أقوله •• وما أتذكره عن رحلاتى لا يشكل مادة لكتاب •• ولا حتى لأغنية أو قصــيدة •• انه لا يزيــد عن كونه مجموعة من المشــاعر والانطباعات •••

ولكنهم لم يقتنعوا بما أقول وأصروا على رغبتهم قائلين :

ــ ليكن ما يكون •• فلابد أن تقص علينا حكاياتك يابن :

وأقبل علينا ليل جديد •• وسيكون أمامنا ساعات فارغة مملة •• يعقبها النوم •• ثم يأتى يوم آخر •• وأمام هــذا الشعور الذى بعثه مقــدم الليل فى نفسى شرعت أتحدث عن الذكريات •••

فى أونينتا كنت أقطف ثمار التفاح من الشــجرة •• وعرفت فتاة أمريكية أنهــا أول مرة أمارس فيها تلك التجربة •• فظلت تضحك •• وتعلق بالكلام على ذلك كأنه حدث غريب •• فى هذا اليوم مشينا تحت المطر الى كوخ خشبى يقع قريبا من بركة كانت المياه تفيض على جوانبها •• وأنزل الشبان مصاريع النوافذ •• ثم أوقدوا النار فى المدفأة •• وأخذوا يجففون أحذيتهم ويدفئون أيديهم •• وهم يرددون أغانيهم الأمريكية •• ثم تناولت القهوة مع الفطائر الدسمة ••• وعلى أنغام موسيقى كانت تنبعث من الفونوجراف رقصنا على الأرض الخشنة •• وسألونى : هل جميع الفلبينيين مثلك ؟ •• لم أفهم ماذا يقصدون بهذا الســؤال •• هل يتصورون كل فلبينى ذلك الفتى الذى وقف يوما ما تحت الأمطار ، يقذف شجرة التفاح القريبة من البركة ؟ •••

وفى مونسى رأيت أطفالا صغارا يمرحون •• فى ليلة عيد القديسين •• فى تلك الليلة حكيت لمجموعة من الفتيات قصــة فلبينية مخيفة •• عن الأشباح •• ثم تناولت الفطائر وعصير التفاح •• وفى الصباح أرشدتنى فتاة أيرلندية صغيرة تدعى « بات » الى أقرب كنيســة كاثوليكية •• ثم تركتنى هناك لصلاتى •• بينمــا انتظرت هى فى الخارج قائلة : لقد سبقتك الى الصــلاة •••

وفى متشجان تمتعنا بالسباحة فى بحيرة هيجنز •• وتمددنا فوق الرمــال ننظر الى الســماء •• وقلت : « سماء بلادى أكثر زرقة من سمائكم » •• فضحك الأصدقاء الأمريكيون وهم يسمعون منى هــذا الكلام •• وفى المســاء احتشدنا فى المعســكر حول النار •• بجــانب البحيرة •• وغنى شابان من الملونين بعض أغنيات دينية من تلك الأغانى الشائعة بين زنوج الجنوب •• أما أنا فقد غنيت أغنية وطنية •• وكان فكرى يحــوم بعيدا حــول الوطن •••

وفى تيرهوت مكثت أسبوعا ••• ويوم الرحيل رأيت « واندا » تجرى فى ساحة الجامعة وهى تلوح بكتاب فى يدهــا •• كان طبعة حديثة من « عمر الخيام » •• فلمــا أهدتنى الكتاب قالت : « مع السلامة •• أرجــو أن تتذكرنا •• لا تنسى أولئك الذين لم يكونوا شجعانا : كمــا ينبغى •• ولكنهم لا يكفون عن المحاولة ••• » •

وفى امبوريا عرفت احــدى الأمريكيات من طالبات الجامعة •• كانت متزوجــة من شاب فلبينى فى مدينة كنساس •• صحبتنى معها فى جولة حــول المدينة •• وأرتنى صــورة زوجها •• شــاب أسمر •• وسيم •• يتميز بعظام ناتئة فى وجنتيه •• وعند رحيلى أخبرتنى أنهــا الآن تستطيع أن تمشى فى حرم الجامعة مرفوعة الرأس •• ثم قالت : « الآن عرفت لمــاذا أحببت زوجى ••• » •

وفى مدينــة تروى بألباما •• صحبنى غلام أنمش الوجــه ••

حافى القدمين •• الى منزله فى المزرعة •• وكان للأسرة ابن فى الفلبين •• فطلبوا منى أن أمكث الليلة عندهم •• وفى الغداء أكلنا فخذا وبطاطس •• وشربنا كثيرا من اللبن •

وفى كنتكى تطوع صبى ، نامى الجسم بادى العظام ، بحمل حقيبتى طول الطريق من المزرعة الى محطة السكة الحديدية •• لكى ألحق بقطار الساعة الرابعة صباحا •• فلمـا أردت أن أعطيه أجره رفض أن يتناوله •• وقال بلسـانه الألثغ :

ـ سيدى لقد قلت أمس كلاما •• لن أنساه ما حييت ••

وفى مدينة بلومنجتن بولاية الينوى أنشـدت مجموعة من الطلاب النشيد الوطنى للفلبين بينما كنا نقف فى بهو الاستماع •• وجاءتنى معلمة أمريكية كانت فى الماضى تعلم بمدارس الفلبين ، وقد أحضرت معها أمها العجـوز وهى تقول لى : « أريد أن ترى أمى كيف أصبح الأطفال الذين علمناهم بالفلبين هكذا •• كبارا ناضجين • » •

وفى قرية صغيرة ، فى نيومكسكو ، سكانها من أصل أسبانى جلسنا فى أحـد الدهاليز نستمع الى الراديو ، ونتحـدث عن وفاة الرئيس روزفلت •• ورأيت الدمـوع فى عيون الفلاحين الذين استمعوا الى قصـة موته ••

وفى سان فرانسسكو •• ظل أحـد الفلبينيين يلح على طول الليل أن أمنحه بعض النقود ••• وفى أوكلاند التقيت بقواد فلبينى لا عمل له ••• وفى سانت لويس رأيت طالبا فلبينيا من البعثة الحكومية •• يشتغل بتعليم الرقص ولعب الورق •• وعبثا حاولت أن أجره للحـديث عن القراءة والكتب •• وكلما فتح فاه •• لا يتحدث الا عن نفسـه •• وكيف أنه موضع اعجاب من النسـاء •••

وفى استوكتون أخبرتنى امرأة عن مقتل زوجها الفلبينى فى حادثة

مـا •• وأنها حائرة لا تدرى كيف تحصل على قيمة التعويض عن مقتل زوجها •• وأخذت تسألنى : « كم تعتقد يبلغ هذا التعويض ؟ هل تعرف ؟•• لقد تعرفت بصديق جديد •• فمن هى صديقتك أنت ؟ ••• ألا ترى أن لى ساقين أنيقتين ؟ •••••• »

ليال دافئة فى دترويت • وأيام مجنونة فى شيكاغو •• ورياح ثلجية تهب على الدوام من البحيرات •• وأشياء لا يصدقها عقل تحـدث فى السيارات على طول الطريق بجانب شاطىء النهر ••• وفى أكواخ الغابات الشمالية •• وفى الأماكن الخلوية على الطرقات فى وسط الغرب ••• فقر مروع عنـد جبال أوزارك ، وعلى ضفاف نهر المسسبى العظيم الذى يجرى الى الأبد •• وهكذا تدور الحياة •• وتمضى فى الولايات المتحدة ، فمن الذى ينشر هـذا الكلام •• ؟

قال مايك :

ــ بالطبع •• لا أحـد •• فانك تذكر الجوانب السيئة فقط ••

وعلق ليو بقولـه :

ــ خير من هذا كله أن تكتب قصيدة ••

فاستدركت قائلا :

ــ « لقد نسيت شيئا ما •• فى شيبنسبورج شاهدت خطوط السكة الحديدية تمر عبر الحرم الجامعى ••• »

قال مايك :

ــ فلتساعدك السماء •• ولكنك لا تذكر سوى الأشياء الرديئة •••

فى تلك الأثناء تناهى الى أسماعنا طرقات بالباب فنهض فال قائلا :

ــ سأذهب لأرى من هناك ••

وعندما فتح الباب ظهر أمبو ، وهو يقف مبتسما وقد التمعت أسنانا

الذهبية كالمعتاد •• والى جانبه كان هناك شخص آخر ، يرتدى سويتر ، تبين أنه فلبينى وهتفت دون أن أبرح مجلسى فى حجرة المعيشة :

ـ ادخل يا أمبو •• كل الفتيان هنا ••

فرد أمبو قائلا :

ـ حسن ••

وقابله الفتيان بعاصفة من الترحيب ، وتناول فال يده وأخذ يضغط عليها وهو يحييه •• لقد أصبحنا نشعر بافتقاده •• حتى لو لم يغب عنا أكثر من يومين أو يوم واحـــد •• وقد أعتدنا أن نراه معنا كل ليلة منذ ليلة البوكر التى التقينا فيها لأول مرة •• وشرع أمبو يقدم الينا صاحبه :

ـ انه جوان بيريز •• وبناديه الناس باسم جونى •• حملنى اليكم فى سيارته التاكسى •• لقــد رأيتموها من قبل •• ويطلق عليهــا اسم « كوريجيدور » •• انها ملك جونى ••

بعد سنة ١٩٤٢ أصبحت أسماء : باتآن ، وكوريجيدور ، ومانيلا (١) أسماء شائعة فى الولايات المتحدة •• تطالعك على أبواب الأندية الفلبينية ، وفى المنازل والمؤسسات ومحلات البقالة وفى أركان الحوانيت ، وعلى سيارات التاكسى •• فالأسماء هنا تقدر بالــدولارات لأن الأمريكيين يقدسون تلك الأسماء التى تمثل أشياء كبرى مثل كوريجيدور وباتيان ومانيلا •• وقد استفاد الفلبينيون المغتربون من هذا الشىء الكثير •• حتى أولئك الذين هاجروا من باتاك أو سينايت يدعون أنهم قادمون من باتيان فرارا من الحرب والدمار •• وبذلك يحصلون على أنصبتهم من التعويضـــات ••

قال أمبو متفكها :

---

(١) باتآن وكوريجيدور ومانيلا أسماء مدن فلبينية دارت فيها معارك طاحنة بين القوات اليابانية والأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية .

ــ ألا تدعونا الى الجلوس •• لقد وقفنا طويلا بالباب •• !

ورددنا عليه قائلين :

ــ كف عن سخريتك يا أمبو ••

فقال وقد بدت ملامح وجهه تتغير :

وشرع يتكلم باللغة الوطنية ، وقد تغيرت نبرات صوته حتى كادت تصبح همســا :

ــ أنتم على حق •• فينبغى أن نكف عن ذلك الآن ••

ــ يا أولاد •• لقد حضرت اليوم اليكم أحمل خبرا مؤسفا •• فقد توفى بعد ظهر اليوم أحــد الفلبينيين فى واشنطن •• وهو فقير •• لم يترك شيئا وراءه •• وســوف نذهب الآن لتشييع جنازته •• وندفنه بطريقة لائقة •• وبادر تيروى يقول وقد بدت عليه علامات الاستغراب :

ــ يالله •• أحقا يموت الفلبينيون حتى فى أمريكا •• كيف غابت عنى هذه الحقيقة الى الآن ! ترى من هــو ذلك المتوفى ؟ ••

فأجاب أمبو وهو بادى التأثر :

ــ شافيس ويدعى نانزى •• كنت أعرفه معرفة وثيقة •• كان انسانا طيبا •• جاء الى أمريكا للدراسة •• ولكنه كان سىء الحظ ••

وســأل دوك :

ــ ما سبب الوفاة ؟ ••

فقال أمبو :

ــ السرطان •• على ما أظن ••

واستدرك جونى قائلا : « يقول البعض انه مرض السل •• » •

وعاد تيروى يتساءل وهو لايزال مستغرقا فى دهشته :

— هل يموت الفلبينيون أيضا فى نيويورك ! ؟ ••••

فرد عليه فال بقوله :

— فى كل مكان ••

واستأنف تيروى الكلام وكأنه يتحدث الى نفسه فقال :

— لم أدرك من قبل هذه الحقيقة •• !

ثم أضاف بعـد برهة من الصمت وكأنما ألهم فكرة جديدة :

— أجل اننا نمـوت فى أمريكا أيضـا ••• !

وأخـذ أمبو يشرح لـه :

— « انحن فى العادة ننتهى الى هـذا المصير •• يموت الأولاد دائمـا معدمين •• بعد أن يذهب الأطباء والأدوية بكل مدخراتهم •• هـذا اذا كان لديهم مدخرات على الاطلاق •• ولكنهم عندما يموتون نحرص على أن نجعل رحلتهم الى الحياة الأخرى أفضل •• وهذه أول مرة ألجأ فيها اليكم أطلب مساعدتكم •• فأنا لم أعرفكم من قبل المعرفة الوثيقة •• وأظن أنكم لم تسمعوا قبل هذا عن موتى آخرين من اخوانكم الفلبينيين المغتربين •• » •

نحن لم نسـمع بالفعـل عن هذا من قبل •• وها نحن الآن ندفع بسخاء ، وقد بدا على أمبو وصاحبه علامات السرور والاغتباط •• وتساءل مايك :

— هل سيكون هنالك جنازة ما ••

— أجل •• سيتبع النعش بعض سيأرات التاكسى الى المقابر ، عند التل الذى يقع خارج المدينـة ••

وسألت بدورى :

— متى سيكون هـذا ••

ـ عندا فى الساعة الرابعة بعد الظهر ••

وعقب ليو بقوله :

ـ سوف نذهب أنا وتيروى بسيارتينا •• وسنكون هناك رهن اشارتك •• ونرجو كلما احتاج الفتيان الى أى معونة •• أن تصرح لنا بذلك دائما ••

كان أمبو راضيا سعيدا •• وقد نظر الينا وفى عينيه شعور بالاعزاز •• وفى ثنايا ابتسامته شىء أكثر من لمعان الذهب •• وسأل تيروى موجها حديثه الى ليو :

ـ هل أنت واثق ياليو ، من عزمك على حضور الجنازة • ؟

فرد ليو قائلا :

ـ طبعا •• ولكن لم هذا السؤال •• ؟

ـ انه مجرد سؤال فحسب ••

واتجه مايك الى ناحية الراديو فأدار مفتاحه •• وانطلقت أنغام موسيقية ••



كان وحيدا •• فى ليلة خريفية

جلست بجـوار أمبو فى المقعد الخلفى لسيارة تيروى •• وكانت هناك أربع أو خمس سيارات أخرى تسير خلف السيارة الكاديلاك السوداء التى تحمل النعش •• الكشافات الأمامية كلها مضاءة كأننا نســير فى الظلام •

لم يتوقف أمبو خلال الطريق عن الحديث وهو يتكلم بلغته الوطنية •• يروى قصـــة المرحوم نانوى •• ثم انعطف به حديث الذكريات نحـــو الوطن فأخـــذ يقول :

ــ ترى يابن لو أنك أمعنت النظر فى أعماق قلبك •• هل تعتقد حقا أنهم لايزالون يذكروننا •• أولئك الأحباء الذين تركناهم فى بلادنا ؟ •• ربمـــا حدث هـــذا فى البداية •• أجل •• ولكن بعد فترة من الوقت •• عندما يطول الزمن ويتراخى بين رسالة ورسالة أخرى •• وعندما تصلهم رسائلنا خالية من النقـــود •• ثم تحتجب مـــدة طويلة •• أو تنقطع نهائيا •• وتنسدل أستار الصمت بفعل الزمن والمسافات •• هل تعتقد بعد هـــذا كله ، أنهم يظلون على اهتمامهم بأمرنا ؟ •• حقا •• قد تظل الأم يخفق قلبها للذكرى •• ولكن من يدرى أنها الآن لاتزال باقية على قيد الحيـــاة • !

لقد توفيت والدة نانوى فى نفس العام الذى رحل فيه الى الولايات المتحـــدة على ظهر سفينة كانت متجهة الى تاكوما ••• أجل •• أجل •• ربمـــا الأمهات فقط •• فانهن لا ينسين بسهولة •• ان ذكرانا تظل يانعة فى قلوبهن على الدوام كأنها ربيع متصل •• فنحن فى ذاكرتهم نظل ذلك الصبى الجســـور •• ذا الارادة المستبدة •• الذى يأتى الى البيت وقد توسخت ملابســـه فى الوحل •• بعد سبا قومع أقرانه فى حقول الذرة •• فهو يعود مبهور الأنفاس •• يمسح دموعه عن خده المتسخ •• وقـــد تشعث شعر رأسه وتناثر فوق أهدابه •••

هذا النوع من الذكرى لا نستحقه نحن الأبناء •• ولكن عن أى شىء أتحدث ؟ وكأننا نستحق شيئا أفضل من هــذا !

ان السنين كلما انقضت فى موطن صبانا •• نصبح لا شىء أكثر من اسم قد يذكر عرضا من حين لآخر •• وبدون عاطفة على الدوام •• أو نتحول الى مجرد وجه غير واضح الملامح ، فى صورة قد اصفرت بفعل السنين •• حتى يصبح التعرف على صاحبها أمرا متعذرا •• فى صورة منسية فى ألبوم عائلى قديم •• أو على جــدار ، بين عشرات من الوجوه الأخرى •• واذا كان هناك من لايزال يتذكرنا ، من أولئك الذين كنــا نعرفهم •• أولئك الذين صاحبناهم فى طفولتنا •• فقد يقول : « أجل •• أجل •• لقد رحل الى الولايات المتحدة •• منذ سنوات طويلة •• ولعله قد مات الآن •• أو لعله لايزال حيا •• يعيش فى مكان ما •• منطويا على نفسه فى ركن مظلم بتلك المدينة التى لا تعبأ بأحد •• » •

••• ثم يدور حديث الجميع لحظات •• فيسوق كل واحد منهم عددا من الأسباب التى يراها قد أدت الى هجرة ذلك الصديق ••

لقد هاجر نانوى بسبب فتاة أحبها •• ولكن أباه اعترض طريق زواجهما •• ولم يستطع نانوى أن يغتفر هــذا الموقف لأبيه فكان يقول : « لم يكن أبى يفكر فى شىء آخر سوى النقود •• وكانت الفتاة فقيرة •• وكنت هيابا •• فعجزت عن فعل أى شىء •• » لم يغفر نانوى لأبيــه أبدا •• وكثيرا ما كان يبكى كالطفل لهذا النفى الذى أجبرته الظروف عليه •••

كان صبيا صغيرا عندما جــاء •• وكانت له وجنتان ورديتان •• وخصلات شعر أســود متموج •• وغمازتان جميلتان تظهران على خديه عندما يتكلم ، حتى ولو كان غاضبا ••• وعندما كنا نمشى معا فى شوارع فريسكو ، كان يضل أحيانا وسط الضباب الكثيف ، فكان يمد ذراعه الى

الأمام ، وهو ينادينى كطفل تائه •• ومن ذلك الحين •• ما أكثر ما رأيت من فتيان تائهين فى ضباب المـدن الكبيرة والصغيرة فى هذه البلاد •• لا أدرى لم أسوق اليك هـذه القصص يابن • ؟ فانها قصص حزينة •• كل قصصنا حزينة •••

انى أفكر دائما فى وطننا يابن •• وأتساءل : كيف يعرفون هناك أننا قضينا أجلنا ؟ •• هل نأتيهم فى الأحلام •• أو يروننا نتحدث اليهم من بين طيات السحاب •• فنقول لهم وداعا •• لقد انتقلنا الى العالم الآخر ؟ ••• كلا •• انه مجرد خيال جامح ••• ولكن •• من المحتمل أن يحدث أثناء العمل فى الحقل •• أو فى صمت البيت الخشبى القديم الذى يطل على النهر •• أن تنبثق ذكرانا فى خواطرهم فجأة •• وفى أحيان أخرى قد يخيل لأحدهم أنه لمح شخصا ما يشبهنا يمر بالقرب منه •• أو مجرد لمحـة شبه فى وجـه شخص غريب تذكره بنا ••• ولكن •• كلا •• من الأفضل الا يتذكر أحـد •• وألا يعرف عنا شيئا •• فليس فى ذلك غـير الأسى ••

كانت حياة نانوى خطوات بطيئة نحو نهاية مفجعة لا فكاك منها ••• ومع ذلك فلو أن أحـدا قد جـاءنى عندما عرفته لأول مرة منذ عـدة سنين ، وقال لى ان هـذا الفتى ذا الوجنة الوردية والعيون الصافية سوف ينتهى يوما ما فى غرفة عفنة بحى الملونين ، قريبا من رصيف الميناء فى بوتوماك — لمـا صدقته حينذاك •• ولكنها مع الأسف كانت الحقيقة ••

كان نانوى يسكن غرفة مشتركة فى بدروم مع بواب من الملونين •• وكانت جدران الغرفة متآكلة ، وبها شقوق ترعى فيها الحشرات •• وتشيع فى جوارها رائحة الأنوف من أثر البول والنفايات •••

لم يعرف أننا رأينا مسكنه •• فقد كان أسلم الروح قبل أن نصل اليه •• ولقد كان حريصا على ألا يكشف عن مكان سكنه •• وانما كانت

تفلت منه أحيانا بعض ايماءات توحى بأنه فى مستشفى ميريلاند •• لعله كان بهذا يصرفنا عن التفكير فى زيارته والاطلاع على مسكنه ••

كان ممددا فى ركن من الغرفة •• وقد غطى جزء من جسده بغطاء يلوح أنه كان فى يوم ما بطانية « الوكانية » (١) •• لم يترك شيئا من بعده •• قال البواب لنا : « لقد أعطانى فى الأسبوع الماضى حقيبته •• وهو يقول : سدد بثمنها نصيبى فى ايجار الغرفة ، فقلت لـه احتفظ بها معك ، ولكنه لم يقبل رجائى ، وقال لى احرق كل شىء ••• » حتى صورة ابنه كان من المفروض أن تحرق حسب رغبتـه •• كان لـه طفل كما تعلم •• كنت أطلق عليه « دونالددك » فقـد كان لـه صـوت شبيه بصوته •• جاء هذا الطفل مع نانوى من شيكاغو •• أنا لم أر زوجته ولكن قيل لى انها كانت طويلة ومتكبرة •• وكانت لا تحب ابنها لأنه كان يحتاج الى رعايتها طول الوقت •• وفى يوم من الأيام هربت •• لم تهرب بالمعنى المعتاد •• وانما قررت أن تهجر بيت الزوجية •• وفى احدى الليالى عندما جـاء نانوى من عمله •• وهو منهك ومتسخ •• انتظرته حتى اغتسل وغير ثيابه •• ثم قالت لـه : نانوى •• أنا لم أعد أحبك — وسوف أرحل •• ولكن يمكنك أن تأخذ جينيور •• ثم رحلت ••

أنا واثق أنه بكى كثيرا •• فانه بعد السنين التى كان يجب أن تجعله قادرا على التحمل والنسيان — ظل هـو نفسه نانوى الذى عرفته من قبل •• تائها فى الضباب •• يمد ذراعيه طالبا النجدة •• أجـل •• لقد كان ضعيفا حقا •• فلو أن رجـلا آخر فى موضعه لتشبث بزوجته وأجبرها على البقاء •• ولكنه بدلا من ذلك تراخى أمامها •• ولعله لم يفعل شيئا سـوى أن يتوسل اليها ويستعطفها ، بغير جدوى •••

انتقل نانوى الى وشنطن •• وكان جينيور طفلا صغيرا ناضرا •• لا يزيد عمره عن خمس سنوات •• له وجه أبيه وشعر أمه البنى ••

---

(١) نسبة الى بعض عناصر السكان الفلبينيين المعروفين باسم الوكانو ، وموطنهم الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة لوزن ، اكبر الجزر بالفلبين .

واشتغل نانوى فى أعمال مختلفة •• وكان يترك طفله أثنـاء العمل مـع بعض الأسر •• أو فى احدى الجمعيات الخيرية التى ترعى أبناء العاملين •• فلمـا بدأ يعمل فى قيادة احدى سيارات التاكسى ، كان يأخذ جينيور الى جانبه فى جولاته •• غير أن الطفل لم يصبر على هذه المشقة ، خاصة فى الشـتاء ، فكان يتركـه أحيانا يلعب مـع أطفـال بعض الأسر « الفلبو أمريكية » فى الشارع الرابع •• وقد اعتاد أن يمر به حتى ولو لم يكن هذا الشارع فى طريق وجهته •• فكان ينعطف اليه حتى يتمكن من رؤية طفله وهـو يلعب •• وحينذاك يهتف الأطفال قائلين : « ها هو ذا أبوك » فيصيح جينيور مبتهجا •• وقد يلوح لـه نانوى بيده وهو يهدىء من سرعته قليلا •• وفى بعض الأحيان عندما يلاحظ أن الراكب ليس فى عجلة من أمره ، وأنه يبدو طيب القلب ، قد يتوقف عن السـير ليتحدث لحظات مع جينيور •••

لم يكن نانوى يتمتع بالصحة عندما جـاء الى واشنطن •• وكانت قيادة التاكسى تضنيه •• وأصبح مضطرا الى العلاج فى المصحـة •• ولكن مشكلته هى من يعتنى بجينيور فى غيابه •• وقد كان الطفل بدوره يبدو معتل الصحة •• فأنفه ترشح على الدوام •• والقروح لا تبرح بشرته •• ومن ثم بدأ الآباء يبعدون أطفالهم عنه •• وكان نانوى يعرف هـذا ويكظم حزنه •• حتى أقبلت أعياد الميلاد ، ولم يكن نانوى قـد اهتدى الى من يرعى طفله •• واشتدت وطأة المرض عليه مع ازدياد قسـوة الشتاء •• ولم يعد ينتظم فى عمله •• فكان يحمل طفله بين ذراعيه ويطوف به على البيوت يبحث عن واحـد من أبناء وطنه قـد يقبل أن يتولى رعاية جينيور ، وهو يعدهم قائلا : « سوف أتحسن حالا •• وجينيور طفل لطيف •• أليس كذلك يا جينيور • ؟ » •

ولكن قبل أن ينقضى الشتاء •• كان الطفل قـد ودع الحياة •• مات فى أحـد مستشفيات الأيتام •• وكان نانوى فى تلك الأثناء بالمصحة طريح الفراش •• وقد حاولنا ألا تتسرب اليه الأخبار •• ولكنه علم

بموته •• فكان يقول : « أنا أعرف كل شيء •• فلدى هنا صورة لجينيور •• وفى اليوم الذى مات فيه • رأيت فى وجهه تعبيرا غريبا •• لقد مات أيضا فى صورته •• اننى أعرف •• أعرف كل شيء •• » •

كانت الرياح تهب من النهر عبر التلال حيث كنا نقف برءوسنا العارية تحت سمـاء سبتمبر المكفهرة •• نلقى على قبر نانوى النظرة الأخيرة •• صليب خشبى أبيض اللون •• عليه اسمه وتاريخ وفاته •• لم يكن أحـد ينبس ببنت شفة •• وكانت رءوسنا منكسـة فى حزن عميق •• ووقع بصرى على الوحل الذى علق بحذائى •• كان لونه بنيا مشربا بحمرة •• رطبا •• كشأن التلال المتربة عندما يسقط عليها المطر •• ترى أين شاهدت مثل هذه الأرض من قبل ؟ ••• وأخذتنى الذكريات بعيـدا الى أرض الوطن •• الى الحقـول الرطبة فى ألباى بين تلال سينيكاران •• وعلى طول الدروب الجبلية أسفل كنيسـة أنتوبولو •••

وعندما ابتعدنا عن المكان التفت الى الوراء ، فراعنى منظر الدخان الأسـود وهـو يغطى الأشجار الجافـة التى ترتفع فوق المقابر •• كان الدخان يتصاعد متكاثفا ، من عشرات المداخن ، فى مصانع الذخيرة التى تنتشر فى أرجاء المنطقة •• وكان قبر نانوى يقف وحيدا •• فى تلك الليلة من ليالى الخريف •••



البـــــاب

كم عندى من القصص مما أود أن أفضى بها اليك .. فقط لو أن لديك متسعا من الوقت لتصغى الى .. ولكنك ســوف ترحل بعيدا .. كل واحـــد سيذهب الى حال سبيله .. الجميع فى عجلة من أمرهم .. ولا أحــد يرغب فى الاستماع الى ما أقول ... أما أولئك الذين قــدر عليهم أن يمكثوا هنا مــدى الحيــاة فانهم أيضــا ليست لهم آذان مصغية .. لقد رأوا هــذه القصص أحداثا تقع فى كل مكان ، فهم لا يحبون أن تعاد على مسامعهم مرة أخرى قصصا وأحاديث .. انها كما يقولون أخبار شائعة فقدت جدتها .. ومن الخير أن نتناساها .. أو نسكت عنها ، لقد كانت لنا لحظات سعيدة ، حقا انها لم تدم طويلا ، ولكن ســوف تأتى لحظات أخرى مثلها ...

من أجل هــذا لا يصغى أصدقائى لمــا أقول .. فقصصى كلهــا حزينـــة .. وهم لا قلوب لهم . أما أنت يا بن فسوف تستمع الى .. واو كنت راحلا مثلهم .. لقد رأيت الألم فى عينيك عندما استدرت لتلقى نظرتك الأخيرة على قبر نانوى ، اننى أعلم أنك أنت أيضــا قد أحببت نانوى كمــا أحببته ، وأعلم أنك أحسست بوحدته ، وعانيت الأسى فى قلبك كمــا عانيناه نحن الذين أحببناه ... من أجل هــذا سرت الى جانبك وأمسكت بيدك ، وشعرت فى أعماقى أن بن سوف يفهم قصصى .. وينصت الى حديثى .....

* * *

كنا أربعة زمــلاء نسكن معا فى شقة واحــدة .. وكنت سعيدا بصحبتهم .. فقد كانوا يتحدثون بلغة مشتركة .. لغة وطننا .. وهــذه اللغة التى أشعر بسرور بالغ وأنا أحدثك بها الآن .

اننا نستخدم الانجليزية فقط حينما يشتم أحدنا الآخر •• حينئذ تكون شتائمنا كالمداعبات •• أو عندما يزورنا واحد من اخواننا الفلبينيين ليثرثر معنا ، ويصر على أن يتحدث بالانجليزية ، فيضطر الفتيان لمجاراته فى الحديث ، انهم يجيدون استخدامها ، أما أنا فكل ما أقدر عليه بعض كلمات قليلة مثل : نعم •• ياللجحيم انها الحقيقة •• أحاول بذلك أن أخفى جهلى الشـــديد ، الذى كثيرا ما تفضحه يداى المرتعشتان •

وفى نفس العمارة التى نقيم بها كان يقطن شبان فلبينيون ، وأسر فلبينية أخرى ، عرفت من بينهم دلفين •• كنت أراه كثيرا وأنا خارج عند أسفل السلم ، حيث تقع شقته بالدور الأرضى •• وكانت تقيم معــه زوجته الأمريكية الشقراء « ميلدرد » وابنتاها الصغيراتان آن واســتر من زواج ســابق •

كنت مغرما بالطفلتين •• فقد كانتا صغيرتين لطيفتين ، لهما شــعر ذهبى مموج •• وسرعان ما توثقت بينى وبينهما الصداقة ، فأصبحتا تناديانني بقولهما (ياعمى) •• وكثيرا ما كنت أحمل لهما معى أصابع الحلوى •• وقد اعتادتا أن تنتظرانى قبل عودتى ، فاذا رأتانى مقبلا ، جرتا نحــوى مندفعتين لتقابلانى عند مدخــل العمارة فأحيط عنقيهما الرطبتين بذراعى ، وأمنحهما نصيبهما من الحلوى التى اشتريتها من أجلهمــا •

وقد تؤنبهما ميلدرد أحيانا ، وهى تطلق عليهما أوصافا بذيئة ، وأحيانا تخرج من شقتها فى ثياب منزلية من الحرير ، فتجرى خلفهما فى الردهة ، وتصرخ الطفلتان مستنجدتين ويفران منها مذعورتين •• وفى بعض الأحيان تقول لى : « انك تفســد شهيتهما » •• فأجيبها بالانجليزية طبعا : « لا تجزعى انهاء أشياء بسيطة لا تضر » •• وقد يحضر دلفين هــذا المشهد •• وكل ما يفعله حينذاك هــو أن ينظر الينــا ويبتسم فى بلاهــة •

ولم يدعنى دلفين الى مسكنه قط •• وكل ما حدث أننى فى بعض الأحيان كنت أقف قريبا من الباب وهو مفتوح أتحــدث مع الطفلتين لحظات •• لا أكثر من ذلك •

وفى أحــد الأيام سمعت الفتيان فى شقتنا يتكلمون عن دلفين •• ولقد دهشت لمــا قالوه عنه •• وكان من النادر أن يتفق ديك ونولى وسيف على كل شىء •• الا فى حــالة دلفين •• فقد اتفقوا جميعا على ادانته •• وفى أول الأمر لم أصــدق ما سمعته بسهولة •• الا أننى عندما فكرت فى الأمر •• بدأ الشــك يتسلل الى نفسى •• فلم يكن ما قالوه من قبيل الادعــاء الخسيس أو الاتهام الباطل •• صحيح أن أصدقائى هؤلاء ليســوا من الملائكة •• ولكنهم يمارسون حياة جادة •• قد لا تكون كلها قداســة ، ولكنها تخلو من الفســاد •• فلابد اذن أن تكون تلك الأشياء التى يتحدثون عنها صحيحة •••

خاطبنى ديك مرة فقال :

ـ « انك لم تعرفه بعد يا أمبو •• ولكن صبرا حتى ترى بنفسك •• وستقول عنه نفس الكلام الذى تسمعه منا الآن » •

وديك هذا قد أنهى دراسته فى كلية الحقوق عاملا فى النهار •• مكبا على دراسته فى المســاء •• وهــو بطبيعته انسان جد مهذب •• ولا يمكن أن يتحدث عن انسان آخر بهذه الطريقة ، ما لم يكن ما يقال عن دلفين صحيح ••

ـ انه عار على شعبنا ••

قالها نولى ذو الصــوت الجهير •• فكل شىء فى نظره هو السياسة والوطن •• وهــو يتميز بصوت قوى مجلجل •• ويريد أن يصبح سناتور فى الكونجرس الفلبينى •• انه وطنى غيور •• يرى أن كل ما يفعلــه الفلبينى فى أمريكا ينعكس أثره على وطننا وشعبنا •

أما : سيف فقد كان يلخص رأيه الخاص فى دلفين بقوله : « ان دلفين غبى ملعون • » •

وسيف له سيارة تاكسى يعمل عليها •• وهـو يبـدو فى مسلكه أنيقا ميالا للأنوثة •• وقد زين سيارته بصـور العذراء من كل حجم ، والى جانبها صورة لمـاك آرثر •• مع أعلام أمريكية وفلبينية متعانقة كأنها فى حالة حب ••

لقد انكشف لى من حديث الفتيان أنه من المعلومات الشائعة أن ميلدرد على علاقة بشبان آخرين ، وأنها تأتى بهم الى شقتها •• وعندما يحدث هـذا فان على دلفين أن يغادر البيت بهدوء ليتجول فى الشوارع ، واذا لم يكن موجودا فى البيت ثم عاد متأخرا ووجـد الباب مغلقا من الداخل ، فانه يعرف أنه قد عاد فى وقت غير مناسب ، وعليه أن ينتظر خارج العمارة حتى يخرج الزائر الغريب •• وعندها يمكنه أن يعالج الباب مرة أخرى بمفتاحه لعله يستجيب •• وكثيرا ما كان يضطر الى أن يقضى الليل فى أى مكان •• خاصة فى ليالى الشتاء البـاردة •• حيث يصبح التجـول فى الطرقات والتسكع سببا فى مرضه وفى بعث ذلك الألم الممض الذى يكمن فى ساقه وفى عضلات ظهره •

وقد يلجأ الى شقتنا •• فيدق بابنا فى أحرج ساعات الليل ثم يقول : « هل أستطيع النوم هنا الليلة • ؟ » وعندئذ قد يسمح لـه الفتيان على مضض — بالنوم فى حجرة المعيشـة فيشيرون لـه الى الكنبة ويقذفون اليـه ببطانية • ويتظاهر ديك وسيف أحيانا بالاستغراق فى النوم •• لأنهم يكرهون أن يروه على هـذا النحو المهين ، كأن العار واقع عليهم أيضـا • أما نولى فانه اذا كان مستيقظا انفجر يصيح فيه وهـو فى غرفته : « أهو أنت مرة أخرى ياديلف ••• والله انك لست رجـلا •• لابد أنك خصيت فى طفولتك •• لم لا تهجر هذه المرأة ؟ •• لم تجعل من نفسك أبلهاً مأفونا ؟ •• انها جميلة •• فلتكن ما تكون •• ألا توجد امرأة جميلة أخرى أقل منها عارا ؟ •• يا رجل أين احساسك بالشرف ؟ ••

اننا نخجل منك •• واذا لم تكن تريد أن تسمع لنا •• فلم تأتى الى هنا على الاطـلاق ؟ •• ان وجـودك هنا اهانة لنـا •• انك تلوثنـا •• بدنسـك ! » •

ولا يفتح دلفين فمه بكلمة واحـدة •• وانمـا يجذب البطانيـة على رأسـه كأنه يتحاشى الكلمات التى تنطاق من غرفة نولى •• أو يحجب عن عينيه ذلك الضوء الذى يتسلل اليهما من مصباح فى الطريق •••• ثم يهدأ كمـا لو كان مستغرقا فى النوم •••

وفى احدى المرات •• عندما حضر دلفين الى شقتنا •• أخذ الفتيان يقصون عليه أخبار رجال دافعوا عن شرفهم ••••

قال سيف :

« هل سمعت عن ذلك الفلبينى فى سانت لويس ، الذى فاجأ زوجته وهى ترقد مـع رجل آخر ؟ •• لقد أمسـك به وساقه أمامه فى الشوارع عاريا ، وهـو يحمل بين يديه وسادة •• يضمها الى صدره ليتحامى بها عن أعين المـارة ، وقد روعه الفزع •• لقد عاد الفلبينى الى زوجته وقطع رقبتها » ••• ومثل سيف بيديه حركة الذبح على رقبته ، وأتبع ذلك بصرخـة مروعة •• فكانت شيئا مخيفا بالغ الفظاعة •• ثم استأنف حديثه فقال :

« وبعد أن ذبحها •• قطع ثدييها •• ثم أسلم نفسـه للشرطة ، وثدياها المقطوعتان بين يديه يلوث بدمها سترة الجاويش ••• انه الآن بنزل فى مستشفى الأمراض العقلية •••

كان ديك من رقة القلب ، حتى أنه كان يود أن يغير مجرى الحديث •• عندما رأى دلفين يعتصره الألم ويبدو عليـه شقاء لا يريم •• ولقـد بقى دلفين صامتا طوال الوقت لا ينبث بكلمة واحـدة دفاعا عن نفسه وكأنما قد أرتج عليه •• ومع ذلك فقد بدا وكأن كيانه كله يهتز تحت وقع

كل لفظة نطقها سيف •• حتى انتهى من قصته فاذا بسيف يبتلع ريقه •• فلمـا أطبق الصمت على الجميع قال :

ـ « لا أعتقـد أننى أستطيع قتل ميلدرد •• لا أعتقد •• أننى لا أستطيع الحياة بدونها •• » •

ومست هذه الكلمات المخلصة قلوبنا جميعا •• ورأيت نولى ينظر اليه لأول مرة بدون احتقار بل فى رثاء واشفاق •

كنت عائدا فى وقت متأخر بعد منتصف احدى ليالى شهر أكتوبر عندما صادفت دلفين جالسا على درجات السلم الخارجى للعمارة ، وقـد أسند رأسـه الى عمود حجرى •• وعندما تأكدت أنه هـو قلت لـه على الفور :

ـ لقد أخفتنى ••

كان لدلفين وجـه شاب ، وهـو يتميز بطـول قامته ، وسمرته الشديدة ، وعندما يفتح فمه مبتسما تظهر أسنانه بيضاء لامعة ، ولقد كان يبتسم فى تلك اللحظة التى رأيته فيها ••• ثم ابتدرنى بالسـؤال قائلا :

ـ هل استمتعت بوقتك جيدا ••

وبدون أن ينتظر اجابة ما أضاف يقول :

ـ لتجلس معى لحظات •• ان الجـو حار بالداخل ••

فسألته وأنا أجلس بجواره على السلم البارد :

ـ لن تمكث هنا طول الليل •• أليس كذلك ؟ ••

فأجاب وهو ينظر فى اتجاه شقته :

ـ أوه •• كلا ••

وحاولت جهد استطاعتى أن أجعل سؤالى معبرا عن الأمر الواقع حيث قلت مستفسرا :

ــ هل عندك زائر الليلة ؟ ..

وكانت اجابته ايماءة خفيفة من رأسه ... فابتدرته بقولى :

ــ أيها الرجل .. انك أبله ..

فقال بصـــوت واهن :

ــ أعرف هــذه الحقيقة ...

انه اذن لم يفكر فى تغيير شىء من هــذا الوضع .. ولقد كنت على وشك أن أقول له شيئا ما .. ولكن مادام هــذا موقفه .. فان كل مــا أقوله فى هــذا الشأن لن يعنيه فى شىء .. من أجل هــذا اتجهت بحديثى وجهة أخرى .. حيث سألته عن آن واستر .. « هل هما بخير ؟ » .. بالطبع همــا على ما يرام .. « ماذا تعرف الطفلتان من الأمر ؟ » .. يالله .. هل من الضرورى أن يعرفا شيئا .. ؟ .. يا الهى .. ما الــذى جعلنى أمكث هنالك جالسا على درجات السلم الحجرية الباردة ، مشاركا فى هــذه الساعة البلهاء من الانتظار مع رجل مثل دلفين ... !

كان الغضب يتصاعد فى داخلى .. ولكنى كنت أحاول أن أفهم هذا الموقف العجيب .. فتذرعت بالصبر .. وأخذت أهيب به قائلا :

ــ لنصعد الى شقتنا .. ان البرد شيتد هنا ..

فأجاب قائلا :

ــ كلا .. فقد مر بى نولى الآن صاعدا .. وقد هددنى ألا أذهب الى شقتكم الليلة والا قذف بى الى الخــارج ..

فقلت وأنا أعتصر قبضة يدى .. وأستشعر غضب نولى كله يتأجج فى صـــدرى :

— ربمـــا أصلح هـــذا من شأنك ••

وفجأة وجدتنى أنهض واقفا على قدمى قائلا •• وقد استبد بى الغضب :

— ياللجحيم ••• لنذهب الآن الى شقتك •• لابد أن نقتحم الباب عليهما •• وننتزعهما من الفراش •• ثم نقذف بهما عرض الطريق ••

فاعترض دلفين قائلا :

— كلا •• كلا •• سوف توقظ الطفلتين ••

وحدجته بنظرة ساحقة •• وبصقت على الأرض عند قدمى •• ثم عدت جالسا مرة أخرى •• وأنا أضحك ضحكة رقيقة ساخرة •• ترى ما الذى دهانى •• ! أى عمل هـــذا الذى استصغرت شأنه •• فاذا بزوج العاهرة هـــذا ينبهنى الى ســـوء مغبته ؟ ••• استغرقنى الصمت برهة ثم قلت :

— أوه •• حسن •• أنت أدرى بمـــا هو أفضل ؟

فقال دلفين وهـــو يستشعر الخزى :

— أبدا •• اننى غارق فى الخطأ •• اننى مريض من الداخل •• مرضا هـــو أشـــد سوءا من الجزام ••

قلت :

— ولكنك تعلم أن هنالك من الفتيات الجميلات كثيرات بالنادى ••

— أعلم ذلك ••

— وأن بعضهن أكثر حسنا من ميلدرد •• وأجمل منها مليون مرة •••

— كيف حكمت بهـــذا •• ؟ ••

— لا أدرى •• ولكنى أعرف ميلدرد على الأقل ••

ــ اننى أحب ميلدرد ••

ــ تحب •• يا الهى •• ماذا عرفت من الحب ؟ •• ان هــذا الذى بك لا يمت الى الحب •• انه لعنة •• انه مرض ••

ــ « أعلم هذا •• أعلمه •• لقد اعترفت لك بأنه أسوأ من الجزام •• ولكنى أحيانا أقول لنفسى انه الحب •• كنا نقول عنه فى البداية انه الحب •• وقد كانت لنا معا لحظات جميلة •• أنا وميلدرد •• ولم أجد هــذا فى أى مكان آخر •• فلا تستطيع امرأة أخرى أن تمنحنى شيئا منه •• لذا لا أستطيع أن أعيش بدونها •• أقول لك لا أستطيع •• لا أستطيع •• » •

ثم أخذ رأسه بين يديه واستغرق فى صمته •• وجلست عندئذ أنظر اليه وقد شرد بى الفكر : يا الهى •• ما الذى يفعله الفلبينيون فى هــذه البلاد •• وما هذه الأشياء التى نقولها •• وتلك المصائب التى تحدث لنا •• ما الذى يبقينا أحياء على هــذا النحو من يوم لآخر •• من قبلة لا روح فيها الى قبلة أخرى مثلها •• من نفثة حقد الى نفثة أخرى •• ارتجافنا أمام مائدة القمار •• ورعشتنا بين ذراعى امرأة •• وما يثيره فينا منظر جسدها •• وتلك اللحظات الفاجعة عندما يحل بأحدنا شبح الموت •• أمن أجل هــذا نتمسك بالحياة ؟ أم أننا نتشبث بها من أجل أولئك الأحباء أمثال نانوى ؟ •• ومع ذلك فقد قضت عليه هذه الحياة نفسها •••

لم ألتفت ــ وأنا مستغرق فى هذه الأفكار ــ الى ذلك الرجل الذى كان يغادر العمارة •• الا بعد أن ابتعد كثيرا •• ولم يعد يبدو منه فى ضــوء مصباح الطريق الا ظهره ••• كانت خطواته رشيقة متعجلة •• كأنه يسرع الى موعد قد تأخر عنه ••

وسألت دلفين :

ــ أكان هذا هــو الرجل •• ؟

فأجاب قائلا :

— لا أدرى •• أنا لا أعرف أحـدا منهم •••

وعندئذ نهضنا واقفين •• وسرنا معا عبر مدخـل العمارة •• ثم توقفنا أمام شقته •• وكان الباب لايزال مغلقا •• ولكن لم يكد دلفين يضع يده عليه حتى انفتح بهدوء •• فقال دلفين وأسنانه تتلألأ فى ابتسامة سعيدة :

— طابت ليلتك ••

لم أعن برد تحتيه •• وانمـا اتجهت من فورى صاعدا الى شقتى أتحسس طريقى فى الظلام •• اذ يبدو أن شخصا ما قد أطفأ نور السلم •• فكان على أن أبحث متخبطا عن مكان القفل فى باب الشقة •• لعله يستسلم لدفعة غير مقصودة من يدى •• كما يفعل السحر ••• !

* * *

لم أعتد طوال سنى اقامتى فى أمريكا أن أتطلع باهتمام الى عيد الميلاد أو أشعر فى قدومه بسرور حقيقى •• فعيد الميلاد قد أصبح بالنسبة لى يوما كأى يوم آخر •• مع بعض الاختلافات المظهرية التى ليس لها صـدى فى نفسى •• ففى العيد أناس أكثر ينفقون النقود بسخاء •• واناس آخرون يطلبون البقشيش •• وكلمات تقال فى كل مكان : عيـد سعيد •• عيد سعيد •• ومزيد من الفتيان يتوافدون على النادى •• وشبان صغار يتكاثرون فى حلبات السباق •• وأحاديث بلهاء فى كل ركن •• وعلى الموائد المنفردة فى المطاعم الفلبينية •• وحكايات متشابهة تتكرر : « ليلة البارحة حلمت أننى عدت الى بيتى فى الفلبين ، وكان هناك عيد الميلاد • ورأيت أختى وقد أصبحت سيدة ناضجة ، كانت ترتدى ثوب السهرة الذى اشتريته لها ، وقد بدت فيه جميلة مثل أمى كمـا وعيت صورتها فى ذاكرتى منذ الطفولة ، وكانت هناك صحاف كبيرة امتلأت بفطائر الأرز وغيرها من الحلوى وقد غطيت بأوراق صفراء ، وكان الهواء مفعما برائحة الشواء •• وجاء أطفال كثيرون ليقبلوا يدى ، فوضعت

فى كف كل منهم دولارا فضيا جديدا من الدولارات الكثيرة التى أحضرتها من البنك لهذه المناسبة وملأت بها حقيبة — فهل عرفت بريق الفضة تحت ضوء المصباح ، لقد كان هذا نفس البريق الذى التمع فى عيون أولئك الأطفال • » •

أحاديث وأحاديث •• وأحلام •• أما أنا فالعيد يذكرنى بأشياء أخرى •• انه يذكرنى بذلك التجوال الطويل فى شوارع باردة كالثلج ، أبحث عن مطعم أتناول فيه طعامى ، دون جدوى •• لأن معظم المطاعم تغلق أبوابها فى أيام العيد •• ولأن غالبية الناس لابد أن يكونوا فى بيوتهم فلا يسيرون هكذا مثلى فى الطرقات •• حيث الرياح الثلجية تهب من النهر فترقص أقدامهم مع أغانى عيد الميلاد التى تنطلق فى كل مكان مرتفعة فوق جلبة الخطوات المتعجلة ، التى تقطع الطرقات مسرعة فى عودتها الى المنازل ، وتهدر مكبرات الصوت معلنة قدوم الرب •• فيارب •• أتوسل اليك أن ترشدنى الى مكان أتناول فيه طعامى •• فأنا أتلوى من الجوع ••• !

كانت هذه حالى الدائمة فى كل عيد •• فيما سبق من السنين ، ولكنى فى هذا العام وجدتنى أتطلع الى العيد بفرح حقيقى ، وذلك لأول مرة طوال اقامتى فى أمريكا التى امتدت عددا من السنين ، لم أشعر خلالها بمثل هذا الفرح •• ففى هذا العيد كان هناك طفلتان شقراوان تعتبرانني عما لهما ، وكنت أعتزم تقديم هدية العيد اليهما ••

غير أنى أصبت بالحمى ولزمت حجرتى •• وفى كل مرة عاد الفتيان من الخارج كان أول شىء ينقلانه الى أن : ان واستر تريدان الاطمئنان عليك •

وفى اليوم الثالث جاءت الطفلتان الى حجرتى تبكيان : « لم تسمح لنا ماما بزيارتك ولكنها الآن فى الخارج » ثم قالتا بتضرع : « ألا تنهض سريعا من مرضك ياعمى • » ووضعت آن يديها الصغيرتين الرقيقتين على

جبهتى وسألتنى : « هل تشــكو من الصداع ؟ » فأجبت صادقا : قليلا •• فمرت بأصابعها على جبهتى برقة وحنان •• وقالت الصغيرة اســتر : « ســوف أدلك رجليك » فقلت : « كلا •• ان ذلك يثيرنى ! » وضحكنا نحن الثلاثة ••• وبعد لحظات قليلة قلت لهما :

ــ يجب أن تعودا الآن ••

فودعتانى بقبلاتهما وانصرفتا •• فلمــا أصبحت وحدى تحولت بوجهى نحو الجدار وأغلقت عينى •••

وفى أحد الأيام قبل العيد بقليل جاءتنى الطفلتان تصيحان :

ــ عمى •• عمى •• لدينا شجرة عيد الميلاد ••

ثم فتحتا باب شقتهما بما يكفى لكى أرى عبر الصالة وفى أحــد أركانها شجرة عيد الميلاد مزينة بلمبات مضيئة ••

وفى اليوم التالى شغلت بسؤال الأصدقاء عما يمكن أن أقدمه فى عيد الميلاد لطفلتين صغيرتين •• واقترح كل منهم شيئا مختلفا عن زميله •• وهكذا قضيت الأيام القلية أتجول فى الشــوارع أستعرض واجهات المحلات باحثا عن هدية ملائمــة لكل من الطفلتين •• كنت سعيدا بينى وبين نفسى •• فلأول مرة منذ عدة سنين بدأ قلبى يتوهج بالسعادة •• وأرى العيد شيئا حقيقيا •• كذلك الأغنيات فى الشــوارع والموسيقى ودقات النواقيس •• كلها أصبحت ذات معنى جديد ••

وعندما وضعت كل هدية فى لفة أنيقة ــ واحدة لآن وأخرى لاستر ــ ألصقت بكل منها بطاقة صغيرة مزينة بشجرة عيد الميلاد •• ومطبوعا عليها « عيد سعيد » •

كان قلبى مفعما بالسرور •• وزال عن يدى ما كان يثقلها من تردد وارتعاش •• فجرت بالقلم خفيفة على البطاقة وأنا أكتب « العم المحب »

وكأن يدى وهى تكتب هذه العبارة لم تكن فى حاجـة الى ارتعاش •• وهى حالة تكتنفنى عند أشعر بأن هناك ما يجب أن أخفيه •• أما الآن فلا شىء من ذلك •• وانمـا عثرت فى أعماقى على شىء حقيقى كان مطمورا تحت ركام من السنين العجاف ، وهأنذا أعبر عنه بانطلاق : اليك حبى •• لانسان ما •• وفى هـذه المرة لطفلتين صغيرتين •• لهما شعر جميل هفهاف •• وأنف لم أر فى مثل حسنه أنفا آخر ••

قدمت الى ميلدرد اللفافتين •• وكانت تقف أمـام باب شقتهـا المفتوح •• قائلا لها : « هدية العيد للطفلتين •• » •

وما ان فعلت ذلك حتى تحرك فى قلبى شعور لا أستطيع وصفه •• شىء ما بدأ ينبثق فى أغـوار نفسى من جديد •• كأنه أنغام عادت الى قيثارة هجرها عازفها من زمن بعيد •• جد بعيد •••

نزلت فى عشية العيد بعد الغداء ، وكانت الطفلتان هناك تنتظراننى فتوقفت أمام الباب المفتوح بينما أيديهما تمسك بيدى وتجذباننى الى داخل الشقة وأنا أمتنع عليهما •• ولكنى بازاء هـذا الالحاح تساءلت :

— أين دلفين ••

فأجابت ميلدرد :

— لديه الليلة عمل بالخـارج ••

وكانت ميلدرد تقف وسط الردهة بقوامها النحيل المشوق ، بادية الجاذبية ، وهى فى ثوبها المنزلى الأحمر ، وقد أخذت تمشط شعرهـا الأصفر الى الخلف ثم قالت بلهجـة الاعتذار :

— اننى خارجة الآن من الحمام ••

وكانت رائحة الصابون وعطر البرتقال يفوحان منها •• فقلت لها :

— عيد سعيد ••

واستسلمت للطفلتين الملحتين وهما تجذباننى الى الداخل •• ولفت نظرى شجرة الميلاد فى موضعها من الردهـــة فقلت :

ــ انها شجرة بديعة ••

فبادرتنى ميلدرد قائلة وكأنها قد تذكرت شيئا هاما :

ــ اللبمات الوامضة معطلة •

ثم أرتنى صندوق اللمبات وهى تقول انها حاولت تشغيله ولكنها لم تنجح •• فأصلحت طرف السلك •• ثم أدرت زر الكهرباء •• ولكن اللمبات ظلت منطفئة كمـــا هى •• فاتخذت مجلسى على السجادة وبدأت أصلح بقية الأسلاك •• وفى تلك الأثناء ذهبت استر الى باب الشقة ثم عادت تقـــول :

ــ لقد أغلقت الباب •• عمى سيبقى معنا الليلة ••

وصـــدقت آن على قولها بكلمات أخـــرى •• ولكنى لم ألق بالا لكلامهما ••• وأدارت ميلدرد مفتاح الراديو فانطلق منه صوت غناء مرتفع ••• كانت ترقبنى وأنا أصلح شبكة الأسلاك •• ثم ركعت بجانبى على السجادة بدلال ظاهر •• وأخـــذت تعبث بفروع شجرة الميلاد •• بينما الطفلتان تغنيان وترقصان من حولنا •• ولم يمض كثير من الوقت حتى ضغطت على زر الكهربـــاء مرة أخـــرى فطفقت اللمبات تومض وتومض •• وكانت لحظة باهرة بدا لى فيها أننى قد نجحت فى اصلاحها •• وانطلقت صيحات الفرح من الطفلتين •• كانت لحظة قصيرة انطفأت بعدها اللمبات ولم تعد تومض مرة أخـــرى •• وبـــدأ شعورى بالثقة يزايلنى •• فبعد هـــذا الجهد الكبير •• عاد الاخفاق يحالفنى من جديد •• وأرادت ميلدرد أن تخفف عنى هـــذا الشعور فقالت :

ــ لم يكن من الواجب أن أحاول تشغيلها فى هذا الوقت المبكر ••

ثم أضافت بصوت يوحى بالاستسلام :

ــ انها ليست سليمة •• ولا تستحق هذا العناء ••

فصاحت الطفلتان هاتفتين :

ــ ولكننا نحب وميض هذه اللمبات يا ماما ••

ثم أخذتا تحثاننى على المضى فى المحاولة •• فاستجبت لهما ومكثت دقائق أخرى أعالج الأسلاك حتى شعرت بحرارة زائدة حــول رقبتى فقلت :

ــ لم أتنبه الى أن أخلع هذه من أول الأمر ••

ثم نزعت سترتى التى اختطفتها الطفلتان من يدى وذهبتا بها الى غرفة أخرى •• وصاحت فى أثرهما ميلدرد :

ــ احرصا عليها ••

ثم التفتت نحــوى سائلة :

ــ هل توجد أشياء هامة فى جيوب سترتك ؟ ••

فأجبت دون أن أرفع نظرى اليها :

ــ كلا ••

وأخيرا تمكنت من اصلاح الجهاز •••• وأخذت اللمبات فى الوميض •• ولكن موعد نوم الطفلتين كان قد حان وقته •• لذلك لم يكن صياح الفرح الذى أعلنتا به نجاحى قويا عاليا كسابقه •• وانما كان صياحا خافتا ممتدا •• يناسب دخول الليل وموعد النوم •••

ألقت آن قصيدة العيد ، عن بيت هادىء لا يعكر صفوه ضوضاء ولا فئران •• ولكنها ظلت تتثاءب وتنسى السطور •• وكان علينا أن نصفق لها قبل أن تصحح أخطاءها ••• ثم غنت استر « ليلة هادئة » وصاحبتها ميلدرد وآن فى الغناء •• ووجدتنى أترنم مــع الجميع •• وقد تبين لى أننى أحفظ اللحن رغم أنى لم أحاول من قبل حفظه ••

وما ان انتهت الطفلتان من الغناء حتى بادرت ميلدرد بقولها :

— « الآن •• عليكما بالذهاب الى الفراش مثل البنات المطيعات •• وسوف يأتى سانتا كلوز ليملأ جواربكما بالهدايا وأنتما نائمتان » •• فقالتا بصوت يغالبه النعاس وهما يجذباننى الى غرفة نومهما :

— نعم يا مام •••

كانت الغرفة جميلة •• ملونة بالأزرق والأحمر •• وكان هناك سرير واحد تنامان عليه معا ••• وعلى الحائط — فوق شىء يشبه المدفأة — كانتا قد علقتا جوربين فارغين •• قالت استر وهى تشير الى أحدهما :

— هـذا جوربى •••

وقالت آن بدورهـا :

— وذلك جوربى •••

وجذبت ميلدرد طفلتها استر •• وشرعت تلبسها ثياب النوم •• وقالت آن وهى تنهض واقفة على المقعد :

— سـاعدنى •••

فأخذت أساعدها وأنا مرتبك فى أول الأمر •• كان النوم قد غلبها فجذبتنى الى صدرها وقبلتنى وهى تقول :

— طبت مسـاء ••

— لقد تأخرتا عن موعدهما فى النوم ••

ثم أطفأت النور وأغلقت باب الغرفة بعد خروجها •• فقلت :

— لقد نسيت سترتى بالغرفة ••

فطمأنتنى ميلدرد قائلة :

— لا خوف عليها ••• هل لك أن تتناول معى وجبة نصف الليل •••

ثم اتجهت من فورها الى المطبخ ••• وانتهزت هذه الفرصـــة فخفضت صوت الراديو •• بينما انشغلت هى فى عملها بالمطبخ ••• ولكنها لم تلبث الا قليلا حتى سألتنى :

ـ ماذا تفضل من الأطعمة ؟ ••

فأجبتها وأنا ذاهب اليها فى المطبخ :

ـ أى شىء ••• انى فى الحقيقة لست جائعا ••

قالت بلهجــة اعتذار :

ـ المطبخ غير مرتب ••

ثم أضافت :

ـ كان ينبغى أن يصل دلفين الآن ••• فقد تجاوز الوقت منتصف الليل •• لا أدرى ما الذى أخره الى الآن ••

ووضعت ميلدرد أمامى سندوتشين وزجاجة من اللبن المثلج ، ثم جلست الى المنضدة فى الجهة المقابلة وقد وضعت أمامها زجاجة لبن أخرى وقالت :

ـ لعله يقضى العيد مع الفتيان •••

ـ ربمــا ••

قلتها وليس فى ذهنى ساعتها أى فكرة عنه ••

ـ هل كنت تعرف ديلف •• جيدا قبل أن تأتى الى أمريكا ؟ •• انه يتحــدث عنك كثيرا •• ويبدو أن أبناء شعبكم يعرف بعضهم البعض الآخر •• فقلت وأنا أتعمد الكذب :

ـ أجل •• أجل ••

لقد تعودنا عندما نتحدث عن الفتيان الذين نحبهم أمام أصدقائنا الأمريكيين أن نقول اننا كنا نعرفهم فى الفلبين •• ونتحدث عن أسرنا

كأنها ترتبط بأواصر القربى والعلاقات الحميمة •• انه فى الأغلب مجرد كلام •• لعله يعطينا القوة على أن نتحدث على هــذا النحو •• لم نكن نحب أن نبدو كلاجئين لا وطن لهم كما هــو واقعنا ••• لم نكن نريد أن يرى فينا الأمريكيون أطفالا نسيهم آباؤهم وأمهاتهم ••• أو رجالا شبوا دون حضانة فى طفولتهم ••• لقطاء من بلد لا يبالى بهم •••

وأكدت لها قولى :

ـ أجل •• ان بعضنا يعرف البعض الآخر معرفة وثيقة ••

ثم قلت وأنا أضيف كذبة أخرى متعمدة :

ـ كانت أسرته مشهورة فى اقليمنا •• كان أبوه طويلا أسمر اللون مثله •• وكان الجميع يحبونه كثيرا •• لقد كان أب ديلف رجلا نبيلا •••

فسألت ميلدرد :

ـ وماذا عن والدته ••• انه لا يفتأ يتحدث عنها •• ؟

ـ لقد كانت امرأة طيبة ••• امرأة محبوبة ومتدينة •• قوية الايمان •• ولم تعلق ميلدرد على ما قلت وانما سألتنى قائلة :

ـ هل تريد زجاجة لبن أخرى ••

فأجبتها قائلا :

ـ كلا ••• أشكرك •• أفضل أن أرحل الآن فقد تأخرت كثيرا ••

فقالت :

ـ سوف أحضر لك سترتك ••

وعندما خرجت من غرفة نوم الطفلتين ، كانت تحمل السترة بين يديها وهى تقــول :

ـ دعنى أساعدك فى ارتدائها ••

ـ كلا •• أشكرك ••

ثم قلت وأنا أتناول سترتى من يدها بلطف •• وأطويها :

ـ سوف أصعد هكذا ••

فقالت ميلدرد وهى تقدم يدها الى :

ـ حسن •• لم أنس أننا فى يوم العيد •• « عيد سعيد » يا أمبو ••

فأجبتها ممتنا :

ـ شكرا لك •• وأتمنى لك عيدا سعيدا ••

ثم تركت يدها بسرعة •• وكانت يدى فى تلك اللحظة ترتعش ارتعاشا شديدا ووجدتنى أقول لها :

ـ آن واستر قد أسعدانى كثيرا ••

لقد كانت هذه هى الحقيقة الكبرى الوحيدة •• التى كان على أن أعبر عنها فى تلك الليلة •••

ـ انهما يحبانك كثيرا ••

قالتها ميلدرد وهى ترفع مزلاج الباب ، ثم أضافت قائلة :

ـ أنا لا أزلج هـذا الباب الا ••••

ولم يكد الباب يفتح حتى فوجئنا بدلفين يجلس أمامنا على السلم ورأسه بين يديه ، وقد رفع بصره على صوت انفتاح الباب •• فلمـا رآنى حدجنى بنظرة طويلة منذهلة •• ثم حـول بصره بعيدا عنى وهو يعض شفتيه •• وسألته ميلدرد بهدوء :

ـ منذ متى وأنت تجلس هكذا •• ؟ تعال •• ادخل ••

ولكن دلفين لم يتحرك من مكانه •• بل ظل يحدق فى وجهى وفى عينيه ألم دفين •••

ـ عيد سعيد يادلف ••

قلتها محاولا أن أبدو طبيعيا ••• فما الذى كان يمكن أن أقوله أو أفعله فى هــذا الوقت غير ذلك ؟ ••• ألم أجلس معه فى ليلة من ليالى الخريف ، حينما كان باب شقته مغلقا بالمزلاج من الداخل ••• ! ؟

لم يرد على تحيتى بل أسقط رأســه مرة أخــرى بين يديه ••• فلمــا رفع بصره الى ثانية •• كان وجهه متقلص الأسارير كأنه يعانى من ألم باطنى حاد ••• وددت لو أستطيع أن أمــد اليه يدى •• ولكنها تدلت ثقيلة بجانبى •• وتشبثت أصابعى المرتعشــة بتضاعيف سترتى الصوفية •• وبعد لأى نهض دلفين مستجيبا لميلدرد وهى تدعوه فى تلك الأثناء بالحاح شديد ••• فلمــا اقترب منى كان الحزن العميق يرتسم على وجهه بعد أن فارقه الألم •• وتحجرت الدموع فى مقلتيه •• وفى همس لا يكاد يبين قال بلهجته الوطنية :

— حتى أنت يا أمبو ••• !

ثم دخل ••• وانغلق الباب من ورائهما ••• وبدلا من أن أصعد الى شقتى كمــا اعتزمت من قبل ، ارتديت سترتى وأسرعت خارجا •• وظللت أهيم على وجهى فى الطريق ••••

كانت أجراس سانت مارى فى الشارع الرابع تدق دقا عاليــا •• ولكن روح العيــد كانت قــد فارقتنى •• فسلبت معها بهجــة الأغانى والموسيقى •• وأصبحت دقات الأجراس كلها بلا معنى •• بلا حياة •••



امرأة فى الخـوف

كثير مما يتحدث به الجيران غير صحيح •• الا فى حالة واحدة •• عندما يقولون لك : هل تريد أن تعرف كيف ينظر رجل الى زوجته التى يحبها •• ؟ اذن فلتلاحظ « كريس » •• ذلك الجرسون الفلبينى وهــو يتطلع الى « اليس » زوجته الأمريكية ، وكأنه يلتهمها التهاما •••

ــ انه يشبه صبيا راح يداعب مليمين فى جيبه وهو يحملق فى فطيرة التفاح أمام بائع الحلوى ••

هكذا قالت المرأة ذات الشعر الرمادى ، التى تملك كلبا شرسا •• لا يكف عن النباح فى الحارة طول الليل ••

أما الزوجان الشابان فانهما يقيمان بالشقة رقم ٥ بالطابق الثانى فى مبنى قديم مكون من أربعة طوابق بشارع « اف » •• انه مبنى لا يفتقد الاسم •• فقد حفر اسمه على حجر أبيض مثبت فوق المدخل الرئيسى •• « بابيو » هــذا هو اسم المبنى •• ولكن لا أحد من السكان يعرف معنى هذه الكلمة •• ولا يعيرها أدنى اهتمام •• ولكن يحدث أن يأتى ساكن جديد •• وتسترعى الكلمة انتباهه ، بينما هــو جالس مع الجيران الذين يحتشدون على المدرج الحجرى أمام الباب ، فيحاول نطقها بمشقة •• ثم يسأل الآخرين مساعدته فى النطق •• أو يســأل مستنكرا « بحق الجحيم •• مذا تعنى هذه الكلمة ! » •• الا أن أحــدا لا يلقى اليــه بالا ••• فليس هــذا بالشىء المهم فى حياة أولئك الناس •

كان أغلبهم من الايطاليين •• والايرلنديين •• والهنود •• واليهود المهاجرين من بولندا وروسيا •• بالاضافة الى أسرتين أو ثلاث من الأسر « الفلبو أمريكية » •• وقد كانت عادتهم أن يتحدثوا بأصوات مرتفعة •• وأن يشتكوا من أى شىء •• ومن كل شىء •• ولكنهم على العمــوم مسالمون ومطيعون للقانون •

وفى بدروم المبنى كان يسكن بواب ملون •• ذو صوت حاد •• لــه زوجة •• وحفنة من الأطفال •• شعرهم مفتول •• وأسنانهم ناصعة البياض •• وقد اعتادوا أن يلعبوا مع غيرهم من الأطفال الملونين الذين يسكنون فى بيت واطىء متهدم على يمين مبنى « بايو » ••

وليس فى عقول هؤلاء الأطفال فوارق من أى نوع ••• فالأطفال البيض •• والسود والسمر •• يلعبون معا فى الشمس ••• ويتدحرجون معا على الأرض المعشبة •• غيرعابئين بلافتات التحذير •• ويتصايحون بألفــاظ نابية •• بينمــا يقف آباؤهم يتبادلون الأحاديث عبر الســور الأحمر •• ويخوضون فى سيرة الآخرين ويكشفون أعمق الأسرار •• وأشدها ســوادا •••

عندما لا يكون لدى اليس وزوجها ما يشغلهما •• لا سيما فى أيام الصيف الطويلة •• فانهما يجلسان مع الجيران على المدرج الحجرى أمام البيت يتسليان بالنظر الى الرائحين والغادين •• ويكتظ المدرج بالجالسين حتى يتعذر على أى شخص أن يدخل أو يخرج الا بمشقة •• فعليه أن يتحسس طريقه بحذر •• خلال المساحات الضئيلة الخالية بين الأجسام المتراصة والأرجل الممتدة فى كل اتجاه •• ولا يسلم واحد من المــارة من ألسنة الجالسين •• الذين يشرعون فى سلقه بألسنتهم وتمزيق سيرته •• وهو لم يكد يبتعد الا قليلا عن مرمى السمع ••

يا لهؤلاء الجيران الذين يعلمون كل شىء عن الآخرين ! هل رأيتم ذلك الشرطى الذى خرج الآن الى نوبته ؟ •• وهل لاحظتم الانتفاخات البادية تحت عينيه ؟ •• أتدرون أنه لم يعد ينام مع زوجته فى غرفة واحدة •• وأنها لا تسمح له بالاقتراب منها ••• ! وتلك الفتاة التى ترتدى ثوبا يشبه مريلة الخدم •• ألا تبدو عديمة الهندام ••• ! أنتم تعلمون أن لها طفلين أشقرين ••• لا ••• انهما غير متشابهين ••• ! كيف يمكن أن يكونا •••

أنتم تعرفون ماذا أقصد •• هيه •• ! انها لا تقيم هنا •• بل تحضر فقط لزيارة صديقها فى الدور الرابع •• أتدرون •• انها تمكث معه أحيانا طول الليل •• ! المصيبة أنهما على وفاق كأنهما زوجان •• ولكن ما الذى يمنعهما من الزواج •• والعيش فى الحلال •• بدلا من هذا الحرام •• ألطف بنا يا رب •• ! ومع ذلك فانها تبدو لطيفة •• أليست كذلك •• ! ولكن يا إلهى •• أى قبعات مضحكة تلك التى ترتديها •• !

يا لهؤلاء الجيران الذين يعلمون كل شىء •••

انهم يعرفون فى الوقت المناسب أن فلانة قد ابتدأت حملها •• وفلانة فى شقة ١٧ توشك أن تضع مولودها •• لقد حسبوا لها باليوم •• وهى تساعدهم فى ضبط هذا الحساب •••

انهم •• أكثر من هذا •• يستطيعون أن يخبروك بما قاله اديث لزوجته •• وكيف قالت له وهى ملتصقة بصدره خلف الباب •• قبل خروجه : « حبيبى اديث •• أرجو ألا تنسى أن تبعث الى برقمك فى المعسكر فور وصولك •• حتى يمكن أن أطالب بمكافأتى •• لا تنسى هذا يا حبيبى •• ها •• ها •• ! » •

أجل •• ان هؤلاء الناس يعلمون كل شىء •• ولكن كثيرا مما يقولون ليس صحيحا تماما •• الا عندما يتحدثون عن كريس المحب وهو ينظر الى زوجته ••• انه الحب ••• الحب •• الحب ••

كان كريس شابا ممتلىء الجسم تميل قامته الى القصر •• أسمر الوجه •• له كل سمات الفلبينى الخالص ••• وقد استطاع أن يجمع لنفسه ثروة لا بأس بها •• ولما كان أكثرها من البقشيش •• فانه لم يدفع عنها سوى ضريبة دخل ضئيلة •• انه يبدو دائما نظيفا أنيقا •• له يدان ناعمتان مثل يدى فتاة رقيقة ••• لقد طاف أرجاء الولايات المتحدة •• ومارس جميع الأعمال •• وكان معظمها بالطبع أعمالا يدوية •• ومع ذلك فقد بقيت يداه ناعمتين رقيقتين •

كان يعمل فى كاليفورنيا بقطف ثمار الفاكهة •• وفى شيكاغو عمل فى غسل الأطباق •• وفى ديترويت كان يخدم احدى الأسر الأمريكية •• وفى نيويورك اشتغل عازف جيتار مع احدى الفرق الفلبينية للموسيقى الوترية ••• ثم استقر أخيرا فى عمله كجرسون بواشنطن •• وتزوج من فتاة أمريكية •• ملكت عليه الفؤاد ••• تستطيع أن تلمح ذلك فى عينيه دائما ••• وقد كان الجيران محقين فى هذه الملاحظة •• ولم يغب هذا عن اليس •••

تنتمى اليس الى احدى المدن الصغيرة بولاية فرجينيا •• وهى فتاة جميلة تملك شعرا كستنائيا ، وعينين عسليتين •• يغرم بهما كريس •• ويجذبه ما يكمن فيهما من حزن دفين وتأمل عميق •• وكثيرا ما كان يقول لنفسه : « يالهما من عينين عميقتين حزينتين كعينى أمى •• » •

كانت اليس تخشى التعرض لأشعة الشمس خوفا على بشرتها البيضاء الرقيقة أن تحترق ••• وعندما التقى بها كريس لأول مرة كانت تعمل جرسونة •• وقد أسرته نظراتها •• فظل يفكر فى عينيها طوال ذلك اليوم ، ويعجب لما لاحظه من اختلاف أصابعها الموردة التى تبدو متمرسة بالعمل ، وبين وجهها الشاحب وجسمها الرقيق ••

تزوجت اليس وهى لاتزال حديثة السن ، فلم تكن قد بلغت العشرين من عمرها فى ذلك الوقت •• ولم تكن فى أول الأمر تشعر بميل واضح الى كريس •• وطالما عبرت عن سبب ذلك بطريقتها الريفية الساذجة وهى تتحدث اليه قائلة :

— سيقول الناس انك ملون ••• !

وكان هذا مصدر تعاسة بالغة لها •• حتى انها كانت تتحاشى أن يعرف الناس حقيقة ارتباطها بكريس •• فاذا اعتزما الذهاب الى السينما ، اتخذ كل منهما طريقا مختلفا عن الآخر •• فلا يلتقيان الا عند شباك التذاكر •• ثم يتسللان الى صالة العرض ، ويجلسان معا فى الظلام ،

وقد أمسك كل منهما يد الآخر .. فاذا أضيئت الصالة أسرع كل منهما مبتعدا عن صاحبه .. وقد اتخذ مجلسه صامتاً .. كأنهما غريبان .. حتى اذا انطفأت الأنوار مرة أخرى وساد الظلام .. تلمس كل منهما يد الآخر وهو يشعر بالشقاء ..

لم يكن كريس راضيا عن هذه الحال .. ولكنه كان يعلل نفسه بأنه لا مفر من ذلك .. فهو لا يحب أن يحملق الناس فيهما .. وكان يقول لزوجته : « لا أحب أن أسبب لك المضايقات يا حبيبتى ... وفضلا عن ذلك فلو أن أحدا أساء اليك ونحن نسير معا .. انك لا تدرين .. أى جريمة يمكن أن تحدث . ! فقد أقتله .. أو يقتلنى .. » .

ولكن هذا الوضع الشاذ كان مصدر تعاسة لهما فى أول الأمر .. لم يستمر طويلا .. فان بيت الزوجية الهادىء قد تكفل بمعالجة الأمور .. وسرعان ما أصبح لدى الزوجين من الشجاعة ما جعلهما يسيران معا فى الشوارع دون خوف .. وقد أثار دهشتهما أن أحدا لم يلتفت اليهما ، الا فيما ندر .. وأن أحدا لم يتعرض لهما باساءة تذكر ..

وقد علقت اليس على ذلك بقولها :

— انظر ... لم يكن يحق لنا أن نكون جبناء الى هذا الحد ...

أما كريس فقد كانت له وجهة نظر أخرى شرحها قائلا :

— كلا . . كلا .. لم نكن جبناء .. انما حدث تغيير لم يكن موجودا من قبل .. فقد أصبح كل انسان يسمع اليوم عن شجاعة الفلبينيين وعن اخلاصهم لأمريكا .. لم يكن أحد يهتم بذلك قبل أن تسقط بلادى فى قبضة اليابانيين .. وقبل أن يسمع الناس عن مقاومتنا الباسلة لهذا الغزو ..

غير أن اليس لم تستطع أن تهضم هذه الفكرة •• فهى فتاة بسيطة ساذجة ••• كان أكبر همها أن يكون لها بيت هادىء وزوج طيب •• فقد كانت حياتها السابقة كلها شقاء ومعاناة •• هكذا كانت تقول وهى تتذكر بعض قسمات الماضى : الفقر المضنى فى طفولتها •• وتلك التلال الجرداء •• وقطعة الأرض المجدبة التى كان والداها يكدحان فى زراعتها طوال النهار •••

لطالما تحدثت اليس عن بيتها فى تلك المدينة الصغيرة القديمة بولاية فرجينيا •• حيث نشأت •• وكان حديثها يتكشف أحيانا عن توق غير طبيعى الى الماضى •• حيث تدور ذكرياتها حول اخوتها وأخواتها العديدين ، والأيام الصعبة التى خاضوها بالألم والجوع والخوف •• كما كانت تتحدث عن أبويها الطاعنين فى السن •• وعن الأشياء التى كانا يتحدثان عنها •• والصلوات التى تعلمتها من أمها •• والأناشيد التى كانوا يرتلونها فى مدارس الأحد •••

وكان كريس يستمع اليها صامتا وهى تنشد أغنياتها الحزينة عن الايمان وعن الرب •• ثم تتوقف فجأة وتستغرقها حالات غريبة من الصمت والكآبة العميقة يتعذر وصفها بالكلام ••• فاذا عادت تستأنف الغناء من جديد ، أنصت اليها كريس وقد شمله تأثر عميق ••• لم يكن كريس من أولئك الأشخاص ذوى الايمان الدينى العميق ••• ولكن الأمر هنا يختلف ، فأغنيات زوجته الحزينة تتجاوب فى نفسه ، وتثير فى أعماقه كوامن الأسى والحزن •• فكان يغنى معها بقلبه •• فاذا انفرد بنفسه استرجع كلمات اليس وهى تغنى فى ليالى الشتاء الباردة :

هناك على ذلك التل البعيد •• يرتفع صليب خشن قديم ••
الى العذاب والشقاء •• يشير ••
أوه ••• لكم أحب هذا الصليب ••
أحبه من أجل ما هو خير وأبقى ••

من أجل المذنبين ، الحائرين فى هذا العالم الكبير ..

ولسوف أظل أحتضن هذا الصليب الخشن القديم .

الى أن يحين يوم غير بعيد ..

أستبدله فيه .. بتاج عرس جميل ..

وذات يوم قالت « اليس » :

— « كريس » ... لقد مضت أعوام كثيرة حتى الآن .. لم أر فيها أبى وأمى .. اننى حتى لم أكتب اليهما حلمه واحدة ... اكتب لى خطابا اليهما يا كريس ... حدثهم فيــه عن أحوالنــا .. وكيف نعيش سعداء ....

واستجاب كريس فكتب الى والدى اليس بفرجينيــا ... وكان يستخدم ذلك الأسلوب المتميز بالتنميق والتكلف .. الــذى يكتب به الفلبينى .. فيحشــوه بالمحسنات اللفظيــة كدليل على الكياســة فى التعبير .. ويكثر من الاستعارات التى تتجافاها الأذن .. والعبــارات الغريبة الملتوية .... وتبدو لغته مفتقرة تماما الى الاستخدام الصحيح للتعبيرات الاصطلاحية والقواعد اللغوية .....

وبعد خطابين من هــذا القبيل بعثت والدة اليس ترد على ابنتها فى خطاب كتب بخط ساذج متعرج : « اليس » ... تسلمت خطابك .. ولكن لا أعرف ما تتكلمون عنه ... هل أصابكم الخبال .. » .

وضحكت اليس مع كريس طويلا على هــذا الكلام .... وبطبعية الحــال .. علم الجيران كل شىء عن الموضوع .. فى الوقت المناسب .

كان كريس يعــود أحيانا فى المســاء وهو يحمــل مجموعــة من الأسطوانات التى تحبها اليس .. وتختارها من بين ما تستمع اليــه من أغنيات الاذاعة .. فاذا ما أديرت الأسطوانة .. وسرى اللحن فى كيانها .. شرعت تغنى .. بينما يصاحبها كريس بالعزف على الجيتار ... وقــد

يديران الأسطوانة مرة بعـد أخـرى •• حتى يتسرب اليهما الملل •• فلا يديرانها بعد ذلك •• الا بعد وقت طويل •• وقد تقول اليس :

ـ هذه الأسطوانة أصبحت قديمـة ••

ويلبث الزوجان الشابان على هذه الحـال فترة من الزمن يتنقلان من أغنية الى أغنية أخرى •• لا يصبران على الواحدة منها الا قليلا ••• فيما عدا تلك الألحان التى تعكس المزاج الريفى •• وتصور تلال الجنوب والأبقار •• انها ألحان تفضلها اليس •• وتبقى معها طويلا •• ومن أحب هذه الأغانى الى قلبها : أغنية « كن صادقا معى » وأغنية « منفردا فى وحدتى » فاذا استعمت اليهما اغرورقت عيناها بالدموع ••

كانت فكرة الزوجين عن الاستمتاع بالوقت فى المساء •• لا يزيد عن احتسـاء الكوك •• التى يصر كريس على أن ينطق اسمها كاملا •• كوكاكولا •• لأن كلمة كوك تذكره بشىء آخـر •• تذكره باسمه عندما كان طاهيا ••• كما كانا يستمعان معا الى برامج الاذاعة •• أو يديران الفونوجراف ويرقصان حول مائدة الطعام •••

ولم يكن يفوتهما حضور حفلات الرقص التى يقيمها الفلبينيون فى جمعيتهم ••• وعندما حضر رئيس الفلبين الى واشنطن •• أقيمت لتكريمه مأدبة كبيرة •• وصحب كريس زوجته اليها •• وعندما انتهى الحفـل الراقص •• سألها وهما عائدين الى البيت •• عن رأيها فى رئيس بلاده فقالت :

ـ انه لا يشبه روزفلت أبدا •• هل ترى أنه يشبهه •• ؟ ••

وضمها كريس الى صدره بقوة وهمس فى أذنها ضاحكا :

ـ أرى أنك رائعة يا حبيبتى •• لكم أحبك ••• ! ••

وفى وقت متأخر من تلك الليلـة •• وهما يتهيآن للذهـاب الى فراشهما •• أمسك بيدها وقال :

ــ هل تعلمين أنك الليلة •• كنت أجمل فتاة فى صالة الرقص •• ؟

فاحتجت على ذلك قائلة :

ــ أوه ••• كلا •••

فعاد يؤكد لها قولـــه بلهجة جـــادة :

ــ انها الحقيقة ••

فقبلته على خده وهو تقول :

ــ أشكرك ياكريس على هذا التلطف ••• ولكن أتدرى •• انه فى هذه اللحظة نفسها يقول هــذا الكلام كل فلبينى لزوجته أو لمحبوبته •• وهو يعنى ذلك أيضا •• يالكم من أناس ظرفاء •• !

لقد كان لهؤلاء الناس الظرفاء أوقات سعيدة مع زوجاتهم الأمريكيات كانوا يقيمــون حفلات يحضرهــا كثير من الأصــدقاء •• وتقــدم فيها أطباق شهية من جزر الفلبين •• ويستمتع الجميع بالرقص والموسيقى •• ولابد أن تكون هناك كلمات تلقى : لنكن بسطاء •• ولنجتمع لنرحب فى المدينة بمقدم أحــد الأصدقاء جاء من الســاحل الغربى •• أو لنحتفل بزواج صديق آخر •• لابد أن تكون هناك كلمات تقال •• وخمر •• وصخب •• وضحكات عالية تتردد فى أرجاء المكان ••

انها مناسبات يحرص الجميع على حضورها •• كل أفراد الأسرة يحضرون •• حتى الخالات والعمات •• حتى الأطفال •• انهم أطفال على قسط وافر من الجمال ••• وهــذا النسل الجديد الذى ينتمى الى أسر فلبو أمريكية •• كلهم يتحدثون الانجليزية بطريقة سليمة •• خالية من نبرات آبائهم المتميزة •• انهم أمريكيون صغار •• لا يعلمون شيئا ما عن موطن آبائهم ••• كمــا قا لكريس لزوجته :

ــ لا يبــدو أنهم يهتمــون بشىء من ذلك على الاطلاق •• انهم مشغولون بأن يصبحوا مواطنين أمريكيين •• انهم أذكياء •• ألا تلاحظين

هـذا •• ؟ وتوافق اليس على هذا الرأى •• فهى لا تملك الا أن توافق على كل ما يقوله كريس •• لا سيما عندما يتعلق الأمر بأشياء لا تستطيع ادراكها •• مما يتصل بحياة الآخرين •• انها تصغى اليه وتومىء برأسها علامة الموافقة ••••

ويتميز كريس بحديثه الشـائق ••• فشفتاه دائمـا على حافة الابتسام •• ويلتمع فى عينيه بريق جذاب •• وتنساب الكلمات من فمـه بطيئة واضحة كأنه يقرأ من كتاب •• وهو شغوف بالحديث •• يحب فلسفة الأمـور •• والكشف عن الوقائع المثيرة ••

وقد اعتاد •• من وقت لآخر •• أن يزور حـلاق فلبينى بالحى الصينى •• ثم يعود وقد امتلأت جعبته بذخيرة من القصص والحكايات عن أبناء وطنه •• تكفيه لمـدة أسبوعين من الأحاديث •••

ولكنه فى احدى المرات عاد من عند الحلاق •• وهو متعب مهموم ••• وكان لديهم فى ذلك اليوم شرائح من لحم مشـوى •• مما يحبه ويفضله على سائر الطعام •• ولكنه لا يبدى اليوم رغبة فى تناول شىء منها •••

كانت أول مرة فعل مثل هذا •• يوم أن سقطت بلاده فى الحرب •• واقتحم اليابانيون مانيلا •• فقد ظل عـدة أيام •• لا يتناول شيئا من طعام •• وفى الليل كان يصرخ وينتحب ••• لقد ولد بمانيلا •• وعاش فيها عشرين سنة كاملة •• وأحست اليس بما يعانيه •• فكانت تعطف عليـه •• وتحيطه بذراعيها كطفل صغير ••• وتحاول جاهدة •• أن تخفف عنه نوبات الشعور بالوحدة •• وذلك الحنين الذى يفوق الوصف •• الى وطنه الذى روعته الحرب •••

وها هـو ذا اليوم يعود •• للمرة الثانية •• من صالون الحلاقة •• مغتما فاقد الشهية ••• يرفض دعـوة زوجته الى الطعام •• فتقول له :

— ألست تحب طبق الشواء ياكريس •• انه لا يتوفر لنا كل يوم •• كمـا تعلم •• فأجابها •• وهو يشيح بنظراته عنها :

ـ أعلم هـذا ••• اننى أحبه •• ولكنى •• لا أشعر الآن برغبة فى شىء •• هذا كل ما فى الأمر ••

وظل كريس على هـذه الحال صامتا •• حتى جاء الليل •• وانقضى منه شطر كبير •• ثم شرع يفض ما بنفسـه الى زوجته •• ان أحـد أصدقائه الأعزاء •• قد توفى اليوم •• انه ذلك الشخص الذى جاء معه من فريزنو الى شيكاغو •• ثم صحبه أخيرا الى نيويورك •• « كان مصابا بذات الرئة •• ومات معوزا •• » ثم أضـاف كريس •• وقـد لانت كلماته •• وأصبح حديثه همسا •• فقال :

ـ كان فتى طيبا •• لا يبخل على صاحبه بآخر سنت فى جيبه •• ذهبت اليه فى سنة ١٩٣٢ •• وكنت جائعا لا أملك شيئا •• فأطعمنى •• وآوانى فى مسكنه أياما وأسابيع ••• وها هـو ذا اليوم يموت خالى الوفاض •• وقد اجتمع الفتيان ليساهموا فى دفنه •• قالوا انه لم يترك شيئا •• فيما عدا صرة بها ملابس قديمة •• وبذلة لم يقبل أحد بارتدائها •• وزهـور امتلأت بها غرفته ••• كان يحب الزهـور •• ويحرص على اقتنائها •• حتى فى أيام الضنك •• وكنت أعجب لهذا التصرف •• فأتعمد مضايقته •• وكنت أقول لـه : انك ناعم مترف ••• لقد مضى الآن •• وترك غرفته وقـد امتلأت بزهور ذابلة •• جفت على أعوادها وذهب رونقها •••

ان كريس وزوجته يعيشان فى بيتهما حياة خاصة •• تغلفها العزلـة ولكنهما لم يفقدا صلتهما خارج البيت بالأصدقاء ••• فلكريس أصدقاء كثيرون ••• فتيان سمر •• فى كل مكان من هذه البلاد التى لا تنقطع فيها الكوارث •••

ومن بين هؤلاء الأصدقاء •• « بيت الفلبينى وزوجته الأمريكية « مارج •• » انها أسرة فلبو أمريكية ••• كانا صديقين حميمين لالسين وكريس •• وقـد نشرت الصحف قصتهما ••• كانت الأسرة تقطن فى

ضواحى واشنطن •• غير بعيد من « سيلفر اسبرنجز » •• وكان لهـا منزل جميل فى منطقة هادئة •• وكثيرا ما كان كريس يصطحب زوجته فى زيارة الأسرة مع غيرهما من الأصدقاء •• فيلهون ويصخبون هناك •• خاصـة بعد شهر أكتوبر •• من ذلك العام •• الذى شرع الأمريكيون فيه يكتسحون اليابانيين خارج الفلبين ••

وكان لبيت ومارج طفلان ••• يوشك أكبرهما أن يتم الخامسـة من عمره •• بينما الأصغر لايزال فى الثانية ••• لم يكونا طفلين جميلين •• كانت لهما بشرة سمراء قاتمة •• وأنف أفطس كأنف « بيت » •••

أما « بيت » فقد كان طاهيا ماهرا ••• كان واحدا من أمهر الطهاة الفلبينيين •• وكانت « مارج » تفخر بذلك ••• وقد اعتاد الزوجان أن يقيما الحفلات فى بيتهما •• ويبعثا الى الأصدقاء لحضورها ••• ولم يكن يبدو على « مارج » أنها تعانى شيئا من الهموم على الاطلاق •••• ولكنها كانت تبدو حريصة على أن ترسل طفليها الى الفراش عندما يحضر الضيوف •• ويبـدأ الاحتفال ••• ولم تكن تتحدث عنهمـا بشىء من الاعتزاز •• فالحقيقة أنهما كانا دميمين ••

غير أن هـذا لم يبد أنه يعكر صفو « مارج » ••• وكانت دائمـا تبدى اعجابها بزوجها أمام الأصدقاء فتقول :

ـ حقا •• انه ليس فيـه الكثير مما يتعشقه النظر •• ولكنـه كانسان •• يجعلنى أشعر بأننى ملكة متوجة •• !

وفجأة •• كمـا تحكى الصحف •• انقلبت مارج الى الجنون •• فأغرقت طفليها فى بانيو الحمام •• عندما كان زوجها خارج البيت •• ثم أقدمت على الانتحار •• ولكنها أنقذت فى آخر لحظة •• ونقلت الى المستشفى لتمكث فيه بعض الوقت •• ثم انتهى أمرها الى مصحة للأمراض العقلية •••

وتحول « بيت » بعد هـذا الحادث الى انسان محطم ••• كان يحب طفليه أشد الحب •• ولم يكن يتحدث الا عنهما •• وكان يوفر ليشترى لهما وثاق التأمين •• ضمانا لمستقبلهما ••• انه الآن يحارب فى مكان ما وراء البحار ••• ولعله قد قضى نحبه •• لا أحد يعلم ••• !

لقد كانت المأساة فوق ما يحتمل •• كمـا كانت أكبر من احتمـال أصدقائه •• وقد ألقت ظلالها على حياة اليس وزوجها ••• ولكنها خصت اليس بآثار مضاعفة ••

شاع عن « مارج » •• بطريقة أو بأخرى •• أنها تلك المرأة التى أغرقت أطفالها •• وأنها وصلت الى هـذه الحال عبر سنوات من العذاب البطىء •• فقد قيل ان معارفها من الأمريكيات كن يعيرنها بأنها رضيت بالزواج من فلبينى ملون •• وعندمـا وضعت طفلها الأول •• سمـاه الجيران : القرد الصغير ••• فلمـا جاء طفلها الثانى •• أخـذ الجيران البضين يسخرون منها قائلين :

ــ لقد أصبح لها الآن قردان صغيران ••

ولقد حاولت أن تقاوم هذه الاهانات •• ولكنها أخفقت •••

كانت تحب زوجها بيت •• وكان هـو بدوره يحـاول أن يتفهم موقفها •• ويحس فى أعماقه بالمرارة والألم •• ويبذل كل ما فى وسعه من أجلها ••• ولكنها كانت تتحول من سىء الى أسـوأ •• فقد بدأت تشرب الخمر •• وتقسو فى معاملة الطفلين •• وتتشاجر مع زوجها •• وهكذا تأزمت الأمور فيمـا بينهما ••• غير أن الطفلين البريئين لم يكونا يدركان شيئا مما يدور حولهما •• فقد ظلا يلعبان معا •• ولم يبد أنهما حتى قد فهما مايعنيه أولاد الجيران عندما ينادونهما صائحين : « هاى ••• أيها القردان ••• » •

تمزق كيان مارج من الصراع الداخلى •• وانتهت الى الجنون •• وعندما حضر الجيران ــ كما تقول الشائعات ــ وجدوها تصرخ وتقول :

— لقد مات القردان •• وهأنذا •• وحدى ••• !

ثم حاولت أن تقتل نفسها •••••

كانت اليس تحفظ تفاصيل هذه القصة •• وتعيدها على مسمع كريس المرة تلو الأخرى •• وتقولها لأى شخص تجـد منه أذنا مصغية ••• وفى احدى المرات رجاها كريس أن تكف عن ذكر هـذه القصـة مرة أخرى قائلا لها : « لقد انتهى كل شىء ••• وفوق هذا •• فانها قصة غـير صحيحـة •• » •

فأجابته معترضة :

— بل انها جـد صحيحة •••

ولأول مرة يثور عليها كريس ثورة حقيقية وقد استنفذه منها هـذا الاصرار •• ومن ذلك الحين بدأت اليس تذبل •• كزهرة ذاوية •• من تلك الزهور التى تركها من بعده •• ذلك الفلبينى الشاب •• الذى دفن فى مقابر الفقراء •• خارج المدينـة ••

ولاحظ عليها كريس هذا التغير •• فترفق بها •• وصحبها معه فى نزهة خلوية على شاطئ النهر ••• ورجع الزوجان فى ذلك اليوم وقد بدا عليهما علامات الصحة والابتهاج •• ولكن لم يمض على ذلك الا زمن قليل ثم عادت اليس الى شرورها من جديد •• وانطفأ لون وجناتها •• التى اعتراها شحوب يثير الاشفاق ••• وحاولت أن تعالج الأمر بوضع مزيد من الأصباغ على وجهها وشفتيها •• ولكن ذلك لم يستطع أن يخفى الحقيقة •• بل كان يؤكد شحوب بشرتها وذبولها المتزايد •

وبدأت تخلط فى كلامها •• وتتحدث عن أشياء بعيدة عن المنطق •• كانت ترقب كريس مرة وهو يمشط شعره أمـام المرآة •• فقالت له : « كريس ••• ما الذى غيرك هكذا ••• ؟ لم تعد جذابا بالمرة ••• كمـا كنت تبدو من قبل ••• ! » أو تقول أحيانا ومن غير مناسبة : « بعض

« بعض الأطفال الفلبينيين الذين يولدون فى هذه البلاد منظرهم فاتن •• أليس كذلك •• ؟ » ثم تشرع فى ذكر أطفال بعض الأسر الفلبو أمريكية •• وكأنها تؤكد لنفسها شيئا ما ••• أو تثبت فى عقلها اعتقادا •• كان يتسرب منها شيئا فشيئا •• ليحل فى موضعه شك متزايد ••• !

وعندما كان كريس يتحول فى فراشه اليها •• أو يقترب منها •• كانت ترتجف رجفة شديدة يهتز لها كيانها من الأعماق ••• وتظل تنتحب انتحابا مكتوما حتى يطلع النهار •• ولكنها أبدا لا تفصح عما بها •• وكان كريس يقدر مشاعرها ويلتمس لها الأعذار •••

كانت اليس قبل أن تسمع بالمأساة •• عذبة الروح •• لينة العريكة •• مستجيبة لرغبات زوجها •• وكانت تقول له كلاما لطيفا : « كريس ••• انك تبدو كاله ••• ففى الظلام أصبح أنا بيضاء شاحبة •• ولكنك تبقى كما أنت ••• جميلا ••• ! » بل انها كانت تقول له : « أود أن يأتى طفلنا •• مثلك ياكريس •• » •

كان هذا يحدث فيما مضى ••• أما الآن فانه اذا تحول نحوها •• أو اقترب منها فى منتصف الليل •• فزعت منه وارتجفت •• كأنه قد باغتها بالأذى •• ولم يعد هنالك كلام يتبادله الزوجان على الاطلاق ••• لا شىء غير النحيب ••• وبدأ الجيران يتهامسون •••••

قالت لها سيدة ايطالية عجوز تقطن بالدور الأرضى :

— انك تبدين شاحبة ••• هل تنتظرين حادثا سعيدا •• أليس كذلك ؟ ولم تجب اليس بشىء •• بل هرعت صاعدة الى غرفتها •• وأخذت تجهش بالبكاء •• فلما عاد كريس الى البيت •• كانت لاتزال آثار الدموع فى عينيها •• التى انتفخت من كثرة البكاء ••• كانت ثائرة على المرأة العجوز •• لأنها حدثتها عن ذلك الشىء المنكر •••

وفى تلك الليلة عادت اليس الى البكاء •• وأخذت تتكلم عن أشياء مزعجة ••• وتسأل زوجها بالحاح وهى تقول :

ـ هل تعتقد ياكريس ••• أن ما قيل عن مارج والطفلين كان صحيحا حقا ؟ واستمع كريس اليها مشدوها ••• بينما كانت تعيد عليه سؤالها مرة بعد أخرى ••••

لم يعد فى نفس كريس ظل من الشك فى حقيقة ما تعانيه زوجته ••• وقد تبين له الآن بوضوح السبب الـذى جعلها تتحاشى اقترابه منها •• لقد كانت باردة ممتلئة بخوف لا يوصف •• من شىء مجهول •• أصبح الآن يعرفه على وجـه اليقين •••

تلاشت السعادة من بيت الزوجين •• وانصرفت اليس عن أسطواناتها وأغانيها عدة شهور ••• وتراكم الغبار على جيتار كريس ••• كانت أبهج الأغنيات تتردد فى جنبات العالم ••• أما الزوجان الشابان •• فقد سقط عالمهما الصغير أمامهما •• وهما لايزالان فى ريعان الشباب •••

كانت ضحكاتهما فى الأيام الخالية تلمع فى الظلام ••• أما الآن •• فان الظلام لم يعد يحمل لهما سـوى الخوف •• وقد ماتت الأغنيات جميعا ••• حتى أغنيات الريف الحزينـة ••• التى تتحـدث عن تلال الجنوب •• وعن حياة الفقر والأسى ••• كان للحزن القديم أغنيات ••••

أما هذا الخوف فليس له أغنيات يمكن أن تعبر عنه •• فى حياة الزوجين •••

ولكنهما ظلا يجلسان فى الصيف •• على المدرج الحجرى •• لمبنى « بايو » يستمعان الى أحاديث الجيران ••• الذين يعلمون كل شىء ••• الا هـذا الشىء الذى طرأ على حياة الزوجين ••• فقد بقى سرا بينهما •• لا يعلم به أحـد غيرهما •••

❋ ❋ ❋

أشــياء كثيرة

استدعى الفتيان الذين يقيمون مع أمبو الى الجيش واحدا بعــد الآخر ... وفى أول الأمر ، كانوا يواجهون الموقف بالضحك والمزاح ، فيقول أحدهم : « انظروا ... لقدَ تلقيت اليوم خطابا من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ... ! » .

ولكن سرعان ما ينقشع المزاح ... ويبــدأ الجــد ... فالفتيان لا يعرفون أين يودعون أشياءهم الخاصــة ... انهم لا يهتمون كثيرا بملابسهم ... ولكن هناك أشياء أخرى قليلة يحرصون عليها : فديك مثلا لديه رسائل الوطن .. يعتز بها .. ويود أن يحفظها فى مكان أمين حتى يعود من الجيش ... ونولى يعتز بساعة ذهبية كان أبوه قد أهداها اليه على سبيل التذكار ...

سيف فقط هــو الذى لم يكن عنده ما يود الاحتفاظ بهِ .. لذلك قال ، وهــو يجتهد أن يضفى روح المرح على كلماته :

ــ ليس عندى مراكب لأحرقها من خلفى ... وقد يسرت الأمر على ادارة التجنيد ... سؤلت هناك : من نتصل به فى حالة الوفاة ؟ ... ولم .... ؟ لا أحــد .... حقا انه أمر يدعــو للأسف .. ولكنى أعتقد أن المسألة على هــذا النحو تكون أفضل .... هل رأيتم نولى وهى يكابد آلام الفراق .. والدموع تنهمر على خديه ؟ ... وصاحبته تلك .. التى كانت تبكى على كتفيه .. بكاء حــارا .. وكأن العالم ســوف ينتهى برحيله .. ؟ انها مواقف تحطم القلب .. وتبعث على الرثاء ... من حسن الحظ .. ليس لى من يبكى لفراقى ....

ومع ذلك فلم يكن الرحيل .. فى حقيقته .. أمرا يسيراً على أى من الفتيان .. فاذا كان أولئك الذين لهم أحباء يضطرون لفراقهم .. يشعرون بالأسى .. فمال بال أولئك الذين ليس لهم من يودعهم عند الرحيل ! انهم يبدون أبلغ تأثرا وأشــد حزنا ..

حقا لقد كان أمبو يحرص على أن يحضر لحظات الوداع •• ما أمكنه ذلك •• ولكن الأمر هنا مختلف •• فأمبو صديق الجميع •• ليس فى قلبه مكان خاص لواحد دون الآخرين •••

ذهب الفتيان واحـــدا بعد واحد الى الحرب •• وكل منهم يعلل النفس بأن الفرصـــة قد واتته أخـــيرا لكى يمــوت على أرض الوطن ••• ربمـــا •••

وعندما لاح أن الشقة توشك أن تخلو •• نزلت مسز موراليز مع ابنتها ، لتتفق مع ديك على الترتيبات اللازمة ، لتشغل هى الشقة بعـــد رحيله ••• كانت مسز موراليز وابنتها اميليا يسكنان معا فى حجرة واحدة ، بشقة فى الدور الرابع من نفس المبنى •• انهما لم يحضرا الى واشنطن الا منذ فترة قصيرة •• جاءت اميليا من الفلبين فى منحـــة دراسية من احـــدى المؤسسات •• ثم لحقت بها مسز موراليز ••• وعندما نشبت الحرب (١) التحقت الأم باحدى الوظائف •• واضطرت اميليا أن تقطع دراستها ، عندما توقفت شيكات المؤسسة عن الوصول اليها ••• وقـــد استطاعت أن تحصل على وظيفة فى مبنى البنتاجون •• فقد كانت تجيد الكتابة على الآلة الكاتبة ••• وهما الآن يريدان شقة مستقلة •• وقد واتتهما الفرصة لتحقيق ذلك ••

كانت مسز موراليز تتحدث مع ديك ••• بينما أخذت اميليا تتجول فى الصـــالة •• وهى تتفحص الكتب •• وتتشمم عناوينها •• وكأن لها رائحـــة •• وفى تلك الآونة كان أمبو نائما فى غرفته •• ولكن الكلام فى الصالة أيقظه ••• وقد أثار دهشته تلك الأصوات النسائية التى سمعها •• فتساءل بينه وبين نفسه : ترى من يزور ديك من النســـاء ؟ •• وفيما هـــو ينصت •• سمع ديك يقول :

---

(١) بعد موقعة بيرل هاربر ، اكتسحت اليابان القوات الامريكية فى جزر الفلبين فى ديسمبر ١٩٤١ وأصبحت الفلبين بذلك ميدانا من ميادين الحـــرب العالميـــة الثانية ...

— كل شىء على ما يرام •• سوى أنه قد يكون عليكما أن تتقبلا ساكنا معكما •• انه أحـد زملائنا •• بابلو ايكارا نجال •• لن يذهب الى الجيش •• وهو يشغل وظيفة هامة فى أحـد المصانع الحربية بالقرب من بوتوماك •• فسألته مسز مورالبز :

— من أى الجهات فى الفلبين هـو •• ؟

وقاطعتها اميليا بسؤال آخر قائلة :

— أليس هو ذلك الشخص الذى يدعونه أمبو ؟

فأجاب ديك :

— انه هو ••• اننى •• كنت أفكر فى أن الشقة ••• كبيرة عليكما وحدكما ••• وأمبو ••••

فاعترضت اميليا بقولها :

— أنا لا أحب هـذا الشخص ••

فقال ديك بشىء من الحـدة :

— صه ••• انه الآن فى غرفته •••

وبدا على اميليا الاستخفاف وهى تقول :

— أنا لا أعبأ به ••• لا أحبه مطلقا •••

وزجرت مسز مورالبز ابنتها قائلة :

— يكفيك هـذا سخفا •• انك لا تعرفين الرجل ••• بأى حق تبدين كراهيتك لـه •• !

قال ديك :

— انه فى الحقيقة •• انسان مهذب •• هو أكبر منا سنا •• ولكنى أؤكد لكما أن لـه قلبا من ذهب •••

فصاحت اميليا :

ـ قلب من ذهب ••• ! أظن أنه تلقى هـذا الوصف •• لأنه يطعم تلكما الطفلتين •• كلما صعدتا اليه من الدور الأرضى يناديانه : عمى ••• عمى ••• !

واحتد ديك مرة أخرى وهـو يحذرها :

ـ أرجـوك •••• !

ورفعت الأم يدها تغلق فم ابنتها •• ولكنها تراجعت الى الخلف فسقطت يد الأم مترنحة الى جانبها •• وثارت مسزمورالیز تنهر ابنها قائلة :

ـ اميليا ••• لا تتكلمى كالمجانين ••

وهنا سمعت طرقة على باب الشقة •• فقام ديك معتذرا وهو يقول :

ـ لعله بائع الصحف ••

فلمـا ابتعد عنهما •• سألت مسزمورالیز ابنتها وقـد أكتسبت لهجتها رقـة :

ـ هل تعرفين ذلك الرجل •• أمبو ؟

فأجابت اميليا باقتضاب :

ـ كلا •• ولكن رأيته •••

ـ ماذا يعيبه ؟ لمـاذا لا تريدين بقاءه معنا ؟ انه الآن يشغـل حجرة زائدة عن حاجتنا ، وهناك حجرتان كبيرتان بيننا وبينه ••• وقد نفكر فى المستقبل أن نؤجر حجرة أخرى •• ان هـذا يساعدنا على النفقات ••

ـ أعرف هذا ••

أجابت اميليا •• ثم توقفت قليلا قبل أن تعود الى الكلام مرة أخرى :

ـ ولكنى لا أحب هـذا الشخص ••• انه يشبه أبى شبها كبيرا •••

وصمتت مسز موراليز •• حتى عاد ديك ••• فسألته :

ـ متى أستطيع أن أرى ذلك الرجل ••• أمبو •••

فأجاب ديك وهو ينظر الى ساعته :

ـ لابد أنه قد استيقظ الآن •• انها الآن الخامسة تماما •• ولسوف ينهض على الفور •• لأنه مرتبط فى العمل بنوبة ليلية •••

فقالت مسز موراليز :

ـ أود أن أراه •••

شعر أمبو بشىء من الاضطراب لهذا اللقاء غير المنتظر مع مسز موراليز •• لقد رآها من قبل مرة أو مرتين عند صعودها السلم أو هبوطها منه •• ولكنها لم تلتفت اليه •• وقد تذكر أيضا أنه قابل ابنتها المدللة ، وحياها بقوله : « مساء الخير ••• » ولكنها لم ترد على تحيته •••• كان يعتقد حينذاك أنها لم تسمع تحيته ••• أما الآن فقد تأكد له أنها سمعته •••

ووضع أمبو يديه أمام عينيه •• ثم أسر فى نفسه ضحكة أوشكت أن تفلت منه •• وهو يرى يديه ترتعشان •• ثم قال لنفسه :

ـ أشياء كثيرة •• أحاول اخفاءها •• ولكن هاتين اليدين •• تفضحها دائما •••

لم تكن غرفة أمبو فسيحة •• وان كانت تكفى حاجته : ففيها سرير ومائدة للزينة ••• ثم فراغ يسمح له أن يمشى •• وأن يمد ذراعيه دون أن يلمس الجدران من كلتا الناحيتين •••

كان طلاء الغرفة جديدا •• وكان لونه الرمادى الفاتح يبعث الراحة فى النفس •• وعلى الجدران علقت صورتان صغيرتان : احداهما فوق مائدة الزينة ـ وهى صورة ملونة ليتدال بيزن •• فيها أشجار الكرز

المزهرة •• وفى خلفيتها يظهر النصب التذكارى لواشنطن ، والصـــورة الأخرى فوق مقدمة السرير •• بحيث يستطيع أمبو أن يراها عند استيقاظه ••• ويظهر فى هذه الصـــورة كوخ •• قائم فى أرض تحاصرها الثلوج ••• وعلى الجليد تبدو آثار أقدام •• لا تتجه الى وجهة معينة •••

تقع مائدة الزينة بجانب نافذة مطلة على الشارع الرابع ••• وعندما يجلس أمبو أمام المرآة تظهر لـــه ــ عبر مساحة من الأرض الخلاء ــ مجموعة من المبانى القديمـــة •• ألوانها كالحة •• وعلى أحجارها نقشت أشكال كئيبة •• طالمـــا تعجب أمبو لها ، وساءل نفســـه عن معناهـــا •• ذلك اذا كان لها أى معنى على الاطلاق ••••

وقد تناثرت أشياء كثيرة على مائدة الزينة : فهناك مشـــط وفرشاة •• وزجاجة خضراء بها كولونيا للحلاقة •• وبعض نقود معدنية مبعثرة هنا وهناك •• ومفك للمســـامير •• وأمبوبة معجون للأسنان •• بها التواءات وتجاعيد •• وفرشاة أسنان وضعت فى كوب فارغ •• والى جانبها صندوق لأدوات الحلاقة من الجلد الأسود الذى حال لونه •• وعلاه الغبار •• وقد تراكمت فيه الأشياء بغير نظام •• فرشاة حلاقة •• ومشط أسود •• وآلة معدنية للحلاقة •• ومجموعة من الشفرات المستعملة •• وضعت فى أغلفتها الحمراء والزرقاء •••

فتح أمبـــو خزانة صغيرة ثم أخرج منها روب حمام ••• وكان بالخزانة بذلة زرقاء وأخرى رمادية •• ومجموعة من القمصان المتسخة •• معلقة على حمالات كثيرة •• اكتظت بداخل الخزانة •• وتدلت من فوق الرأس سلسلة •• تعمل كزر كهربائى متصل بلمبة خربة لا تضىء •••

كانت الخزانة من الداخل معتمة مهلهلة •• وقد وضعت على قاعدتها حقيبتان قديمتان من الجلد •• تدلت منهما أحزمتهما •• مبعثرة كيفما اتفق •••

غادر أمبو غرفته متجها الى الحمام وهو يفكر قائلا لنفسه :

ـ ماذا لو أننى اضطررت الى البحث عن غرفة أخرى •• ترى هل تتسع هاتان الحقيبتان لكل أمتعتى ••

وفى هذه اللحظة سمع ديك باب الغرفة وهو يفتح ، فنادى على أمبو وهو فى مجلسه من حجرة المعيشة :

ـ أمبو ••••

وأجابه أمبو وهو يغلق باب الحمام على نفسه :

ـ نعم •••

وبعد قليل خرج أمبو نظيفا منتعشا •• وقد ارتدى ثياب العمل •• ثم ذهب متجها الى حجرة المعيشة ••• فلما وصل هناك أضاء النور وهو يقول :

ـ لقد تأخرنا الوقت ••

فقال ديك وهو يقدمه الى ضيوفه :

ـ هذا مستر بابلو ايكارانجال •• ويدعوه أصدقاؤه باسم أمبو ••• وهذه مسز موراليز •• التى سوف تأخذ الشقة •• عندما أرحل فى الأسبوع القادم ••

وابتسمت مسز موراليز •• عندما رأت وجه أمبو مشرقا بالابتسام •• وكأنه مسرور لسبب ما ••• أما ديك فقد استأنف تقديم ضيوفه قائلا :

ـ وهذه الآنسة اميليا ••

فابتسم أمبو لمسز موراليز ، ثم سألها متعمدا أن يتهكم بابنتها :

ـ أهى أختك • ! ؟

وكان على وشك أن يضيف قوله : « بالله عليك •• خبرينى •• من منكما أكبر من الأخرى ••• لعمرى اننى أنظر اليكما •• فلا أستيطع أن أفرق •• ! » ولكنه أمسك عن الكلام •• لعله قد رأى أن الموقف

لا يحتمل هــذا التهكم •• خاصــة وأنهم فى بداية التعرف ••• وفــوق هذا •• فقد استقر عزمه على ألا يبقى فى هذه الشقة ••••

كانت اميليا تجلس على الكنبة •• بجوار النافذة •• تحدق فى وجه أمبو ، عندما أحست بما يقصــد من وراء كلماته ••• ولكن أمبو لم يستمر فى تهكمه •• وبدلا من ذلك •• جرى بينه وبين الآخرين حــوار بغــير هدف ما •• وظلت اميليا طوال الوقت فى صمت مطبق •• وهى قابعة فى مجلسها كنمرة متحفزة •••

قالت مسز موراليز :

— اننى أعرف لغة الفيسايا جيدا •• لقد كنت فى ايلو ايلو (١) •• لأعوام كثيرة •• وقد ولدت اميليا هناك •• انها أيضــا تعرف هــذه اللغة ••• أنا متأكدة من ذلك ••

فقال أمبو •• وقد انطلق يتحدث بلغته المحلية :

— أنا سعيد بهذا •• ولكنى تأخرت عن موعــدى فى العمل •• وبدا عليه الأسف •• ولكنه كان مضطرا الى الرحيل على الفور لذلك حاول أن يختصر الحوار فقال :

— ليس عندى أشياء كثيرة •• ولدى أصدقاء عديدون يمكن أن ألجأ اليهم ولن آخذ وقتا طويلا لكى أحزم أمتعتى وأرحل •• فقط •• أرجــو أن تحددوا لى اليوم الذى يناسبكم ••••

وتلفتت مسز موراليز الى ابنتها •• لا لتستشف من عينيها ما يدور فى خواطرها بشأن اقامة أمبو معهما •• ولكن لكى تحملها على قبول هذا الأمر •• وأحست اميليا بنظرات أمها •• فأشاحت بوجهها بعيدا •• وقد اعتراها شعور بالغضب ••• أما أمبو فقد اتجــه شطر الباب الخارجى وهــو يقول :

---

(١) ايلو ايلو : احدى المحافظات بالجزر الوسطى فى الفلبين .

— طاب مساؤكم •••

وكانت مسز موراليز قد قررت بينها وبين نفسها أمرا •• فأسرعت تعلنه الى أمبو وهى تقول :

— يمكنك أن تبقى هنا •• ذلك اذا كنت ترغب فى هـذا •••

وبقى أمبو فى الشقة •• لأنه كان يرغب فى ذلك •• حقا لقد لمس جفاء الابنة تجاهه •• ولكنه علل النفس برقة الأم التى أبدتها نحوه •• واعتقد أنها كفيلة بتعويضه عن هـذا الجفاء •• ولقد حـاول أن يبرر لنفسـه هـذا الموقف من جانب اميايا •• فلعلها حداثة السن •• التى تجعلها لا تميز بين ما يصح أن تقول ومالا ينبغى أن تقول ••• وعليه أن يكون لطيفا معها •• وألا يتعمد ايذاءها بالكلام بعد ذلك •• بل يجب أن يلاطفها ويتودد اليها ••• طبعا •• كان من الأيسر لـه أن يغادر المكان كمـا اعتزم أن يفعل •• فهو يستطيع أن يتحمل أجر غرفة أكثر اتساعا •• بل أجر شقة مستقلة •• ولكن كانت هنالك دوافع خفية فى أعماقه تحفزه على البقاء ••• ربمـا كان فى بقائه فرصة متاحة أن يعيش مع نساء من بنى وطنـه •• يستطيع أن يفهمهن ويتجـاوب معهن •• ففى الولايات المتحدة •• عدد قليل جـدا من الفلبينيات •• ولقد مضى عليه عهد طويل لم تكتحل عيناه بمرأى واحدة منهن ••

آخر مرة التقى فيها بفتاة فلبينيه كانت بالمستشفى •••• فقد سقط صريع المرض •• فى أحـد الأيام •• ونقل الى المستشفى •• وهناك رأى فتاة يلوح عليها أنها فلبينية •• كانت سمراء ••• ولها أسنان نانئه •• ولكنها عندما كانت تضحك •• لم تكن أسنانها تبدو قبيحة بأى حال ••• فلمـا رأته وقد أحضر الى المستشفى •• جاءت اليه — ثم سألته بلغة الوطن عما اذا كان يشعر بمرض شديد ؟ •• حقا •• لقد كانت فلبينية •• وقد عرفت أنه فلبينى مثلها ••• ياللعار •• كيف راوده الشك فى أمرها •• كيف لم يكن على يقين من أول لحظة أنها فلبينية ••• !

أراد أمبو أن يمسك بيدها •• ولكن كل ما فعله •• كل ما استطاع أن يفعله •• هـو أن يتطلع الى وجهها ••• وطافت برأســه المحموم صور وخيالات •• فرآها أخته •• ثم أمــه •• ثم حبيبته •• ثم تخيل أنها زوجته ساهرة على راحته •• تتحدث اليه بحب •• وأنه قد عاد الى أرض الوطن ••••••

وبدت وجوه الأخريات فى عينيه غير متميزة •• وسيطر عليه شعور بأنه قد عاد الى الوطن •• وأن شخصا ما ــ هذه الفتاة الفلبينية ــ قد أحبته •• وأنها سوف تتألم •• وسوف تبكيه اذا مات ••• وتذكر أمبو أنه قال لها : « اننى لست مريضا الى هــذا الحد ••• كما يبدو لك •• فقط هناك اضطراب ما فى جسمى •• لا أستطيع تحديده •• ولكنى سوف أتحسن سريعا •• فقالت الفتاة وهى تمر براحة يدها الناعمة على جبهته الملتهبة :

ــ أجل ••• سوف تتحسن سريعا •••

وهفهفت عليه منها •• رائحة جوز الهند •• وزهور الكاميا ••••

تماثل أمبو للشفاء •• فى بضعة أيام •• وسرت فيه روح جديدة •• شدته الى الحياة بقوة •• كان يريد أن يستمتع بحياته الباقية •• أن يقضى ما تبقى من العمر يتحــدث الى تلك الفتاة الفلبينية الرائعة ••• لكنه الآن •• وقد تماثل للشفاء •• لم يعد يراها فى أى مكان بالمستشفى •• فبين الممرضات اللائى يرتدين البياض لم يكن هنالك الوجه الأسمر •• وتلك العيون الســود العميقة •• فهل كانت مجرد خيالات محمومة •• ؟ ولكن لا ••• لقد كانت حقيقة •• لقد تحدثت اليــه ••

وفى آخر يوم له بالمستشفى •• أخذ يستفسر عنها :

ألم توجد هنا ممرضة من الفلبين ؟ •• كانت هنا •• لقد كانت ساحرة •• كانت موهوبة •• كان اسمها رميجيوس ريفيرا •••• كانت تجىء

اليه دائمـا لتراه •• ولكنه كان دائمـا مستغرقا فى النوم •• وكانت ترجوهم أن يهتموا برعاية ابن وطنها ••••

جاءت مس ريفيرا الى شيكاغو لتتخصص فى بعض فروع التمريض •• بعد أن حصلت على منحة دراسية فى مانيلا ••• هل تعرفون أين تقيم ؟ •• نعم •• انها تقيم فى بيت الشباب ••••

ظل أمبـو فترة من الوقت •• لا يجـد الجـرأة على أن يذهب لرؤيتها •• وكان يقول لنفسه : هل أكتب اليها •• ؟ ولكن لا •• فلو أننى فعلت هـذا لعرفت مقدار جهلى ••• وذهب الى بيت الشباب مرة أو مرتين •• ووجـد الشجاعة فى احدى المرات •• على أن يدخل بالفعل •• ولكنه أصيب بارتباك شـديد عندما وجـد نفسـه بين كثرة من الغرباء ، تبدو عليهم سيما الأناقة وحسن الهندام •• حتى أنه وجد نفسه يسرع خارجا من المكان دون أن يتمكن من رؤيتها ••• كل ما كان يرجوه •• هـو أن يشكرها •• ولكن حتى هذا لم يستطع أن يفعله ••• !

وفى مرة بعث اليها بزهور •• ثم انتظر الأيام التالية على أحر من الجمر •• وهو يأمل أن تبعث اليه بافادة ما ••• ولكنه لم يتلق منها أى رد •• أوه •••• كم من الأشياء الغبية فعلها بعد ذلك •• عندما كان ينتظر عند البوابة الرئيسية للبيت •• الساعات الطوال •• لكى يسترق منهـا نظرة واحـدة •• وعندما كان يسأل بعض الأشخاص ليكتبوا لـه خطابا اليها يشكرها فيـه •• ويدعوها أن تصحبه فى زيارة للمدينة ••

كان يريد من أعماقه أن يفعل أى شىء •• يعبر لها به عن امتنانه وشكره ، على ما منحته من حنان قلبها ورقتها •• فهل هناك خطأ فى أن يكون الانسـان معترفا بالجميل •• ! ؟ لم يا ترى لم تبعث اليه بمـا يطمئنه على وصـول خطاباته وزهوره ! ؟ وعندما وقف ذات يوم أمـام الباب مبتسما لها •• لمـاذا لم تتوقف لتتحدث اليه ؟ •• كل ما فعلته أنها ابتسمت •• ثم مضت الى حال سبيلها •• وقد أحاط بها جمع من

الشبان المهندمين يثرثرون معها ، وبعض فتيات شرقيات كان السقم باديا عليهن ••••

وبعد انتظار طويل تلقى منها خطابا •• قالت فيه : « أشكرك على هــذا الاهتمام •• انك لاتدين لى بشىء من الفضل •• ولقد سررت لأنك برئت من مرضك •• وأصبحت قادرا على العمــل •• اننى جــد آسفة •• لكثرة مشاغلى •• فليس عندى متسع من الوقت لزيارة شيكاغو معك •• وسوف أرحل بعد أيام قليلة •• ولا أدرى متى يمكننى أن أرى شيكاغو مرة أخرى •• ومرة أخرى ألف شكر •• » •

وحاول أمبو عبثا أن يراها •• حتى أنه استجمع شجاعته أكثر من مرة ليتحــدث اليها بالتليفــون •• كانت يداه ترتجفان •• وقلبه يدق بعنف •• وهــو ينتظر صوتها على التليفون •• ولكنها •• كانت دائمــا فى الخــارج ••••

ثم بعث اليها مرة أخرى بزهور •••• ولكنها كانت قد رحلت عن المدينــة •• فعادت اليه الزهــور ••• وشعر يومها •• أنه على وشــك أن يبكى •••• واختفت الفتاة •• فلم يعد يراها ••

كان هناك اذن سبب لرغبته فى الاقامــة مع هــذه الأم الفلبينية وابنتها •••• رغم أنه كان من الأيسر له أن يذهب الى مكان آخر ••• وهــو أمر قد يبــدو مستحسنا ••• خاصــة بالنسبة لشخص مجروح مثله ••• فانه بذلك يستطيع أن يتجنب تجربة الألم المضنى التى كابدها من قبل •• وهــو ينتظر •• دون أمل •• ردا على خطاباته •• ويرى زهوره وهى تعاد اليــه •••••



اربعـــاء التراب

فى متجـر لبيع التحف القديمــة بشارع رود أيلاند •• يعمــل « هوراشيوتان » •• وقد وجد فى عمله ما يشغله شيئا ما عن التفكير فى مأساته التى تؤرق حياته ••

لقد بدأت زوجته « موريل » تدمن الشراب فى شهر يونيه الماضى ، أو على حــد قولها : عندما كانت تحتفل بنجاح الحلفاء فى الهبوط على ساحل « نورماندى » •• فمن ذلك الحين وهى تعاقر الخمر مع بعض الأصدقاء ••• كانت هذه بداية المأساة ••••

وخلال تلك الشهور المــاضية •• التى قاربت على السنة •• كانت تمر عليهما لحظات قليلة خالية من التوتر •• ولكن هذه اللحظات أخذت تتضاءل شيئا فشيئا ••

لقد أصبحت « موريل » تهمل رعاية ابنهما « ادى » ، والذى يبلغ من العمر خمس سنوات ، وكان يحتاج الى دواء لعلاج عينيه المقروحتين •• فلم يجد « تان » مفرا من أن يقوم وحده بالعناية بالطفل •• فقد كانت عيناه حمراوتان متورمتان ينز منهما سائل صديدى •••

كان « ادى » ــ فيما سبق ــ يحظى من بين أطفال الجيران بعناية كبيرة •• فقد اعتادت زوجات الفلبينيين من الأمريكيات ، أن يتركن أطفالهن يلعبون وقتا طويلا ، فى الأفنية الخلفية ، تحت حرارة الشمس •• حتى تتسخ أجسامهم وتمتلىء بالقروح •• فيما عدا ادى ••• ففى تلك الأيام كانت موريل تحسن رعايته •• كأن همها الوحيد فى الحياة نظافة ابنها •• وتنشئته نشأة صحية •••

كانت موريل فى ذلك الوقت امرأة رائعة •• لم تكن تقرب الشراب •• بل لم تكن تسمح لنفسها حتى بنقطة واحدة منه •• وعندما بدأت فى الشراب •• كانت لاتزال تتمتع بالكثير من سحرها لا سيما فى لحظات

صحوها •• حينمــا تسترد عيناها ذلك البريق الأخاذ ، وهى تضحك فى الظلام بدلال ، ضحكات جريئة واعــدة ••••

فى تلك الأيام لم يكن هناك ما هــو أجمــل من حبهما •• كان حبا قويا •• ولكنه أخذ يفتر حتى الموت ، ثم يرتد قويا مرة أخرى •• وظل هكذا يتذبذب بين الموت والحياة ••••

وعندما يكون الحب فى ذروته ، يشعران كأنهما الموجودان الوحيدان فى هــذا العالم ، وأن كل ما عداهما هباء •• ويحسان بأنهما قد أصبحا فى عالم من الصفاء والطهر •• عالم خلو من الألم •• لا يعكر صفوه ذكرى الآباء الذين لا يصفحون ، ولا قلوب الأمهات المحطمة ، ولا جفوة الأصدقاء •••

هــذا الحب أصبح الآن مجرد ذكرى •• لم يبق منه غير الواقع الأليم ••• كان عليه أحيانا أن يحملها من النادى وقد أغمى عليها ،ليذهب بها الى الفراش •• وبينما هــو يغير ثيابها كانت كل فتحة من مســام بشرتها البيضاء الجميلة تنضح رائحة كريهة •• يختلط بها العرق مــع الويسكى •• فتملأ جــو الغرفة كله •• حتى أن « ادى » الصغير كان يتقلب فى فراشـــه متأذيا من الرائحة كأنها مرض جلدى •••

أصبح « تان » يفضل البقاء فى متجر التحف ، رغم أن الهواء فيه •• حتى فى أيام الربيع •• كان مثقلا برائحة الأشياء العتيقة ، التى مضت عليها قرون •• تحف قديمــة معروضة خلف واجهات زجاجية •• حال لونها بفعل الزمن •• فلم يعد لها من رونق ســوى ما يتمثل فى خاماتها من العاج أو الأحجار الكريمة ••

كانت ملامح « تان » صينية خالصة ، فيما عدا شفتيه « الملاييزيتين » الرقيقتين ، اللتين تشبهان شفتى أمــه •• وان لم تكونا فى مثل رقتهما •• كان يبــدو من هيئته وكأنه خلق لتلك الوظيفة •••• كان يبيع آلهة صغيرة

منبعجة •• لها سرة بارزة •• وتماثيل أخرى للعذارى صنعت من العاج ومن الأحجار الكريمة ••

لم يكن معه فى المتجر سوى شخص واحد •• هو مستر « شميت » •• صاحب المتجر •• وهو رجل عجـوز أصلع ••لــه نظارة بغير اطار •• كان يقضى معظم الوقت فى حجرة صغيرة داخلية تحجبها عن المتجر ستارة مسدلة •• لا يعرف أحـد حقيقة لونها •• وهنالك كان يمكث النهار كله مكبا على كتلة من الخشب يدق عليها ويصلح التماثيل •

كان عملاء المتجر من سكان واشنطن قلة نادرة •• فأغلبهم من الضيوف الذين يأتون الى العاصمة من شتى الجهات •• منهم من جـاء لزيارة ابنه •• أو قريب لــه من موظفى البنتاجـون •• ومهم ضباط جاءوا من دول مختلفة •• وجنود من كل لون فى ثيابهم العسـكرية •• ونساء شابات تبدو عليهن آثار النعمة ، ويتمتعن بصحة الأجسام ، كأنهن عرائس فى يوم الزفاف •• لم يمارسن مكاره الوحدة بعد ••• ولم يصبن بمآسى الحروب •• أما رواد المتجر من السيدات الأكبر سنا فيتميزن بما يثقلهن من فراء وفير ، وبما يظهر فى أعناقهن من غضون •• يقتربن من واجهة المتجـر ثم يبرزن أكفهن وقـد اكتست بالقفازات البيضـاء والسوداء •• ويشرن الى تماثيل العاج فى استطلاع تشوبه الكبرياء ••

كن يصوبن الى « تان » نظرات فيها جرأة المرأة الناضجة التى بلغت الثلاثين أو تجاوزتها ••• سنوات من العمر ربمـا كانت مثيرة مليئة بالخبرات •• وربما كانت سنواته فارغة ، بها توق أبدى الى الامتلاء •

كانت أول مرة رأته فيها « موريل » •• فى حفل الطلبة الأجانب التى أقامها النادى الدولى بجامعة بوسطن •• لطالمـا ذكرته بذلك اليوم فكانت تقول : « لقد ظننت يومها أننى فى « شانجرى » •• أو فى احدى المناطق الأخرى بين جبال هملايا ••• كانت الفتيات الأجنبيات كالأميرات •• والفتيان كالأمراء •• أما أنت يا حبيبى فكنت تقف بين الجميع ممشوق

القوام •• بادى الأناقة •• بل كنت أكثر أناقة من أى شاب رأيته من قبل •• وظللت أتأملك حتى تنبهت الى •••• أليس كذلك ؟ •• وعندما ابتسمت الى خيل لى ساعتها أننى أوشكت على الاغماء ••• حبيبى ••• لا تبتسم هذه الابتسامة مرة أخرى •• هـــه •• حتى ولا لزبائنك فى المحل •• والاطلبن شراءك ••• ! » •

ليس لموريل أن تقلق عليه الآن فلم يعد فى حياته ما يحفز علـــى الابتسام ••• وأصبح عليه أن يصبر على مداعبات الســيدات اللائى يمنحنه من الاهتمام أكثر مما يمنحن الأشياء التى يبيعها •••

كان يغلب على أمره أحيانا فيبتسم ربمــا بسبب الأفكار المضحكة التى تعشش فى رءوس بعض السيدات المسنات عن بلاد الشرق •••

وفى بعض الأحيان كان يرى سيدات أنيقات وفى صحبتهن أطفال صغار فى مثل عمر « ادى » ••• لهم نفس صوته الرفيع وفى عيونهم تلك الدهشـــة المثيرة •• ولكن ثيابهم مهندمة •• وبشرتهم تبدو نظيفة لامعة •• فيشعر بالأسى والحزن على ادى الذى يحبه •• وتملأ الدموع مآقيه ، وهو يتذكر ما يلاقيه من اهمال ••••

ترى هل كان يجب عليه — منذ البداية — أن يعرف أنهما لن يجنيا من حياتهما المشتركة ســوى العذاب •• وأن الشقاء هــو الثمن الدائم الذى كان عليهما أن يدفعاه من أجل حبهما — عندما تجاهل تلك الحقيقة الرهيبة : غضب والدموريل •• ولعنة أمها •• والاحتقار الصامت من جانب اخوتها •••• !

عندما ولد ادى اقترحت موريل أن تسميه باسم أبيها •• وكانت تقول : « انه يشبه أبى الى حــد بعيد •• وقد يغير أبى رأيه •• ويأخذنا عنده ••• ويكفون عن الكلام المهين ••• وقد يحبوننا كما نحبهم • » •

أمــا « تان » فقد كان يضمر الشك فى نفســه •• ومع ذلك طاوعها •• وذهبا معا لزيارة الأسرة ، عندمــا أصبحت موريل قادرة على مغادرة

البيت •••• وهناك كان الاستقبال فاترا ••• لا صيحات فرح ، ولاعبارات ترحيب ، ولا عواطف ••• وانمـــا غضب مكظوم •• ارتسم فى وجـــه الوالدين اللذين لم يعرف الصفح طريقه الى قلبيهما ••••

لن ينسى تان تلك النظرة المنسحقة فى عينى موريل ، وقد راحت تمتص جانبا من فمها المرتعش الذى تراقصت عليه ابتسامة كئيبة ••• ثم بدأت الدموع تنهمر على خديها فى صمت أليم ••• ورآها تان موشكة على الاغماء •• فأسرع يأخـــذ الطفل من بين ذراعيها ، ويسندها وهى تنهض معتزمة الرحيل •

لم تكن فى حاجة الى ايضاح •• ولكن لم يشأ أبوها مع ذلك الا أن يؤكد لها الموقف دون مواربة فقال :

— « أرجو ألا تحاولى زيارتنا مرة أخرى •• أود أن يكون هـــذا واضحا ان وجودك هنا غير مرغوب فيه ••• كما أننا مشغولون » •

ولم تدعه يكمل بقية الحديث فقد انطلقت هاربة من وجهه •••••

ومرضت « موريل » حتى أشرفت على الموت •• وبذل « تان » كل جهده فى العناية بها وبالطفل ••• وكان يحس فى قرارة نفســـه أنه قد أخطأ منذ البداية •• واذا كان هناك من يستحق اللوم فلن يكون أحـــد ســـواه •• ! كان يعمل ذلك الوقت فى نوبات المساء •• وكان يتعذر عليه النوم حتى فى أثناء النهار •• فقد كان مشغولا طوال الوقت •• يغسل حاجات الطفل وحاجاتها •• وينظف الطفل وأمـــه •• ويطهو الطعام •• ويكوى الملابس وينظم البيت ••• وفى بعض الأحيان كان يلمح عينيها وهى تتابعه •• وقد تناديه أن يأتى ليجلس الى جانب سريرها ، ثم تتناول يده وتضغط بها على وجنتها •• وتتحدث بكلام حزين •• وترجوه أن يعطى نفســـه بعض الراحة •• وألا يجهد نفســـه الى هذا الحد المضنى •• وتعده بأنها سوف تنهض سريعا من مرضها •• لكى تحمـــل عنه هـــذه الأعباء •••

وعندما شفيت موريل ، بدت ألطف من أى وقت مضى •• حقا •• كان فى قلبها جراح •• ولكنها احتفظت بها لنفسها •• وأخذت تعنى بادى وتان •• وتحسنت حياتهما الزوجية •• ولكنهما قررا مغادرة بوسطن ، عندما تأكد لهما أن الحياة فى واشنطن أكثر توفيقا بالنسبة للفلبينيين ، مع زوجاتهم الأمريكيات البيض •• وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك تلك الوظيفة المتاحة •• كما أن القلق من استدعاء الجيش لتان قد تلاشى ، بعد أن علم أن هـذا الاستدعاء لن يتحقق •••

وفى واشنطن شعرا بكثير من الارتياح •• فقد كان لهما هناك جيران يستحقون هذا الاسم بجدارة •• كانوا يتبادلون معهم الزيارات ويأخذون أطفالهم معهم •• ويلعبون الورق معـا •• ويرقصـون •• ويتناولون الشراب ••••

وعرفت موريل السكر لأول مرة •• وعربدت يومها بطريقة لفتت اليها الأنظار ••• فقد أخذت تطلق الكلمات بغير حسـاب •• وتدعو كل فلبينى على مشهد من الجميع : يا حبيبى ••• وكل غلام فى زيه الرسمى : يا بطلى •••• أما الكلام التى تفوهت به عندما أعادها تان الى البيت ، فقد حطم قلبه تماما •• كمـا لم يفعل ذلك شىء من قبل ••• حتى ولا تلك الزيارة التعيسة الى منزل أبويها بشارع كونكورد أفنيو فى بوسطن ••• ظلت موريل فى غرفتها تصرخ وتقهقه وتجذبه من ثيابه ••• بينما هـو يهتز من أعماقه •• كأنه سفينة استسلمت للأمواج العاتية فى بحـر هائج •••• لم تستطع أن تقهر آلامها الدفينة •• والآن تنكشف جراحها مرة واحـدة •• وها هو يرى زوجته أمامه وقد تحطم عقلها ••• ولم يعـد فى نفسـه شك فى أن ارتباطهما بالزواج كان هـو مصـدر ذلك الشقاء كله •••

عادت اليها تلك الابتسامة البشعة تتراقص على فمها المرتعش •• وقد انتصبت قائمة على فراشها ، وهى تصيح وكأنها تخطب فى جمهور من الناس :

« نعم ••• هذا ما سأفعله عندما تتوفر معى النقود •• سأشترى خمس أو عشر دقائق من وقت الاذاعة •• وسوف أذيع حديثا ، موجها الى ذلك الجزء من شارع كونكورد أفينيو ، حيث ولدت ، حيث يعيش أهلى ، وجميع أصدقائى ، أصدقائى السابقين ، الذين لا يزالون على قيد الحياة •• ولســوف أقول :

أحييكم أيها الأهل ، أنا « موريل » •• « موريل ستون » التى هربت من المدرســة لتتزوج من شاب فلبينى •• (انه أنت طبعا يا حبيبى •• قبلنى •• قبلنى يا حبيبى ••) هــذه هى الفتاة التى ألقيتم بها فى عرض الطريق ، التى طردها أهلها من حياتهم الى الأبد •••• هذه موريل التى كنتم تدعون ـ فيما مضى ـ أنكم تحبونها ••• وكان كل واحــد منكم يتمنى أن يذهب معها للتزحلق ، عندما تتحول الثلوج الى جليد •• فى الميادين وفى الأماكن العامة •••• والتى حضرتم معها لأول مرة الاحتفالات بالملابس الطويلة المزينة بالأشرطة ••• أما زلتم تتذكرون الكورساج ، واليد الصغيرة المهتزة التى كانت تحاول تثبيته فى موضعه ؟ والأسرار الصغيرة الخاصــة ، التى كنا نتبادلها فى حجرات المعيشــة ، وعلى موائد الطعام فى المدرســة ! ؟ •••• لقد ماتت موريل مع هذه الذكريات ••• ماتت بالنسبة لكم •• رغم الأشياء النبيلة التى كنا نتحدث عنها فى حجرات الدراسة بالجامعة ••• هل تذكرون ! ؟ ماتت رغم المثل العليا التى كنا ننادى بها ونعتنقها ، فى اجتماعاتنا بالنادى الدولى ، وفى مؤتمراتنا ضد العنصرية ••• ! تلك النظريات الرائعة أوه ••• يا لكم من شعب رائع ••! هذه موريل بلحمها ودمها •• موريل التى خطت خطوة واحــدة لتحقق نظرياتكم •• انظروا الآن كيف أصبحت •• ! لقد أصبحت كلبة مشئومة •• شكرا لكم يا أصدقائى الأعزاء فى شارع كونكورد أفينيو ••• شــكرا لكم جميعا يا أبناء الكلبات وشكرا لجميع الكلبات التعسات •••• »

صعد اليها تان ، فتهاوت بين ذراعيه وهى تجهش بالبكاء •• فلمـا فتحت عينيها ورأته أنشبت أظافرها فى وجهه ثم بصقت عليه وهى تقول باشمئزاز بالغ : « وأنت أيضا ••• أنت •• » •

كان فمها يمتلىء بالزبد ، وهو لا يكف عن الارتعاش •• ولكنها سرعان ما أن هدأت بين ذراعيه ، وقد نال منها الاجهاد كل منال •• وظلت تحـدق فيـه دون أن تراه •• كـان واثقا مـن ذلك •• فلم يكن فى عينيها شعـاع من ضياء •• ثم لم تلبث أن راحت فى سبات عميق •• وتكررت بعد ذلك هذه المواقف •• وكان تان يحس بأنه مسئول عمـا أصابها من انهيار •• وقد حاول أن يهدىء من روعها ويفتح لها بابا من الأمل فقال لها ذات مرة : ربما نستطيع عندما تنتهى الحرب أن نذهب الى الفلبين •• لنعيش هناك بقية عمرنا ••• وسيكون ادى هناك فى خير حال » •

وفى مرة أخرى طلب اليها أن تطلقه لكى تعود الى أهلها •• وأكد لها أنه يفعل ذلك من أجلها ، وأنه لايزال على عهده بحبها ، بل انه يحبها هى وادى أكثر من أى مخلوق على وجه الأرض •• ولكنها نهرته قائلة :

ــ كلا •• كلا •• لا أحتمل العيش بدونك يا حبيبى •• سأموت اذا فقدتك •• كلا •• كلا •• لا تبعدنى عنك •••

وبعد ذلك انتحت ركنا منعزلا وعكفت على الشراب ••••

وعاد تان من عمله فى احدى الليالى فلم يعثر لها على أثر فى البيت •• لا هى ولا ادى ••• فذهب يبحث عنهما فى النادى ••• ورآها هناك تترنح من السكر فى حلبة الرقص •• وفى يدها كأس من الويسكى •• وهى تغنى •• وقد تعلق بها ادى •• ووجهه يكاد يتفجر بالدموع ••••

كانت هذه الخواطر تدور فى عقل تان •• وتذيب قلبه أسى وحسرة •• وحل المساء وهو لا يزال فى متجر التحف •• ولكنه لا يجد فى نفسه رغبة فى العودة الى البيت ••• كان يود لو يبقى بين تلك الآلهة المنسقة ذات الوجوه الجادة •• والعيون المنطفئة ••• لقد أصبح عمله بالنسبة له •• نوعا من الهروب من واقع حياته العائلية المنهارة ••• حقا •• لقد تنازعه رغبة ما فى أن يعود الى البيت ليطفىء شوقه الى ادى وموريل ••• ولكن ماذا لو أنه وجدها ثملة مرة أخرى ! •••

خرج مستر شميت من حجرته ليريه شرخا على صدر أميرة صينية •• فقال له وهو يعطيه التمثال الصغير :

— هل تستطيع أن ترى ذلك الشرخ •• ؟

وفحص تان التمثال جيدا •• ثم وضعه تحت ضوء المصباح •• وأخيرا هز رأسه بالنفى •••

فقال مستر شميت : « أمرر اصبعك عليه •• فبهذه الطريقة اكتشفته فى أول الأمر ••• ولكن ينبغى أن تكون حساسا لهذه الأشياء ••• والا فلن تلاحظ ذلك على الاطلاق • »

ومر « تان » باصبعه على الموضع ، محاولا جهده أن يتحسس ذلك الشرخ •• ولكن كلا ••• لقد بدا ناعما تحت اصبعه ••• وقال الرجل العجوز وهو يضع التمثال تحت عدسة مكبرة :

— لا تنزعج ••• سوف تكون لك أصابع حساسة •• قد يستلزم هذا بعض الوقت •• ولكنك سوف تتعلم •• سوف تعرف •• انظر اليه الآن ؟

وانحنى تان ينظر من خلال العدســة وقد اعترته دهشــة كبيرة ٠٠٠ كان مستر شميت لايزال يوجه الحديث الى تان عندما فتح الباب ودخلت أسرة شابة ٠٠ قال :

ــ فى الوقت المناسب ٠٠ لن تحتاج الى عدســة مكبرة لكى تدلك على موضع الشرخ ٠٠ انه عادة يحدث حول الرأس ، أو حول القلب ، كما ترى فى هذه الحالــة ٠٠٠٠

والتفت تان للأسرة القادمة وهو يبتسم ٠٠٠ ولا يدرى من أى مكان جاءه ذلك الصوت الرقيق : « حبيبى ٠٠ لا تبتسم أبدا هكذا مرة أخرى ٠٠ حتى ولا لعملائك فى المحل ٠٠ فقد يطلبون شراءك » ٠

وعاد يبتسم مرة أخرى وهو يقول لنفسه : أى مغنم آخر يمكن أن يأتينى من وراء تلك الابتسامة ٠٠ !!

قالت المرأة الشابة لرفيقها وهما ينظران الى تمثال أســود اللون : « لابد أنه غالى الثمن ٠ » وتنبه تان على هذا الصوت الذى طرق أذنه ٠٠ فلمــا نظر الى وجه صاحبته لمح عليه بقعة ســوداء ٠٠٠ وتذكر ما رآه فى ذلك الصباح عندما جاء الى المتجر سيدات على وجه كل منهن خمار ٠٠ فرأى تلك البقعة الســوداء ٠٠ وظنها مجرد زينة على الخمار ٠٠ ولكنه الآن قد عرف ، انها بقعة من التراب ٠٠ فاليوم هــو « أربعاء التراب » ٠٠ وليس لــه أن يعجب ، كما فعل ، حينما رأى جمهورا كبير من الناس وقد احتشدوا ، على غير عادة ، فى الطريق أمام كنيسة « سانت ماتيو » ٠٠

أربعاء التراب ٠٠ أول أيام الصوم الكبير ٠٠٠ هــذا اليوم كان يحمل اليه ذكريات الصيام والصــلاة ، وعبارات من كلام كان يحفظه منذ الصغر ٠٠ ولايزال حتى اليوم ٠٠ لا يدرك معناه بوضوح ٠٠٠٠

أغلق « تان » المتجر فى وقت متأخر من الليل ، ثم توجــه الى أحــد المطاعم وتناول عشــاءه متمهلا ٠٠٠ لم يكن يتعجل العودة الى البيت ٠٠٠ لعل موريل لم تفكر فى انتظاره على العشاء ٠٠ بل لعلها لا تكون قد عادت

بعد من الخارج •• وربما كان ادى يجرى الآن خلفها وهو يبكى •••• وتلكأ « تان » أمام صورة ضخمة من صـــور الحرب •• فيها عدد من القتلى رجالا ونســـاء •• يبدو أنهم من الفلاحين ••• كانت أحذيتهم مغموســـة فى الطين •• وثيابهم خشنة مهلهلة ••• كأنها زكائب تدلت من المشانق ••• وقد كتب على الصورة بحروف ضخمة : « اشتر سندات الحرب » ••

وعندما وصل الى البيت ، وأخـــذ يتلمس قفل الباب بمفتاحه فى الظلام ، أحس بشىء غريب •• سرعان ما تبينه •• وعرف أن موريل قد فعلتها مرة أخرى ••••

فلمـــا فتح الباب اندفعت الى خياشيمه رائحـــة الخمر ، مختلطة بالعرق ودخان السجائر •• وشعر فى رأسه بدوار كأنه قد تلقى لطمة على وجهه •••• كانت مصاريع النوافذ مغلقة ••• ولمح فى ركن من حجرة المعيشـــة لمبة تلقى ضـــوءا خافتا على المكان •••• وفجأة انفتح باب الحمام وبرزت منه موريل يتبعها ادى ، الذى كانت تمسك به فى احدى يديها ، وتحمل فى يدها الأخرى منفضة سجاير •••• بدت شبه عارية تقريبا ، الا من بلوزة رقيقة مفتوحة الصدر ، وبنطلون قصير •• وكانت تغنى •••

لم يكد ادى يرى أباه حتى اندفع اليه وهو يصيح : بابا •• وحاولت موريل الامساك به ، ولكنه أفلت منها وأصبح بين ذراعى أبيه ••• وصاح الطفل مرة ثانية وهـــو يقول :

— بابا ••• بابا ••• أمى أصبحت مريضة •• مرة أخرى •••

وتقدمت موريل نحوهما تدندن بأغنية حمقاء ، وتترنح فى مشيتها ، ثم أخذت بيدها الفارغة تصنع دوائر فى الهواء •••• كان شعرهـــا المشعث قد غطى جزءا من وجهها وعينيها ، فطرحته الى الخلف ، وعندئذ رأى تان وجهها فصاح وهـــو يندفع نحوها : حبيبتى •• حبيبتى ••

وتشبث به ادى .... كان وجه موريل ممتلئا ببصمات تراب كثيرة ... ولكن تان استطاع أن يرى فيه ، مـدى مالحق بها من اعياء .... لم تعد قادرة على أن تتمالك نفسها ، فسقطت منها منفضة السجاير على الأرض ، وبينما تان يحاول أن يضم زوجته بذراعيه ، اذا بها تتراجع الى الخلف لتلتقط المنفضة ... ثم تدفع اصبعها بداخلها ... وأخذت ترسم علامة الصليب وهى تتمتم بكلمات : « تذكر أيها الانسان أنك من تراب ، وأنك الى التراب تعود . »

وصرخ ادى قائلا :

— بابا .... كانت تقول هذا ... طول اليوم .

والتفت تان فرأى تعبير الألم عميقا فى قسمات وجهه .. وعلـى جبهته كانت بصمات من تراب .. ثم اتجـه الى موريل واحتضنها بين ذراعيه ، ثم قال وهو ينشج بالبكاء :

— موريل .. موريل ... حبيبتى ....

واختلج جسـدها بين يديه ... وأوشكت أن تنطق بشىء ما .. ولكنها تجشأت وألقت ما فى جوفها مرة واحدة ... فتجمع ما اندفق منها فى بركة صغيرة على السجادة .. بينما سال بعضه من ذقنها الى صدرها .... وتلوثت أذرع تان .. أما ادى فقد جرى الى الحمام وعاد بقطعـة من القماش لينظف السجادة ... ونظر تان الى زوجته وهى مسجاة بين ذراعيه ، فرآها تغمض عينيها .. ثم تراخت عنه تلك الأذرع البيضاء الرفيعة .. التى كانت تطوق عنقه وتلصقه بصدرها ...

أخذ يتأمل وجهها ... كان ممتقعا شديد الاصفرار .. تنتشر على صفحته بقع سوداء ... وكانت الدموع تنساب من العينين المغمضتين ... وما هى الا لحظات حتى بدأ جسدها يضطرب بين ساعديه ... وأحس

بنشيج مكتوم يصدر عنها •• يشبه نشيج الأطفال عندما يحلمون فى نومهم بالساحرات والغيلان يطاردونهم فى الغابات ••••

وتحول تان الى ابنه يقول له :

ـ أيها الابن الطيب ادى ••• أنت وأنا علينا أن نعتنى بماما •• أليس كذلك ؟ ••• اذهب الآن وأحضر لها منامة من الدولاب •• ثم سخن قليلا من المــاء •• بينما أذهب أنا وأضعها فى الفراش •••

وشرع ادى يســاعد أباه ••• وأراد تان أن يعرف ما اذا كانا قد تناولا الطعام •• فسأل ادى ، الذى أجاب قائلا :

ـ كانت ماما ترغب فى انتظارك •• ولكنى كنت جائعا ••• ومالبث الطفل الا قليلا حتى قال :

ـ بابا ••• أنا أحس بالنعاس الآن ••

فقال له أبوه :

انتظر يا بنى قليلا حتى أساعد أمك ••

ثم وضع منشفة فى ماء دافىء •• وبدأ ينظف وجهها ••• لم تفق موريل ••• ولكن عادت بشرتها تتورد من جديد •• وان لم تزل رائحــة الكحول تنضح منها •••• كانت باردة رقيقة كأنها بشرة طفل •••• ياللك من زوجة جميلة ••• كنت لطيفة من قبل ••• وكنت حلــوة ••• كنت تضحكين فى الظلام •• ولم تكن هناك آلام ••• !

كانت صدريتها لازجة من العرق ولها رائحة نفاذة •• فخلعها •• ثم أدارها ناحية الجدار وألبسها منامتها •• ثم نشر عليها الغطاء •••• وكان ادى يرقب هــذا صامتا •• فلمــا فرغ تان من مهمته ، وضــع ملابسها فى حوض به ماء ••• فتعكر بلون قاتم ، كأنه الطين ••• ثم ذهب الى المطبخ ، وعاد بمــاء دافىء جديد لابنه ••• وبينما هو ينظف ادى لاحظ نعومة بشرته ولونها الوردى كبشرة أمــه •• وكانت موريل

تغط فى نوم عميق ••• وتواردت على رأسـه خواطر •••• غدا يصبح شابا ••• ستكون طويل القامة يا ادى ••• أبيض اللون ••• وسـوف تكون محبوبا •• ولن تكون هناك آلام ••• وربمـا لن تكون هناك ذكريات ما عن بابا ••• من يدرى •••• !

ذهب الاحمرار الذى كان فى عينى ادى •• وقال انه لم يعد يتألم منهما ••• فساعده أبوه على ارتداء بيجامته وهو يقول له :

— هل تريد أن أحكى لك قصة يا ادى ؟

فأجاب الطفل وهو يتثاءب :

— كانت ماما تحكى لى واحدة •• ولكنها لم تعجبنى •• وقد ظلت تقول ما الذى أخر بابا هكذا •• ولم أفهم قصتها •• كانت عن أناس يغضبون الله •• ثم يتوبون •••

وتثاءب الطفل مرة ثانية فقبله تان على خده وهو يهمس له :

— طبت مسـاء يا ادى ••

لم تتقلب موريل فى فراشها •• فشرع تان يخلع ثيابه ••• وفيما هـو كذلك خطر لـه ما سوف يبديه مستر شميت من تعجب عندما يجده من الآن فصاعدا ، يهتم بالعودة الى البيت فى وقت مبكر على غير عادته •• أوه ••• انه يستطيع أن ينتحل المعاذير ••• لا فائدة من الهرب •• فلابد أن نعود جميعا فى النهاية الى البيت بعد انتهاء العمل ••• فليكن ذلك مبكرا ••• ! فموريل وادى الآن يحتاجان اليه ••• أما الآلهة الصغيرة ، وتلك العذارى الأنيقات ذوات القلوب المشروخة ، فلا حاجة بها اليه •••

— بابا •••

وتنبه تان على صوت ناعم يشوبه النعاس :

— ما هى الكفارة •• يا بابا •• فى قصة ماما ••• ؟

وعاد الصوت من حيث أتى •• واهنا كأطياف المنام •••

* * *

هكذا بدأت الحرب

مطعم بدرو ٠٠ دكان صغير يقع خلف صالون حلاقـة ، وصالـة بلياردو ٠٠ ينخفض درجتين عن مستوى شارعى ٦٥ وبرودواى ٠٠ فى كل مساء نجتمع فى هـذا المكان ٠٠ جائعين متعبين ٠٠ حيث تتصاعد روائح الأكلات الوطنية ٠٠ من بصل محمر ٠٠ وثوم ٠٠ وفراخ مشوية ٠٠ وغيرها من الأطعمة التى تثير شهيتنا أكثر من أى شىء آخر ٠٠٠

وهكذا يبدأ عذاب بدرو وهو يعد طلباتنا العاجلة ٠٠ بينما زوجته الأمريكية البدينة تقوم على خدمتنا ٠٠ رائحة غادية ٠٠ تلقى بابتساماتها للجميع ٠٠٠ ويعمد الفتيان الى التهكم بها فيتساءلون :

— لأى شىء تبتسمين ياهيلين ؟ فيرد آخرون بقولهم :

— يقال انك تبتسمين لأن فى وجنتيك غمازات ٠٠٠ أم تفعلين هـذا لأنك ترينا نثير الضحك ٠٠ هه ؟

ولكن هيلين لا تأبه بذلك ٠٠٠ وانمـا تمضى فى عملها متنقلة من منضدة لأخرى ٠٠ ناعمة البال ٠٠ بادية الضخامة ٠٠ لا تفارق الابتسامة شفتيها ٠٠ بينما هى تنطق أسماء أطباقنا الوطنية بطريقة شائقة ٠٠

وفى يوم من أيام الأحد ٠٠ وكنا لانزال على طعامنا ٠٠ نتحـدث كعادتنا بأصوات مرتفعة ٠٠ حينما أعلن الراديو فجأة أن اليابانيين قد انقضـوا على بيرل هاربر ٠٠٠ غير أن الضجة لم تنقطع ٠٠ واستمرت الكلمات بل الضحكات تتردد فى أنحاء المكان ٠٠٠ فكثير من الفتيان لم يستمع بعد الى هذا النبأ ٠٠ ولمـا كنت أريد المزيد من التفاصيل عن الحادث فاننى أخذت أحاول البحث عن محطة أخرى فى الراديو ٠٠ مما أثار احتجاج أحـد الفتيان الذى صاح قائلا :

— لا تعبث بالراديو ٠٠ فأنا أريد أن أستمع الى المباريات ٠

كان الفتيان فى حجرة البلياردو مايزالون يواصلون اللعب •• وكانت أصواتهم ترتفع من حين الى حين كلما أخطأت الكرات أهدافها •• ولكن سرعان ما عرف الجميع الأنباء السيئة فتوقف اللعب •• وهدأ المكان •• وتجمع الفتيان حول الراديو يتساءلون عما حدث •• فأشار اليهم الفتيان الآخرون الذين استغرقهم الانصات ، أن يصمتوا ويستمعوا مثلهم •

وانقسم الفتيان الى فريقين : فبعضهم كان يريد مزيدا من الأنباء عن الحدث ، بينما البعض الآخر لم يبد أى اهتمام بالموضـــوع فكان يقـــول :

ــ فيم هذا العناء •• تعالوا نواصل اللعب •• ماذا نستطيع نحن أن نفعل أمام هذه الكوارث •• اننا لا نستطيع ردها مهما فعلنا •• وهكذا عادوا مرة أخـــرى الى حجرة البلياردو •• يستأنفون صياحهم كأنهم فى حلبة سباق •

وفى وقت متأخـــر من الليل أعلن الراديو أن الفلبين قـــد ضربت بالقنابل ••• وهنا ألقى الفتيان عصى البلياردو من أيديهم •• وأخذوا يتجمعون فى مطعم بدرو صامتين •• وكان صمتهم فى هذه المرة صمتا حقيقيا •••• جلس بعضهم مشدوها •• وظل بعضهم الآخر يذرعـــون المكان جيئة وذهابا •• ويلقون بسجائرهم قبل أن ينتهوا منها ثم يسحقونها بكعوب أحذيتهم فى عصبية ظاهرة ••

وفى تلك الأثناء احترقت أصابع بدرو من الحساء الساخن فنصحه راى بأن يدهنها بالزيت لكى تخف •• وأسرعت هيلين نحـــو زوجها وهى تقول بجزع : « دعنى أراها •• » ولكن بدرو دفعها بعيداً عنه بخشونة وهو يقول متبرما بها :

ــ اغرب عن وجهى ••

وأخذ يشق الهواء بأصابعه الملتهبة •• ويقترب من المجموعة التى أحاطت بالراديو •• بينما ينظر الى أصابعه الحمراء المتورمة ويصب

اللعنات •• لتحترق كل الأشياء الملعونة •• وظل الراديو يذيع ويذيع •• وخلال هـذا كانت هناك موسيقى خفيفة وأغنية تقول : لا أريد أن أحرق العالم •••

كان هذا ما حـدث فى ذلك الأحـد المشئوم •• نفر من الفتيان السمر •• بالحزن •• والوجوه المغبرة •• وخطوط الألم عميقة تحت العيون وحول الأفواه •• وعيون مذعورة طار صوابها •• كعيون الفرائس عندما يطاردها الصيادون •• وأصابع صفراء خشنة •• جفت من العمل الشـاق •• وتقرحت من الأطباق والأكواب الساخنة •• لقد قاسينا مرارة الحرمان خارج بلادنا ••

عشرة أعوام •• عشرين •• ثلاثين •• العمر كله ••• وها نحن حيارى يسأل بعضنا البعض الآخر : ترى أى المواقع أصيب أولا ؟ ماذا تظن •• ؟ مدينتى ؟ أبارى •• مانيلا •• ليجاز بى •• سيبو •• دافاو •• لينجاين ؟ أيها •• هيه ؟

وما الذى سيحدث لأبى العجوز •• وأمى •• وأختى لوسيا •• ما الذى سيحدث لها ؟ وأخى ••• لقد كان جنديا •• وكتب الى فى خطابه الشهر المـاضى يفخر بملابسـه العسكرية ••• ؟ ولينا •• تلك الفتاة التى هربت منها •• ما الذى سيحدث لها •• ولطفلنا الصغير ؟ •• وفجأة شعرت بأننى أحب لينا •• فجأة أحببت طفلنا •••

تناثرت أعقاب السجائر فى كل مكان ، وظل ما نويل يقلب أوراق اللعب بين يديه •• وهـو مايزال فى مجلسـه قريبا من حوض الغسيل •• ذاهلا عن سيجارته حتى أحرقت شفتيه •• فلمـا اقترب منه أحد الفتيان راغبا فى أن يشاركه اللعب صاح فى وجه قائلا :

ــ اغرب عن وجهى •••

وقلنا •• ربما كان ثملا ••• كان مسقط رأسه هـو أبارى •• وقد حملت الينا الأنباء أن اليابانيين قد خربوها •••

انقضى شطر كبير من الليل ونحن لانزال فى أماكننا لم نبرحها .. وقد خيل الينا أننا نستطيع تناول العشـاء .. ولكننا فقـدنا شهيتنا للطعام .. فلم نعد نشعر بأى جـوع ..

وسمعنا صوت بدرو يقول :

ــ اذهبو الى بيوتكم .. هيا اذهبو الآن الى بيوتكم .. والتفتنا اليه فاذا به فى ركن من المطبخ .. وقد تكوم فى مقعده كأنه قطعة من ثياب مهلهلة .. ولم نأبه لمـا قال .. وانمـا بقينا كما نحن .. فأهابت بنا هيلين قائلة :

ــ الآن يجب أن تعودوا الى بيوتكم .. هيا يا أولاد .. فسـوف أغلق الراديو ..

وانفجرنا فيها صائحين :

ــ أوه .. كلا .. لن تفعلى شيئا من هذا ..

ونظرت الينا المرأة مغلوبة على أمرها .. بينمـا جسمها الضخم يهوى فى مقعدها بسكون ...

وطلب الفتيان المتزوجون بالتليفون .. لكى يعودوا الى بيوتهم .. ولكنهم أصروا على البقـاء .. وبعـد منتصف الليل جـاءت زوجاتهم الأمريكيات .. فسحبت كل واحدة زوجها من ذراعه .. وهى تلاطفه وتربت عليه كأنه صبى صغير ..

وفى الصباح التالى التقت الزوجات فى السوق .. وأخـذت كل واحدة تروى ما حدث من زوجها بالأمس . فقالت احداهن :

ــ لقد ظل راى يهلوس طول الليل ..

فردت جين قائلة :

ــ ليس هذا بشىء .. لقد كان بيرت يولول طول الليل كأنه طفل

رضيع •• ولم أستطع اسكاته •• وهو يقــول لى : أنا لا أبكى •• أنا لا أبكى ••

مضحك ذلك البكاء •• بعد كل هذه الأعوام الطويلة •••• فعندما هربت من بلادى •• ونزلت فى فريسكو •• وأنا جائع مفلس •• لم يكن يراودنى البكاء •• كنت أعرف ما ينتظرنى •• وكنت أعمل حسابه •• شغل يقصم الظهور فى مزارع شتى : قطعت فيها الأخشاب •• وجمعت الخس •• وعملت فى تعليب الأغذية فى الاسكا •• وغسلت الأطباق فى شيكاغو وفى نيويورك ••••

وطوال هذه السنين كلها •• لم أكن أفكر فى وطنى الا قليلا ••• لم أكتب لأحــد •• لم يكن عندى ما أقوله •• وفجأة تفجــر الكلام فى نفسى •• ولكنه جاء متأخرا عن موعده •• وعلى نحو مفاجىء ••

الآن أتذكر بلادى وأحبائى •• الآن أشعر بالحب نحوهم جميعا •• وأتساءل فى نفسى : ترى ما هــو مصيرهم الآن •• هل ماتوا أم أنهم أحياء يقاسون العذاب ؟ لقد أصبح أمرهم الآن يشغل كل تفكيرى •••

لأول وهلة تذكرت شخصا ما كنت أكن له اعزازا خاصا •• وكان يبادلنى نفس الشعور •• انها أختى لوسيا التى بكت كثيرا وهى تودعنى عند الرحيل ••• ثم أبى وأمى التى لم أر دموعها •• وأخى الصغــير الشجاع •• « باودنج » الذى قال لى : انه سوف يهاجر مثلى الى أمريكا •• نعم كان هذا أول ما تذكرت فى وطنى •• وجوه الناس ولمسات الحب •• ثم بعد ذلك جــاء دور الأماكن التى كنت أعرفها •• لقد سرت كثيرا فى شوارع مانيلا التى انطفأت الآن أنوارها •• وتذكرت كيف كان الصيف فى ليجازبى •• عندما يكون القمر قريبا من فوهة البركان ••• ترى من الذى يسير فى هذه الشوارع الآن ؟ •• وألئك الأطفال الصغار •• الذين اعتادوا أن يلعبوا أمام المركز المسيحى •• أما زالوا يضحكون ويغنون أغنياتهم المحببة ؟

كلا ••• بل انهم الآن يختفون وراء التلال •• ولا يكادون يجدون مايقتاتون عليه ••• انهم يصلون لله بحرارة لكى يرفع عنهم هـذا البلاء الذى نزل بهم ••• ولعلهم يصلون من أجلى على هذا البعد السحيق •• فماذا أفعل أنا هنا فى نيويورك ؟ أتجول فى الطرقات •• أبحث عن عمل •• مهين دائما •• خادم ذليل : نعم يا سيدى •• نعم يا سيدتى •• بعيدا تماما يا سيدى •• كما أمرت يا سيدى ••• وفى كل مكان أذهب اليـه يحملق النســاء والرجال البيض فى وجهى •• ويصيح الصبيان : هاى أيها القصير ! •• وفى السينما •• عندما أجلس بالقرب من فتاة بيضاء •• تتحرك بعيدا عنى كأننى جيفة نتنة ••• يا الهى •• اننى نظيف ••• ! لم أشعر هنا يوما بسعادة حقيقية •• حتى ولا عندما كان جيبى يمتلىء بالنقود ••• والآن هأنذا أرى ماحل بوطنى •• !

منــذ ذلك الأحــد الأســود ، وأنا أذهب فى كل كل ليلة أنقب فى صناديقى بالبدروم •• أبحث عن أى خطاب من الوطن •• فلم أجــد بها شيئا •• لقد فقدت منى جميعا •• ولم أكن أدرى أنها ستصبح فى يوم ما بهذه القيمة •• لم أجــد خطابات •• ولا صورا •• ولا أى شىء من الأشياء الشخصية يحمل رائحــة بلادى •••

وهكــذا مرت الأيام ونحن نجتر أحزاننا ونطيل المكث فى مطعم بدرو •• ونتحدث عن وطننا •• ونتذاكر أيامنا المــاضية ، وأخذنا نتذكر أشياء كنا نعتقد أننا قد نسيناها الى الأبد رائحــة حقول الأرز فى أيام نضجه •• وصوت الأمطار وهى تسقط على أسطح بيوتنا الريفية المصنوعة من قش النيبا •• والأركان التى كان المطر يتسرب اليها •• ورائحة الروث فىالحظائر الخلفية •• والأغانى الشعبية •• والمشروبات الوطنية ••• وكنا نتســاءل •• هل تذكرون شيئا من ذلك ؟ •• متى جئت الى هنا ؟ ومن أين جئت •• هل احتل اليابانيون مدينتك أو قريتك الآن ؟

وبدأ الجيش الأمريكى يستدعينا للخدمة •• وسرعان مالبس معظم الفتيان الملابس الكاكى •• وأصبحوا بعد ذلك يلتقون عند بدرو صامتين ••

فلم يعودوا يثيرون تلك الفوضى التى اعتادوها من قبل ••• كان الحزن مرتسما على قسمات وجوههم ••• وكنت أنا أحمــل حزنى الخاص : فالجيش لم يطلبنى حتى ذلك الحين •• وكنت أخشى أن أستدعى للأسطول •• فأنا أعرف أنهم سيجعلون منى هناك مجرد طاه •• بينما أنا متشوق للقتال •••

فى الربيع سقطت باتيان ثم كوريجيدور •• آخر معاقلنا •• وبعد ذلك لم أعــد أسمع شيئا عن بلادى •••

وتلاشت الرغبة فى الالتحاق بالجيش من نفوس بقية الفتيان الذين لم يستدعهم الجيش بعد •• وكانوا يقولون :

ــ بحق الجحيم ما الفائدة •• ؟ لم يعد هنالك الآن فرق •• بين أن نقاتل أو لا نقاتل ••

وتردى بعضهم فى هوة اليأس فأخذوا يرددون كلاما تعسا حيث قالــوا :

ــ ان اليابانيين قوة لا تقهر •• ولن نستطيع استرداد بلادنا •• ولا بعد عشرين ســـنة •• فلنفرض أننا التحقنا بالجيش •• فى هــذه الحالة ــ سوف يفرض علينا أن نقاتل اخوتنا فى أرض الوطن •• فكيف يقبل بهذا انســان ؟

اضطربت أفكار الفتيان وعادوا يثرثرون من جــديد •• شاعرين بالمرارة وخيبة الأمل •• وبدأوا يسخرون من اخوانهم المجندين فيقولون عنهم انهم مغفلون •• ويجن هؤلاء ويردون الاهانة بمثلها •• وينعتون أولئك الذين لم يلتحقــوا بالجيش بأنهم أشباح آدميــة •• وكروش صفراء •• لا يصلح أصحابها لشىء ••• وغير ذلك من أوصاف لا توجــد الا فى قاموس السفالة ••

سمعنا ان الرئيس كيزون (١) قد غادر الفلبين مع أسرته .. واجتمع الفتيان فى مطعم بدرو يتناقشون حول هذا النبأ :

— على أى حال ينبغى أن يكون رئيس بلادنا فى أمان .. أليس كذلك ؟

فقال أحدهم :

— أنا موافق .. موافق .. ولكن انظر يارجل .. كيزون استطاع أن يغادر البلاد لأنه كيزون .. ولكن ماذا عن أبى ؟ وأخى .. وزوجتى وأطفالى .. ؟ انكم لاشك بلهاء .. كل واحد هنا أبله ..

واستمر الجيش يسحب الواحد منا بعد الآخر .. بينما زبائن مطعم شارع ٦٥ — برودواى يتناقصون شيئا فشيئا ... لقد أغلق صالون الحلاقة أولا .. عندما انتقل صاحباه الى كاليفورنيا .. وأصبحت صالة البلياردو مكانا مقفرا .. فلم يعد الفتيان الباقون يرغبون فى اللعب .. وأصبح بدرو يغلق مطعمه فى أيام الاثنين ..

علقت فى غرفتى صورة لماك آرثر كنوع من العزاء .. وأخذنا ندرس خريطة المحيط الهادى ... لم يكن هذا المحيط يبدو لنا كما يبدو الآن فسيحا مترامى الأطراف هكذا .. ولم يتضح لنا من قبل كما هو واضح الآن أن جزر الفلبين .. بلادنا .. بعيدة كل هذا البعد عن أمريكا !

انتظم معظمنا فى الجيش .. وأصبح الفتيان يسيرون فى الشارع .. وقد علقت فى طيات معاطفهم أزرار نقشت عليها كلمة : الفلبين ...

---

(١) انتخب كيزون اول رئيس لحكومة وطنية بالفلبين سنة ١٩٣٥ وذلك لكى يمهد لاستقلال بلاده نهائيا عن الولايات المتحدة ، وكان رجل اصلاح . فلما استولت اليابان على الفلبين سنة ١٩٤١ لجأ الى استراليا ومنها الى الولايات المتحدة حيث توفى هناك .

كان هـذا حالنا عندما حضر الينا ميجور فلبينى •• انه رجل ربعة •• ممتلىء الجسم •• له شفتان سميكتان — وشعر ناعم مرجل •• وفى عينيه نظرة آمرة •• وكانت شفتاه المزمومتان فى صرامة توحيان بأن صاحبهما لديه الكثير مما يود أن يفصح عنـه •• ولكنه لا يفعل ••• وكشفت حركات يديه عن عادات وأسلوب أسبانى •• ولكن الميجـور كان أسمر البشرة •• ويبدو شديد الاعتداد بنفسـه •• من غير استعلاء أو عجرفة •• كلا •• لم يكن متعجرفا •••

وكان بصحبة الميجـور فى مطعم بدرو جماعـة من طلاب البعثة الفلبينية •• استطعت أن أتعرف عليهم •• لأنى كنت قد التقيت بهم من قبل فى حديقة فان كورتلاند •• فى بداية ذلك الصيف ••

انهم شبان ظرفاء •• لهم عيون صينية •• ووجوه حليقة لامعة •• لم تعرف معنى الجـوع فى يوم من الأيام •• تبدو عليها سيما الأناقة واضحة •• ويحملون درجات علمية •• وتنتظرهم مراكز مرموقة •• لدى عودتهم الى الوطن ••• وبين هذه المجموعـة كانت هناك فتاة فلبينية واحدة •• بدت شديدة النحافة •• ناعمة البشرة •• سمراء •• دائمـة الابتسام •• شدت انتباهى اليها بقـوة •• فتعلقت بها عيناى طوال الوقت •• وقلت لنفسى :

— يا الهى •• ان نساءنا جميلات •• لم أر واحدة منهن منذ زمن طويل •• وهأنذا أرى أمامى فتاة فلبينية ذات بشرة سمراء بالغة النعومة •• تملك أبـدع ابتسامة فى العالم •• يا الهى لشـد ما تشبه أمى وأختى لوسيا •• !

لقد شاهد الميجور العدوان اليابانى على باتيان •• فقد جاء لتوه من هناك •• وها هـو يأتى الينا مصحوبا بقلة من الفتيان كانوا هنا منذ وقت بعيد •• على الأقل قبل أن تنشب الحرب ••

وخطى الميجــور الممتلىء داخل الحجرة الصغــيرة فلفت أنظار بعض المجندين الذين جــاءوا الى نيويورك فى اجــازة قصيرة •• وهم لا يزالون بملابسهم العســكرية •• فلم يملكوا الا أن يرفعوا قبعاتهم تحية لمقدم هــذا الضابط •• وقد بدا على وجوههم الامتعاض •• ورد الميجــور تحيتهم ملوحا بيديه البدينتين قائلا لهم كيف حالكم جميعا ••

ثم اتخذ مجلســه •• ولم يتلفظ أحــد من الحاضرين بكلمة •• بينما كان بعض الطلاب يتهامسون فيما بينهم •• والفتاة السمراء لا تفتأ تقابل نظراتنا اليها بالابتســام •••

ونطق الميجــور أخيرا فقال :

— حسن •• حسن •• من الــذى يدير هــذا المكان البديــع ؟

كان صوته الضخم يشبه صوت أبى تماما •• وبخاصة عندما يستقيظ فى الصباح الباكر •• وكأن بيتنا قد انتقل فجأة الى هذا المكان •• وابتسم بدرو فى بلاهة بينمــا دفعته هيلين نحــو الميجور ، فاندفع يتعثر •• وهو يجفف يديه فى مريلته •• ويقول :

— مرحبا بك •• يا سيدى •••

وكان من الواضح أنه لا يدرى بماذا يدعو ذلك الرجل القصير •• ميجــور •• أم كابتن •• أم ليفتنانت •• !

وفرك الميجــور كفيه تعبيرا عن الارتياح ثم قال :

— ان الفتيان يمتدحون طهوك للطعام ••

ووجد بدرو فى نفسه شيئا من الشجاعة هذه المرة فقال :

— شكرا لكم •• شكرا لكم ••

ثم عاد الميجور يستأنف حديثه فقال :

— والآن هأنتذا ترى أمامك مجموعة من الذئاب الجائعة •• فالتفتت اليه الفتاة وفى وجهها ابتسامة استنكار •• فمد يده الى ذراعها وربته مداعبا ، وقال مستدركا :

— هذا الوصف لا يشملك •• ياباسيتا ••

ثم التفت الى بدرو قائلا :

— حسن •• لقد قلت لك •• اننا مجموعة من الذئاب الجائعة •• فقد اعتصرنا الجـوع يا بدرو •• وعليك أن تعد لنا أفضل ما عندك ••

قال أحدهم :

— يا الهى •• ان الجو هنا شديد الحرارة •• !

أما أنا فقد شغلت بالفتاة •• وقلت لنفسى •• اذن فاسمها باسيتا •• وعاد الميجـور يتحدث فقال :

— احضر لنا المشروبات يا بدرو •• كلكم تشربون طبعا •• حقا •• لا توجـد هنا مشروبات وطنية •• ولكن البيرة تكفى •• فنحن فى أمريكا — وعندما تكون فى رومـا فعليك أن تصنع •• حسن •• المشروبات علـى حسابى •• والآن استعدوا للشراب ••

ولم ينته الميجـور من دعوته لنا حتى شرعنا نفتح الزجاجات فور وضعها أمامنا على المـائدة •• فقد كان بعض الفتيان يساعد هيلين فى احضار الشراب •• وملأنا كؤوسنا •• وقد ارتفعت الكلفة عن الجميع •• فالميجـور ليس غريبا عنا •• انه الآن واحد منا •• وتساءل الميجور :

— لنقترح الأنخاب •• على أى شئ تكون ؟

فنهض أحـد الفتيان كان يجلس الى جانب باسيتا •• ثم رفـع كأسـه •• وقال :

— نشرب نخب بلادنا .. نخب الفلبين .. أن نعود اليها وقد تحررت .. وأحسست فى تلك اللحظة بغصه فى حلقى .. وكأن به كتلة متورمة تكاد أن تخنقنى ... بينما كانت يد فنسنت العجوز ترتعش ... كان سمعه ثقيل .. ولعله لم يلتقط بأذنيه سوى كلمة الفلبين ... ولكنها تكفى على كل حال .. أليس كذلك .. ؟

عندما رفعنا كؤوسنا الى أفواهنا كان كل شىء ساكنا تماما .. حتى ليستطيع الانسان أن يستمع بوضوح الى ذلك الطنين البعيد الذى يأتى عبر الميدان الكبير .. وتلك الأنغام الخافتة التى تتسرب من كباريه جيم المجاور لنا .

ولكن لم تلبث ألسنة الفتيان أن انفلتت من عقالها .. فبدأ الجميع يتكلمون ... وبينما كان بدرو وهيلين مشغولين باعداد المائدة للميجور وصحبه .. كنا نحن نجلس الى جوارهم نحتسى الشراب ... بعض الفتيان فى ملابسهم العسكرية .. وغيرهم .. مثلى .. لايزالون بملابسهم المدنية منتظرين على قلق استدعاء الجيش لهم ، عندما يحل عليهم الدور .. والجميع منهمكون فى الشراب والحديث .

كان طالب البعثة الأنيق الذى إقترح الأنخاب بلغته الرصينة المتميزة .. يهمس فى أذن باسيتا ... وكلما مر الوقت .. يتزايد بداخلى شعور ما يجذبنى نحو هذه الفتاة ... لقد أحدث الشراب أثره فى نفسى .. وهأنذا يا باسيتا أشعر بتحسن كبير .. ألا ترين ذلك ؟ .. لقد ابتسمت بالفعل وكأنها تسمع نداء قلبى ... فمن يستطيع أمام هذه الابتسامة الرائعة أن يتمالك شعوره ! ؟

أخذ الميجور يتحدث ويسأل هذا وذاك :

— كيف حالكم أيها الفتيان .. ؟ منذ متى وأنت بالجيش .. ؟ وأنت .. متى تتوقع استدعاء الجيش لك ؟ وماذا ستفعل حينئذ ؟ لن تشكو من شىء ؟ .. عظيم .. عظيم .. هذه هى الروح ..

وانحلت عقدة اللسان عند بعض الفتيان بفعل البيرة •• وبخاصة أولئك الذين لم يلتحقوا بالجيش بعد •• فقالوا كثيرا من الأشياء السخيفة :

ــ انه لا فائدة من القتال •• وانهم لا يريدون أن يقاتلوا •• ان أمريكا نفسها لا يلوح أنها قادرة علـــى شىء •• وفضـــلا عن ذلك •• يا سيدى الميجور •• فان اخواننا بالفلبين قد قاموا بواجبهم فى الدفاع عن أرض الوطن ••

وهكذا تجلت روح الانهزام فى أحاديثنا •• وأخذ الفتيان يسفون فى القول •• وفجأة بدت مظاهر الأسى على وجه الميجــور فشرع يقول لنا :

ــ انظروا •• لقد رأيت أبناءنا يقاتلون بشجاعة ويموتون فى باتيان ••
وأصبح صــوته الآن رقيقا ناعما •• وتلاشت من عينيــه تلك النظرة الآمرة •• فشملنا الصمت جميعا •• لنستمع الى ما يقول •• وقربنا مقاعدنا من مجلسه وعلى ألسنتنا أسئلة كثيرة •• أخذنا نطرحها عليه واحــدا بعد الآخر :

ــ هل دمرت القنابل ليجاز بى يا سيدى •• ؟ وما هــو حال ما نيلا ؟ وسيبو ؟ وفيجان ؟ ولينجاين ؟ •• وأبارى ؟ وما مصير السكان المدنيين •• أين ذهبوا ؟ •• هل تعرف أخى يا سيدى الميجور • ؟ لقــد كان جنديا بالجيش الفلبينى •• انظر •• هذه صورة له ••• !

ونظر الميجور الى الصــورة وهو يعتصر ذاكرته •• ثم هز رأسه آسفا ••

وبدأ الميجــور يروى لنا قصته •• بلغة انجليزية مبسطة ، كمــا كان يفعل أستاذنا فى المدرســة الابتدائية فى مجدلنيا •• وكان الحزن باديا فى أسارير وجهه وهــو يقول :

ـ يجب أن نفخر بهذه الحقيقة •• أننا فلبينيون •• لقد قاتل رجالنا وماتوا شرفاء •• دون أن يتذمروا •• لقد صمدوا مع زملائهم الأمريكيين حتى النهاية •• أوه ••• لكم كان الجندى الفلبينى ايثاريا •• مخلصا •• شجاعا •• كان يأتى الواحد منهم الى ضابطه الأمريكى متطوعا وهـو يقول : لا تذهب أنت فى هذه المهمة يا سيدى •• انها مجاذفة •• دعنى أذهب اليها بدلا منك ••• ولم يرجع بعض هؤلاء الفتيان من هـذه المهمات المتطوعة ••••

وتوقف الميجور هنيهة •• كأنه يسترجع ذكرياته فى باتيان وكور يجيدور •• كانت ذكريات مضنية •• وكنا ننظر بعضنا الى بعض •• ونجرع مزيدا من الشراب ••• وننتظر •••• ! وبدا فينسنت فى حالة يرثى لها ، وهـو يجتهد ألا يفوته شىء مما يقوله الميجـور •• الـذى عاد يستأنف الحديث •• دون أن يرفع بصره عن زجاجة البيرة التى كانت أمامه على المـائدة •• قال فجأة وهو يقلب الزجاجة بين يديه :

ـ عندمـا كنا نتقهقر الى باتيان •• لنقصر خطوطنا •• وقعت أنظارنا •• فى مكان ما على خط الحدود بين بامبانجا وباتيان •• علـى جثة متهتكة •• لفتاة فلبينية •• اعتدى عليها اليابانيون ••• كان جسدها الأسمر الضئيل مشوهـا •• يستحيل التعرف على صاحبته •• وكانت ثيابها الممزقة ملوثة بالدماء •• بينما هناك دماء أخرى •• حمراء قاتمة •• قد تجلطت على هيئة كتل متناثرة على الأرض من حولها ••• كانت نصف عارية •• لا يسترها سوى بقايا مهلهلة من قميص ممزق •• استطعنا أن نقرأ عليه اسم صاحبته (ارلندا) •• كان منظرا مروعا •• ملأ قلوب الفتيان من جنود فرقتى بالكمد •• فقبضوا على بنادقهم •• وأصروا على أسنانهم وأقسموا أمام الله أن ينتقموا أشد الانتقام من اليابانيين •• لقد اغرورقت عيونهم بالدموع •• وهم أولئك الرجال الأشداء الذين ألفوا الخشونة والجلد ••• ومضوا فى طريق النضال حتى قتل أكثرهم •• ولابد أن ما بقى منهم الآن أسرى فى معسكرات العدو •••

وانتشر خبر هـذه الواقعة فى صفوف الجنود •• وأصبحت صيحة الحرب عندنا (تذكروا ارلندا) ••• وظللنا بعد ذلك نقاتل •• كمـا تعلمون أطول وقت استطعناه •• ولكن •• حسن •• انكم تعرفون •• ما حدث بعد ذلك ••• !

ولم يكد الميجـور ينتهى من قصته حتى بدا الارهاق واضحا فى صفحة وجهه •• واختفت ابتسامة باسيتا •• التى كانت تجفف دموعها ••• ترى هل بكت أختى لوسيا هى الأخرى •• أم حدث لها ما حـدث لارلندا ••• ؟ أوه ••• يا الهى •• كن رفيقا بنا •• وارفع عنا بعض هـذا العذاب ••••

وصمت الفتيان •• حائرين لا يجدون ما يقولون •• أو يفعلون •• الا أن يحملقوا فى وجه الميجـور •• الذى أخذ الآن يصب البيرة فى كأسه •• بينما نظراتهم الملتاعة تستحثه على الكلام •• ولكن الميجور كان قد أفرغ ما بنفسه •• فانطفأت جذوة الروح فيه •• وبدا الآن مختلفا عما كان عليه من قبل •• بل ان كل شىء بدا مختلفا •• وكأن الموت قد طاف بالمكان فأغرقه فى صمت أبدى ••• ولكن كانت نيويورك •• خارج هـذا المكان •• لاتزال تتنفس وتلهث •• مـن خـلال قطارات الأنفاق التى تدمدم •• وسباق المركبات والسيارات •• وصياح الأطفال على الأرصفة •• فى كل لحظـة من لحظات ذلك الصيف الـذى تركزت حرارته واشتدت لزوجته ••

ووجدت نفسى مندفعا أسأل الميجور سؤالا ساذجا فقلت :

— هل تعتقد •• يا سيدى الميجور •• أننا اذا عدنا فسـوف نجد وطننا القديم كما عرفناه من قبل ! ؟

فهز الميجـور رأسه •• وابتسمت باسيتا وهى تهز رأسها أسفا •• لقد بلغت حرارة الصيف ذروتها ولم تعد بى طاقة على الاحتمال •••

فأسرعت أغادر المكان •• بعيــدا عن مطعم بدرو •• كشخص أصابه الجنون •••

اليوم ها هــو ذا الصيف قــد انقضى •• وأخذت أوراق الشجر المتساقطة تتدحرج من حــولى على الرصيف •• كأنها خطــوات شبح مجهول •• تتبعنى حيثما توجهت •• ولم أكن أعرف الى أين أذهب •• فاتخذت مجلسى على مقعد قريب فى الحديقة •• وشرعت أفكر فى أمر أولئك الشبان الذين ذهبوا وراء البحار •• لقد تطوع الجميع فى الجيش •• ولكنى أنا ماذا دهانى •• ! لقد أصبحت عجوزا •• أربعون عاما •• أليست عمرا طويلا •• ؟ ولكنى أسألك يارب أن تمد لى فى الأجل قليلا ••• لقد أمضيت عمرى جائعا أياما •• وأياما أخر •• أدور وأدور •• هنا وهناك •• وفى عينى نظرات خاوية •• وسكنت فى غرف ضيقة •• مــع الهوام والحشرات •• وعشت بين ذمرة من الأمريكيين الضائعين •• الذين لم يعرفوا النظافة فى حياتهم ولم يغتسلوا مرة واحدة •• ولم يكن مصيرى يقلقنى اذا ذهبت يوما الى النوم فلم أستيقظ مرة أخرى •• وعندما ذهبت الى هدسون خلف مرتفعات مورننج سايد •• راودتنى نفسى أن أقذف بها فى النهر فتنتهى متاعبى الى الأبد ••

أما الآن فاننى أريد أن أعيش •• واذا قــدر لى أن أمــوت •• فلا أريد أن أموت هنا أبدا •• لا أريد أن تكون منيتى فى هــذه البــلاد النائية •• بل فى مكان ما بأرض بلادى •• فلعل شخصا ما من أحبائى •• لايزال هناك باقيا على قيد الحياة •••

عندما تذهب الآن الى ذلك المكان بين شارع ٦٥ وشارع برودواى •• ثم تهبط درجتين أسفل الطريق •• فسترى نفرا قليل من الفتيان والفتيات يلعبون فى حجرة البلياردو •• أكثرهم من الغرباء •• أما مطعم بدرو فستجده مغلقا •• وقد علق أحدهم فوق الباب هذه اللافتة (تذكروا ارلندا) ثم رحل الى الجيش •• بدرو نفســه التحق بالأسطول ••• وتقول هيلين :

« ام يعد هناك عمل » •• انها الآن تبدو أكثر ضخامة فى ثياب العمل الرجالى •• بعد أن وجدت لها وظيفة فى نوبة مسائية بأحد المصانع الممتدة على طول النهر •• حتى فنسنت •• ذلك العجـوز الأصم •• الذى يكبرنى فى السن كثيرا •• انه هـو الآخر ذهب الى واشنطون •• حيث فقـد احدى ذراعيه وهو يعمل فى مصنع من مصانع الذخيرة ••

كل شىء هناك قد تغير •• حتى كباريه جيم لم يعد يفتح أبوابه منذ فترة من الوقت ••••

« ولكن فى يوم ما •• عندما ينتهى كل هـذا » ••• لم أكن أوجـه حديثى لأحـد •• فليس معى بالحديقة سوى تلك الحمائم تقفز من حولى ولا تقبل نحوى •• فقد كنت أدعوها ويداى فارغتان •• !

ووجدتنى أردد قولى مرة أخرى : « فى يوم ما سيفتح مطعم بدرو أبوابه •• وسيكون هنالك طعام وشراب •• وسيجتمع شملنا من جديد •• على الأقل أولئك الفتيان الذين سيرجعون من الحرب سالمين •• وسيمتلىء كباريه جيم بنا •• نحن الفتيان السمر •• من جديد •• وسوف نميل بصدورنا التى أجهدها التعب •• على صدور شابة ناعمـة •• ممتلئة بالسكينة •• وسوف نجد من نحب •• وقد نرغب فى البقاء هنا الى الأبد •• فلا نفكر فى العودة الى الوطن •• فماذا نبغى أكثر من ست أقدام •• هى مثوى جسـد الانسان • ؟ ست أقدام فحسب •• هى كل ما نحتاج اليه ، فلتكن فى أى موقع من الأرض •• فالديدان التى تأكل الرفات •• واحدة فى أى مناخ •• وتحت أى علم من الأعلام •••



من أجل هـذا الحطام

أدهشنى أن أرى « بابلو ايكارنجال » فى مكتب النقـل البحرى بسان فرانسسكو ، بينما كنت أظنه مايزال فى واشنطن ••• لقد بدا عليه السرور لرؤيتى •• حيث كان يعانى مشقـة فى افهام كاتب الشـحن ما يريد ••• بابلو •• الذى قضى كل هـذه الأعوام الطويلة فى واشنطن •• لم يتمكن بعد من اجادة اللغـة الانجليزية ••• ! انه لا يخطىء فى قواعد اللغة فحسب •• فذلك أمر مفروغ منه •• بل انه لايزال غـير قادر على النطق السليم ••

كان هذا شيئا فريدا فى نوعه ، بقدر ما كان غير قابل للفهم •• الا أن أصدقاءه كانوا يتقبلون منه هذا القصور كأمر واقع •• مثل طيبته أو رعشة يديه ••

وفى مكتب الشحن تجمع طائفة من الفلبينيين •• لمحت بينهم امرأة رثة المظهر •• كانت تحمل على كتفها طفلا •• له بشرة بيضاء •• وشعر أشقر ••

وأصر بابلو على أن نتخذ كابينة مشتركة فى السفينة •• وساعدنى فى الحصول على أقرب سرير اليه •• ثم وضع حقائبى مع حقائبه •• فلم يكن من اليسـير أن أجـد مكانا آخر آمنا لأمتعتى فى تلك السفينة المزدحمـة ••

لم يكن ثمـة أصدقاء يوذعوننا •• ومع ذلك فقد وقف بابلو عند الرحيل •• مستندا الى سياج السفينة •• وهو يبتسم الى الجميع •• ويلوح بيديه •• كمـا لو أن كل الناس قد جاءوا ليودعوه •• ! فلمـا رفع سلم العبور •• صعدت الى ظهر السفينة واضطجعت فى مقعـد هناك •• بعد أن تدثرت بمعطفى الثقيل ••

كنت أتصور أن تتجه خواطرى نحـو وطنى •• ذلك الذى حل به الدمار •• والذى قرأت عن أطلاله فى الصحف •• وشاهدت صوره فى الأفلام الأمريكية •• ولكنى الآن — وقد جلست فى ذلك المساء الضبابى أحدق فى الغبشـة التى تغلف سماء خليج سـان فرانسسكو ، وأشعر بحافة السفينة وهى تنفصل عن رصيف الميناء — الآن أجـد أفكارى مشـدودة الى هـذه البلاد التى أخلفها من ورائى •• والتى كانت موطنى ، خلال سنوات الحرب •••

رحت أتذكر مدنا عديدة تجولت فى أرجائها •• ورجالا ونسـاء عرفتهم وتحدثت معهم ، وكانوا كرماء معى •• ومعاهد التحقت بها •• وزملاء جلست معهم فى حلقات دراسة اللغـة الانجليزية •• شباب واستقامة وطيبة •• منهم من التحق بالجيش ثم لم يعد •• وفتيات ذهب عنهن الأصدقاء •• فكن يأخذن الأمر بلا شجاعة ، ولكن أيضا بلا يأس •• وأرامل صغيرات •• وأمهات بدأ الشيب يزحف على شعورهن •• وشيوخا ضامرين •• أصابتهم نوائب الحرب •• ففقدوا أبناءهم •• ولم يبق لهم من آثارهم سوى تلك النجمة الفضية المعلقة على النافذة •• ذكرى لمجـد الأبناء الذين رحلوا •• ومحنة للآباء الذين ينتظرون بلا رجاء ••

وتداعت الذكريات •• فأخذت صور الأشخاص والأماكن تتلاشى •• كمـا تلاشت أسماء المدن •• التى كان يصعب على هجاؤها ويصعب نطقها أكثر ••• تلاشى كل ذلك ليحل مكانه فى الذاكرة •• تفاصيل أخرى عن بعض شـوارع •• وغرف •• وحدائق •• وظلال أشـجار ولحظات عشتها • كيوم تخرجى •• عندما نظرت فيما حولى أبحث عن شخص يهنئنى •• وأعياد الميلاد فى الأماكن النائية •• وليلة رأس السنة الجديدة بدون موسيقى •• ورنة قطع الثلج فى الكأس •• ونقط الشراب تبلل مفرش المـائدة الأبيض •• والطريقة التى تتفرس بها فتاة أمريكية جميلة فى بشرتى السمراء •• وفى عينيها أسئلة كثيرة لا تجـد لهـا جـوابا •••

— اذن فأنت هنا •• ؟

كان الصوت عاليا •• والكلمات باللغة الوطنية ••• انه بابلو •• الذى وقف الى جانبى يقول :

— سوف تتجمد هنا حتى الموت •• هل كنت نائما •• ؟

— أظن ذلك •••

هكذا أجبته ، وقد شعرت فجأة بقشعريرة من هـواء الليل البارد ، فنهضت واقفا أجمع أطراف معطفى حـول جسمى •• بينما أحس فى رأسى بدوار •••

ونظرت تجاه اليابسـة •• حيث بدت لى صـورة غائمة لتل يعترض صفحة السماء •• وقد انتثرت من حوله نجـوم باهتة •• لا تكاد ترى •• خلال الضباب وعلى هـذا البعد السحيق •••

اجتمع فى قاعة الطعام فى تلك الليلة ، خليط من الناس ، بعضهم من نزلاء كابينتنا بالسفينة ، أحدهم محام والآخر رجل أعمال ، وكلاهما يصحب زوجته ، ثم شاب فى مقتبل العمر ، يدعى « أسيستيو سالازار » وهو طالب فلبينى كان ضمن البعثة الحكومية ليتخصص فى وسائل تعليم الصـم ••

وعلى الموائد الأخـرى كان ثمـة خليط من الضباط الأمـريكيين والفلبينيين •• وكان بعض هؤلاء الأمريكيين أسرى حرب فى « سانتوماس » و « كابناتيوان » •• وهم الآن عائدون الى الفلبين ، بعد فترة استجمام فى الولايات المتحـدة ••

وفى أحد أركان القاعة كان هناك مجموعة من الفنانين والفنانات فى رحلة جماعية •• وجهتم الشرق •• للترفيه عن الجنـود المغتربين •• بأغانيهم ورقصاتهم ••• وفى هـذا الخليط من الناس الذين ازدحمت بهم قاعة الطعام •• كنت ألمح نفرا من أنصاف الفلبينيين أو الفلبينيات ••

ممن نطلق عليهم اسم المستيزو ، أو المستيزا (١) •• كما لمحت فى ركن قصى ثلاثة من القسس الفلبينيين ••

وبينما المكان يعج بمن فيه •• حضرت امرأة فلبينية •• ساذجة المظهر •• تحمل على ذراعيها طفلا رضيعا •• كانت حائرة •• لا تدرى أين تجلس •• حتى جاء اليها مضيف السفينة •• وأرشدها الى احدى الموائد •••

وتذكرت حينئذ أنى قد رأيت هذه المرأة من قبل •• بمكتب الشحن فى سان فرانسسكو •• فقد كانت لاتزال — كما رأيتها لأول مرة — ترتدى نفس الثوب الصوفى الفضفاض •• ذا اللون البنى الحائل •• وقد بدا شعرها مهملا غير مصفف •• مما أثار انتباه زوجة المحامى •• فقالت :

— انها لم تستطع أن تمشط شعرها •• ان طفلها معتل المزاج •• ولعله يشغلها طول الوقت فى العناية به ••

وبدا أن كل من بالقاعة كان يعرف المرأة •• ويتحدث عنها •• والتقطت أذنى تعليقات من هنا ومن هناك •• فبدأت أسترجع قصة تلك المرأة كما نشرتها صحيفة « التيم » مع صورة لها هى والطفل •• أجل لقد تذكرت الآن :

كان اسمها « جوليا فلوريز » من باتان (٢) •• تمكنت خلال المعارك فى شبه الجزيرة •• أن تنقذ حياة جندى أمريكى شاب ••• ويستطيع الخيال بعد هذا •• أن يملأ مافى القصة من ثغرات :

---

(١) المستيزو ، والمستيزا ، اسمان يطلقان على الرجال والنساء من أبناء الفلبين ، الذين تمتزج بدمائهم دماء اسبانية الأصل .

(٢) احدى المناطق الفلبينية التى شهدت أشهر المعارك بين الأمريكيين واليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية .

جندى أمريكى شاب •• يرقد جريحا •• فى حالة من يعالج سكرات الموت •• حتى تأتى هذه الفتاة فتعنى بأمره •• وهو يعانى من الحمى والهذيان ••• حقا انها فلاحة أمية •• من احدى القرى المنعزلة ولكنها عرفت كيف تمرض الجريح حتى استرد حياته •• واستطاعت أن تخفيه عن أعين الأعداء •• مخاطرة بحياتها •• جاعلة من نفسها خادمـة له •• تبحث له فى شعاب الجبل وفى الأنهار •• عن طعام يقتات به •• وتسهر الليالى تستمع الى أحلامه وكوابيسه ••• ولعلها كانت تفهم منه شيئا •• أو لا تفهم على الاطلاق •• ولكنها تظل تروح لـه على وجهه المحموم •• وتبرد وجهه بمـاء الينبوع ••• ولمـا كان فى قرية منعزلة •• وكانا يعيشان فى استخفاء دائم •• عاشا معا كرجل وزوجته •• وولدلهما هذا الطفل •••

ثم توقفت الحرب •• وأخذها الجندى المحب معه كزوجة لـه •• اعترافا بالجميل ، ان لم يكن من أجـل الحب ••• وفى أمريكا يرحب الأبوان بابنهما الذى افتقداه طويلا •• ولكنهما يصدمان برؤية زوجته الملونة •• تلك الفتاة الغريبة المتسخة •• التى لا تجيد شيئا أكثر من أن تضحك كوثنى أبله يتطلع الى قطعة حلى تافهة •• بينمـا تمـد اليهم « جيمى » الصغير •• الذى يتلوى بين ذراعيها ••

وفوجئت جوليا فى أحد الأيام •• بزوجها يرحل الى مكان مـا •• وعلى أثر ذلك •• طلبت منها الأسرة أن ترحل هى الأخرى الى حـال سبيلها ••• وهكذا غادرت البيت ومعها جيمى الصغير •• بعـد أن حزمت أمتعته فى حقيبة كبيرة •• كانت تخص زوجها فى المـاضى ••

ويتدخل الصليب الأحمر للمساعدة •• فمنحها تذكرة للعودة الى باتآن ••• وها هى ذى الآن تعود الى أرض الوطن ••

لا عجب •• فصـور العودة كثيرة ومختلفة : فثمـة صورة لعودة البطل أو القديس •• وصورة لعودة المبـذر الذى أهـدر ثروته ••

وصـــورة لعودة التائب المنيب ••• فهذه أيضا صورة أخرى للعودة •• !
•••• « وداعا يا جيم •• لقد عرفت الآن أننى لم أكن على صواب •• عندما قبلت الرحيل معك الى هنا •• ولكن عقلى الصغير صور لى أنك مازلت تريدنى ••• أشكرك على كل حال •• لأنك لم تأخذ منى جيمى الصغير •• انه ســوف يكبر بين تلالنا •• هل تذكر تلك التلال •• ؟ لقد كنت أغسل ملابسك على ضفة النهر •• بينما كنت تجلس على الرمال •• تحمل جيمى بين ذراعيك •• وتحاول أن تعلمه تلك اللغـــة التى لم يستطع أن يتعلمها •• كمـــا لم أستطع أنا كذلك •• فلم تكن الفترة القصيرة التى أمضيناها معا لتسمح بذلك ••• لقد أحببتك يا جيم على طريقتى •• ومهما يكن ما جرى •• فقد يأتى يوم ما •• أفهم فيــه حقيقة هذا الذى حدث لنا ••• »

لم يكن اجهاد السفر قد حل بنا بعد •• فكنا نقضى معظم الوقت فى المرح والتفكه •• وكان الزوجان اللذان يشاركاننا غرفتنا •• موضوع مزاحنا أحيانا •• فقد حـــل بهما القلق لمـــا أصـــاب زوجتيهما مـــن دوار البحر •• مما جعلها يتخليان عن مجموعتنا كثيرا •• ليمكثا الى جانب الزوجتين بعض الوقت •• ولكنهما ماكانا ليصبرا على البقاء طويلا معهما أثناء الليل ••

كانا يحتلان سريرين بالقرب من باب الكابينة •• وكنا نلاحظهما أثناء الليل وهما يتسللان الى الخـــارج •• ليطمئنا على زوجتيهما فى الجناح الآخر •• وكان هـــذا موضع تعليقات ونكات من الجميع •• فقد قال لهما سالازار مرة :

— كونا على حذر •• لكيلا تصطدما فى هـــذا الظلام •• بأحـــد القسس •• فيكون جزاؤكما الزواج مرة ثانية ••• !

وانفجر الجميع ضاحكين •• حتى بابلو الذى لم يكن يميل كثيرا الى الطالب •• ضحك هـــو الآخر •• للنكتة التى أطلقها ••

لقد كنا نستمتع بأوقاتنا فى مزاح من هـذا القبيل •• حتى بعـد أن نطفىء الأنوار فى الليل •• كنا نمضى مدة طويلة تحت الضـوء الخافت •• نتسـامر ونضحك على الأشياء التى قلناها •• كأن كابينتنا لم تكن للنوم •• وانمـا لعقد اجتماعاتنا السرية ، أو تبادل أسرارنا الخاصة ••

كان المحامى عائدا الى مانيلا ليمارس المهنة •• وكانت أمامه بصدد هـذا مشاكل وصعوبات •• فالمحامى المبتدىء مثله •• فى حاجة الى كثير من العملاء والقضايا •• حتى يستقر فى حياته وعمله ••• انه فى حاجة الى نقود كثيرة ••• ولقد بدا عليه التفاؤل ذات مرة فقال :

ــ خلال سنتين على الأكثر •• أتوقع أن أكون قـد كونت نفسى تمامـا ••

أما رجل الأعمال فقد أحضر معه من الخارج كميات كبيرة من لعب الأطفال •• ولابد أنه كان يتوقع أن يدفع عنها ضرائب جمركية •• ولكنه لم يتحدث عن ذلك •• وانمـا قال :

ــ لن ترد الينا لعب أطفال من اليابان لمدة طويلة •• ومن الضرورى أن يكون لدينا لعب أطفال من جـديد •• فطوال سنى الحرب لم يتمتع أطفالنا بشىء من اللعب ••

وقال سالازار :

ــ أنا لن أسعى لتحصيل المـال •• لأنى لا أصلح لذلك ••• لقد جئت الى بلادى لكى أساعد البكم على أن ينطقوا •• والصم على أن يسمعـوا ••

وجاء دور بابلو ليتحدث الينـا على عادته •• بلغته الوطنية •• فأخبرنا عن الأرض التى ينوى شراءها وزراعتها •• وعن الزوجة التى عاد من أجلها ••

أما أنا فلم تكن لى خطة ما •• فالخطابات التى تلقيتها من الوطن •• كانت تحمل فى طياتها أنباء محزنة •• لم أكن أقدر على الافصاح عنها ••

وهكذا مضينا نتحدث الى ما بعد منتصف الليل ••• فقد كان ثمة ما يقال •• لحظة ما تنبثق فى الذاكرة •• أمنية تنبعث حية ، طالما كانت تتردد على خاطر واحد منا ••• وانصرفنا فى النهاية •• كل الى مضجعه •• ولكن بابلو ظل مستيقظا حتى قبيل الفجر •• ورأيته مايزال قابعا فى فراشه •• وقد أحنى رأسه كأنه مستغرق فى الصلاة •• فسألته هامسا :

— أمازلت مستيقظا يا بابلو •• ؟

فجاء يجلس على حافة سريرى •• ثم أسر الى بصوت خفيض :

— لم أستطع النوم ••

وتمكنت أذناى بصعوبة من التقاط كلماته •• خلال هدير الأمواج •• وضجة الآلات التى كانت تتصاعد الينا من أسفل السفينة •• وتطن فى أذنى طنينا •• لم أكن بعد قد اعتدت عليه •• وعدت أسأله :

— ما الذى يشغلك يا بابلو •• ؟

— كنت أفكر فى زوجتى •• تلك التى حدثتك عنها من قبل فى واشنطن •• لقد رأيت صورتها •• أليس كذلك •• ؟

— أوه •• نعم •• لقد رأيتها بالفعل ••

وتذكرت فى تلك اللحظة صورة لفتاة فى مقتبل العمر •• من فيسايا •• ترتدى ثياب الممرضات ••

— انها ممرضة أليست كذلك •• ؟

وحاول بابلو أن يوضح لى مشكلته فقال : انه بعد نزول الأمريكيين

فى « تاكلوبان » (١) بدأ يبعث اليها بالنقود •• كما أخبرها أنه سيعود الى الوطن على أول سفينة مسافرة •• ولكن الغريب فى الأمر •• أنها كانت ترد عليه بأنها تسلمت النقود •• ولكنها لم تبد شوقا الى رؤيته ••• فسألته :

ــ كيف عرفت أنها لا تشتاق اليك ؟

ــ حسنا •• انها لم تقل انها مسرورة بقدومى •• لم تقل انها تفتقدنى •• بل أكثر من هذا قالت انها قد لا ترتاح فى مسكننا القديم بعد ذلك ••• والآن أريد أن أعرف رأيك فى هذا •• هل تراها تعبث بى •• ؟

فنهرته قائلا :

ــ انك لمجنون •• ويحسن بك أن تعود الى فراشك الآن •• وتنام ••

وبينما هو يرقد فى فراشه كان يتمتم قائلا :

ــ يا الهى •• لقد كانت تكتب خطابات جميلة قبل الحرب •• فما الذى غيرها •• ! ؟

لم يكن الأسبوع الأول من الرحلة قد أوشك على نهايته •• عندما بدأ بعض المسافرين يتخلفون عن الظهور فى قاعة الطعام •• وذات مرة •• بينما كنت مع بابلو وحدنا على مائدة العشاء قال :

ــ أنا لا أجد الراحة فى مثل هذه الأماكن الفاخرة •• لعلك تعلم أن آداب المائدة لم تكن مصدر ضيق لى فى أمريكا •• ذلك لأننى كنت آكل بمفردى •• وكنت أنتهى من الطعام سريعا •• ان يداى •• كما تعرف •• لا تزالان ترتعشان •• واننى لخجل من ذلك ••

---

(١) تكالوبان : هى احدى مناطق الفلبين .

لم تكن هاتان اليدان المرتعشتان بغريبتين عنى •• فأنا أعرفهما •• حتى بدون نظر اليهما •• أستطيع أن أتخيل الكفين الخشنتين •• والأصابع الصلبة •• والأظافر القصيرة الجافة •• وأعرف أنه كلما أقدم على أمر ما ارتعشت يداه ••• وهأنذا أرى ملعقته وشوكته تصطدمان بالطبق تارة وبأسنانه تارة أخرى •• فيحدث من هذا طقطقة منفرة ••• ولكنى رغم ذلك •• رحت أؤكد له أن أحدا لا يتنبه الى يديه •• ولا يلقى أدنى التفات أو اهتمام بـ هذا الأمر •• ثم أضفت قائلا :

ـ لا تكن كثير التأنيب لذاتك •• هكذا ••

فقال •• وقد سقطت الملعقة من بين يديه الى الطبق :

ـ انك تستطيع أن تقول هذا بسهولة •• لأنه ليس لديك ما تخفيه •• أما بالنسبة لى فالأمر يختلف •••

مر الوقت بطيئا مملا •• حتى اجتزنا هونولولو •• حيث بدأت الشمس الدافئة تشرق لفترات أطول •• مما أتاح لنا أن نتمشى على ظهر السفينة بملابسنا الخفيفة •• فيما عدا وقت الصباح الباكر وفترة المســـاء •••

ولم تعد « جوليا فلوريز » تظهر على السفينة بل ظلت ملازمة لغرفتها على الدوام •• حتى وجبات الطعام •• كانت تتناولها هناك •• وعلقت زوجة المحامى على ذلك قائلة :

ـ لعلها تشعر براحة أكثر حيث تكون بمفردها •• فقد اعتادت أن تستخدم يديها عندما تأكل أو تطعم طفلها ••

وذات ليلة أقبل علينا بابلو وهو يقول :

ـ لقد سلختهم جميعا ••

قالها وهو يخرج من جيبه لفائف أوراق النقد من الدولارات ••

لقد لعب مع البحارة مرة أخرى •• وكان الربح من نصيبه كالعادة •• فقلت لـــه •• وقد تذكرت جلسات البوكر فى ليالى الشتاء •• مع الفتيان فى واشنطن :

— انك لمحظوظ :

وعقب سالازار على ذلك بقوله :

— محظوظ فقط فى لعب الورق •• ولكنـــه تعيس فى الحب •• فابتدره بابلو متسائلا :

— ماذا تعنى ••• ؟

وأجاب سالازار :

— ما قلته هو ما أعنيه •• ان لك زوجة فى فيسايا •• فهب أنك عندما ذهبت اليها •• وجدت أنها قد أنجبت أطفالا يابانيين •• فماذا أنت فاعل فى ذلك ؟

وحملقت فى وجه بابلو لأرى أثر هذه الاهانة المباغتة •• ولكنى رأيته يبتسم •• ثم قال موجها حديثه الى الطالب :

— سوف أعطيك واحدا منهم •• بالطبع أكثرهم اعتلالا •• أمـــا الباقون •• فسوف أستخدمهم فى زراعة الأرض ••

وهنا انفجر المحامى ورجل الأعمال فى الضحك •• أما الطالب فقد عاد يتساءل متهكما :

— ولكن ماذا ستصنع بزوجتك ؟

— سأمنحها أبنائى الحقيقيين •• وعندما يكبرون أبعث بهم •• الى أمريكا •• ولكن لا لكى يتعلموا مثلما تعلمت أنت ••

— أوه •• هكذا ••

ـ لا يا سيدى •• لن أسمح لهم أن يتعلموا ذلك النوع من الدروس التى تلقيتها أنت هناك •• لطالمـا سمعناك تتكلم •• وفى كل مرة •• لم تفتح فمك الا على حديث النســاء •• الشقراوات •• الشقراوات دائمـا •• انك مجنون شقراوات ••

فقال الشـــاب :

ـ حسن •• وما حيلتى اذا كن معجبات بى •• ؟

وأسرع بابلو بالجواب فقال :

ـ أوه •• بالتأكيد •• الشقراوات معجبات بك •• ولكن •• هؤلاء الشقراوات اللائى عرفتهن •• يمكن أن يقعن فى حب أى شاب بدولارين فقط •• ولعل الأجر كان أقل من هذا فى المنطقة التى كنت فيها •••

وانتهت المشاحنة بتحدى الطالب لبابلو أن يلاعبه البوكر •• ولكن حدة العراك كانت قد انطفأت فى نفس بابلو عندما قال :

ـ اننى أشفق عليك •• احتفظ بنقودك أيها الطالب •• فســوف تنفعك حيث أنت ذاهب ••

لم أشاهد الطالب بعد ذلك يتعرض لبابلو بالكلام بقية أيام الرحلة •• ولكن طوال تلك الليلة التى جرى فيها النقاش •• ظل بابلو مؤرقا فى فراشه الى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل •• فلمـا أحس بى اتقلب •• جاء نحوى يسأل هامسا :

ـ هل تظن حقا •• أن زوجتى قد أنجبت أطفالا يابانيين ••؟

فقلت له مغضبا •• وأنا أدفع به بعيدا عنى :

ـ اصمت ••

ثم أدرت وجهى •• وانقلبت على جانبى الآخر •

كنا نتوقع ظهور الساحل خلال الأيام القليلة القادمة .. فقد بدأت الطيور تحوم فوق السفينة .. وتصافح قمم الموج فى مرح وابتهاج .. وأخذت عيوننا تتطلع نحـــو الأفق البعيد .. فنتخيل علامات هناك .. حيث لا يوجد شيء من ذلك فى الواقع ..

وفى صبيحة أحد الأيام .. عندما استيقظت من نومى .. لم أجـــد بابلو فى فراشه .. غير أنى قابلته بعد ذلك على مائدة الافطار .. وكان منشرح الصدر عندما أخبرنى أنه قد حضر لتوه قداسا .. ثم أردف يقول :

— لقد ذهبت للاعتراف .. وتناولت الخبز المقدس ..

فقلت لـــه :

— خيرا فعلت بنفسك ..

ثم سألنى :

— لمـــاذا لا تفعل مثلى .. لقد كنت فى واشنطن .. على ما أذكر .. تفضل الكاتدرائيات ..

فأجبت مرتبكا :

— أوه .. كلا .. أنا لم أفعل ذلك من قبل ..

كنت أظن أن القساوسة لا يقيمون القداس فى السفينة سوى أيام الآحاد فقط .. ولكنهم كانوا يقيمونه كل صباح ... وكنت فى قرارة نفسى أود أن أذهب للاعتراف .. وكثيرا ماكنت أتعمد المرور أمام كابينة القسس وقد تركوا بابها مفتوحا .. كنت أروح وأغدو أمام الباب .. وكان يحدث أحيانا أن يرفع أحدهم رأسه عن كتابه ثم يبتسم لى ..

ولكنى لم أجد الشجاعة فى الافصاح عن رغبتى أن أهتف صائحا : يا أبتى •• اننى أريد الاعتراف » •

ولم تمض على ذلك سوى أيام قليلة عندما استيقظت على ضجة كبيرة فى الكابينة •• كان بابلو وآخرون متجمعين على كوة السفينة وهم يتصايحون بانفعال •• فنهضت من فراشى متسائلا :

— هل اقتربنا الآن من الساحل •• ؟

لقد كنت سمعت قبل ذهابى الى النوم أننا سنكون فى مجال رؤية الساحل فى وقت ما أثناء الليل •• وأننا سنشق طريقنا خـلال مضيق « سان برناردو » بدلا من شمال « باتآن » •• والآن •• يهتفون •• وهم يفسحون لى مكانا بينهم :

— انظر ••• !

ومن خلال كوة السفينة شاهدت الساحل ماثلا أمامى على الأفق •• فأخذت أبتلع ريقى •• وقد جف حلقى من فرط الانفعال وفى تلك اللحظة سمعت صوت المحامى ينطلق مرددا :

— آرض الصباح (١) •••

وسرت فى جسمى رعشة خفيفة •• فأسرعت الى فراشى مرة أخرى •• ووضعت الغطاء فوق رأسى فى محاولة لاستعادة النوم الذى طار من عينى •• بعد أن ساد الهرج على السفينة •• وأخذ يتزايد على مرور الوقت ••

اشتدت حرارة الجو بعد الظهيرة •• عندما وقفت محتميا فى بعض الظلال •• أسرح البصر عبر التلال التى ظهرت لنا من كل جانب ••• وفيما

---

(١) هذه العبارة هى المقطع الأول من النشيد القومى للفلبين .

أنا كذلك •• برز أمامى هيكل مألوف لأحد الجبال ••• وبغير ارادة منى •• وجدتنى أصيح •• وأنا أشير بيدى الى كتلة الجبل التى تصدرت صفحة السـما :

— انه جبل مايون ••• !

وانهمرت الذكريات على خاطرى •• فتراءى لى بيتنا •• ذلك البيت المصنوع من قش النيبا •• والذى يقع أسفل بركان مايون •• والأحباء الذين قاسوا كثيرا من ويلات الحرب •• والذين ينتظروننى الآن •• بعد تلك السنين الضائعـة ••• وأولئك الذين فارقوا البيت •• جريج •• وليلنج •• ودودوى ••• وطيف أمى •• بذراعيها السمراوين •• وصوتها الحنون •• ورائحة ثمار جـوز الهند فى أنفاسها •• وعطر الليمون فى شعرها ••• ثم تنبهت أخيرا على صوت أحدهم يسألنى :

— أليس هذا هو جبل مايون •• ؟

والتفت حولى لأرى قسيسا يقف الى جانبى •• فأجبته وأنا أحاول الابتسـام :

— أجل يا أبتاه •• انه هو •• وفى هذه البقعة يوجد بيتى عند أسفل الجبل ••

فقال وهو ينظر الى الأفق بارتياح :

— هكـذا •••

كان هـذا هو الأب « أوكامبو » ••• ولقد علمت أنه كان هـو وزميلاه الآخران فى روما •• عندما شرعت قوات هتلر تجتاح أوربا •• ولكنهم تمكنوا من الحصول على أماكن لهم على احدى البواخر التى كانت تقوم برحلات منتظمة بين أوربا وأمريكا ••

لا أدرى ما الذى حل عقدة لسانى فجأة •• فوجدتنى أتحدث اليه وأعترف له بأشياء كثيرة •• كنا نتمشى على ظهر السفينة جيئة وذهابا •• بينما هو يستمع فى صمت وفهم عميق •• وقبل أن أدرك حقيقة ما فعلت •• كنت قد اعترفت اليه بكل شىء •••

وفى الصباح التالى حضرت القداس ••• كان المذبح هو منضدة البنج بونج الموجودة فى قاعة الترفيه •• وكان أحد الضباط الفلبينيين من سلاح المشاة •• هو الذى يساعد فى اقامة القداس •• ومع أن الوقت كان مبكرا فى ذلك الصباح •• الا أن القاعة امتلأت بالحاضرين •• ومن ثم شرع القس « أوكامبو » يلقى موعظته حيث قال :

« فى هذا اليوم سنكون على أرض الفلبين من جديد •• ولسوف يصدم الذين يحضرون منا الى الوطن لأول مرة •• بعد تلك السنين •• عندما يشاهدون الخراب والحطام •• يعم مدننا الكبرى منها والصغرى •• لقد تهيأنا لهذه المناظر •• فقد رأينا فى الصحف صور مدننا التى دمرتها القنابل ••••• ولكن •• هنالك حطام آخر غير ذلك الذى سنراه بأعيننا •• فثمة أناس روعت الحرب أرواحهم •• أناس رأوا أسوأ مافى هذا العالم من شرور •• وعرفوا أبشع الأشياء •• ناس زعزعت الحرب ايمانهم •• ان لم تكن قضت عليه تماما •••• انه لمن الصعب على البعض منا •• ممن لم تمسسهم الحرب بسوء •• ولم يمارسوا الحياة فى بلاد حاصرتها الأهوال والنكبات •• ولم يكابدوا معنى الخوف •• وضيعة الرجاء — من الصعب عليهم أن يدركوا حقيقة أن يعيشوا بين أناس ممرورين من هذا النوع •••• فاذا قوبلتم بالاهمال حيث تتوقعون البشاشة •• واذا وجدتم الشك فى موضع اليقين •• ورأيتم أن أعز مثلنا التى ارتبطنا بها على مر السنين •• قد أصبحت نادرة •• أو معدومة على الاطلاق ••• واذا لم تصادفوا ذلك الخير الذ ىكنتم تؤمنون بأنه مستكن فى ضمائر الناس ••• اذا رأيتم هذا كله •• فادعوا معى أيها الأصدقاء •• الا يستمر هذا البلاء طويلا فى بلادنا ••••• »

وبينما كان القس يلقى موعظة • •كان قرص الشمس آخـذا فى الارتفاع عن صفحـة البحر رويدا رويدا ••• وبدأت نسمات الأرض القريبة •• تحمل الينا عبير أوراق النبات ••• فلمـا انتهيت من تناول الخبز المقدس •• رفعت رأسى أتطلع الى الساحل •• وأخذت أتعرف على المكان •• وأتذكر الأسماء التى كنت أعرفها من هـذه المنطقة التى تنتشر فيها الغابات •• والروابى المنحدرة العارية ••• ولكن لم تقع عيناى بعد على ذلك الحطام ••• لقد ظهر هذا فيما بعد •• عندما دخلنا الميناء وشاهدنا أعواد الصلب الملتوية •• وشظايا الأحجار •• والأطلال المتفحمة •• فى مكان الصورة القديمة •• التى كانت تشكل أفق مانيلا فى صفحة السماء ••

شرع بابلو يتصفح وجوه الناس الذين احتشدوا فى الميناء •• ولكن سرعان ما تحول بنظره عنهم •• لم يحتمل فى هذه المرة أن يمثل ذلك الدور الفكاهى •• الذى كان يوهم فيه نفســه بأن هناك من يهتم به عند الرحيل أو عند الوصول ••

ارتفعت أبصارنا فوق رءوس الحشد لنرى تلك الجدران التى صدعتها القنابل •• ولكن سرعان ما ارتدت أبصارنا الى تلك المشاهد الماثلة أمامنا فى الميناء •• الأيدى المتلهفة على اللقاء وهى تلوح بالتحية •• والعناق •• والدمـوع •••

وبينمـا كان بابلو يهبط من السفينة متمهلا وهـو يمسح وجهـه بيد مرتعشـة •• لمحت شيخا طاعنا فى السن يعانق الأب أوكامبو ••• وعجبت •• كيف نسيت أن أسأله ذلك السـؤال الذى انبثق الآن فى خاطرى :

— كيف يا أبتـاه نستطيع بحق •• أن نعيد بنـاء ذلك الحطام الآخر •• الذى لا يشاهد بالبصر •• ؟

هل يستطيع ذلك أولئك الرجال الذين قضوا نحبهم فى هذه الأرض •• مصرين على البقاء فيها ولو كان ثمن ذلك الموت •• ؟ أم يستطيعه أولئك الذين يريدون أن ينشروا اللعب فى كل مكان •• سيارات أنيقة تطقطق •• وبالونات ملونـــة ترتفع الى الســماء •• وقطارات تســير بالكهربـــاء ومسدسات •• وتماثيل للمهرجين الذين يبتسمون فى بلاهة •• ولهم أهداب مرفوعة الى أعلى •• فى منظر يثير ضحك الأطفال واعجابهم ؟

أم يستطيعه أولئك الذين يريدون أن يعلموا البكم أن ينطقوا والصم أن يسمعوا ويفهموا •• ؟ هل يستطيع ذلك الفن •• ؟ أم لعلها الحكمة •• ؟ أو الصــلاة •• ؟

لا أدرى •• ولكن لابد أن هنالك طريقة ما •• غير أنها لن تكون على أية حال •• طريقة الأيدى المرتعشة التى تخفى وراءها أشياء كثيرة •• ولا طريقة تلك المرأة التى عادت تجر معها حقيبة قديمـــة •• وتحمل بين ذراعيها طفلا بغير أب ••• !

والآن ••• فلنمض فى طريقنا متمهلين •• الى حطام المدينة •••



تقع أحداث هذه المجموعة القصصية في سنوات الحرب العالمية الثانية .. مسرحها مدن الولايات المتحدة الأمريكية أما شخصياتها الرئيسية فمن الفلبينيين المغتربين .. سقطت بلادهم فريسة الصراع الدائر بين الولايات المتحدة واليابان فانقطعت صلتهم بأرض الوطن وأصبح مصير الأهل والأحبة في علم الغيب . بعض هؤلاء المغتربين كان ينتظر يائساً نهاية الحرب يؤرقه الحنين وتعتصر قلبه محنة الوطن .

أما الأغلبية الساحقة فقد استوطنت المهجر ولكنها كانت تواجه في كل يوم حقيقة الأغتراب وفقدان الهوية .

يقول أحد الفلبينيين معبراً عن موقف المغتربين من أبناء وطنه :

«لقد كان كل منا يحاول جاهداً أن يخفي جرحه العميق تحت بشرته السمراء ، فكل منا له مأساته الخاصة بسبب الحرب الدائرة في بلادنا .. ولكننا رغم الالم كنا نمشي في شوارع المدن الكبرى في أمريكا وعلى وجوهنا سرور ظاهر ، وكأننا لا نبالي بشيء .. نشتاق للصداقة ، ونسعد بالكلمة الطيبة والنظرة الحانية ، وتهزنا لمسة الحب» .

انها قصة المغتربين عن أرضهم وقصة الغرباء في وطنهم .. ولهذا نقدم هذا العمل .

الناشر

مطابع الدوحة الحديثة